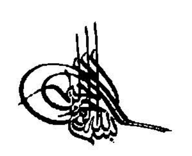

محمد تقي مصباح اليزدي
الحرب والجهاد في القرآن الكريم


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


الحرب والجهاد في القرآن الكريم



الحرب والجهاد في القرآن الكريم

Al.orfan@yahoo.com

تأليف: آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزديّ

ترجمة ونشر: مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية

توزيع:.................. مؤسسة المصباح الثقافية

الكمية:.................................... ١٠٠٠

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

تنفيذ طباعي:



شارع الرويس، الرويس، برج الراحة، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133 | P.O. Box: [illegible]
info@darawalaa.com | darawalaa@yahoo.com | www.darahwalaa.com

الإشراف العلمي: الشيخ مهدي البغدادي، تعريب: عقيل البندر، مراجعة النص: د.أحمد حسين، التدقيق اللغوي: د. قحطان رشك، الإخراج الفني: جاسم جبار، تصميم الغلاف: ممتاز الحسن.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد : ١٢٣٥ لسنة ٢٠١٥

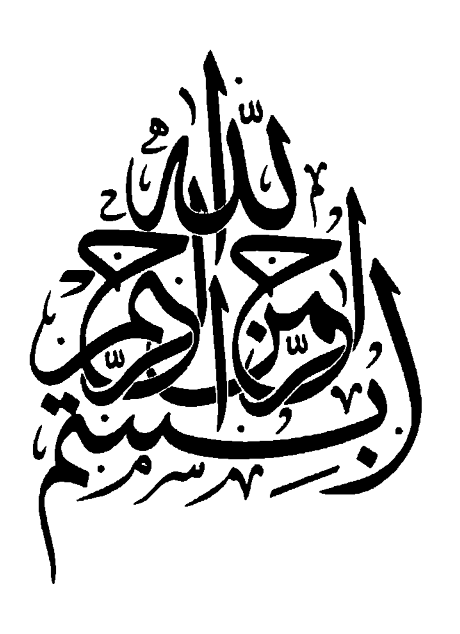


تأليف

سماحة آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزديّ

ترجمة

مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحیم

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

بالرغم من أن المفردات القرآنية في مجال الحرب والقتال والجهاد قد تناولها جمعٌ من أعلام المسلمين في الفكر والعقيدة والفقه والتفسير، إلا أنها ما زالت تشكو من فراغات كثيرة، بمعنى أنها لم تُستوعب بمقاصدها القرآنية استيعاباً مناسباً، إذ غالباً ما يُساق البحث إلى الميادين المعرفية الأخرى، فتبحث من زاوية فقهية أو زاوية كلامية، وإذا ما وجدنا هنالك أنساقاً قرآنية صريحة في بحث هذه المفردات فإننا كثيراً ما نلمح فيها نزعة الحراك باتجاه ردّ الفعل، التي ما زالت تستحوذ على كثير من الباحثين، وهذا ما يجعل البحث القرآني كثير الشكوى من التمرّد على نصوصه من جهة، ومن الانزياح نحو أدوات أخرى ليست بقرآنية من جهة أخرى.

وفي ضوء هذا التمرد والانزياح حاول الأستاذ الكبير آية الله محمد تقي مصباح اليزديّ أن يملأ مساحات جديدة في بحث هذه المفردات القرآنية، انطلاقاً من المناشئ اللغوية وانتهاءً بالتفرّد القرآني بالمعاني والاستعمالات الجديدة، وقد لاحظنا حرص الأستاذ الكبير اليزدي على مراعاة التنظيم والتسلسل الطبيعي والمنطقي في عرض أبحاثه، ممَّا يُوسِّع المساحة الإبداعية فيها ويعمّقها، وقد ناقش المؤلف قضايا حسّاسة في تركيبة الإنسان، من قبيل غريزة

الشر وعلاقتها بالحروب، كما عرض ثمرات الجهاد، التي منها ينبعث الروح والنشاط في الأمة، وبحسب عبارته: تخليص الناس من الكسل وتحريرهم من الجمود والاسترخاء.

ونحن من دواعي سرورنا أن نختصّ بأوّل ترجمةٍ – من لغة الكتاب الأمّ (الفارسيّة) إلى لغتنا العربيّة – لهذا الكتاب الجليل، الهادف بعناوينه، والقيّم في أسلوبه ومضامينه، والّذي نتوقّع له رواجًا طيباً في الوسطين العربيّ والإسلاميّ.

وأخيرًا نسأله تعالى التوفيق الدائم لخدمة تراثنا الإسلاميّ من خلال الإسهام بترجمة الآثار القرآنية والفكرية والثقافية ونشرها، ولا يفوتنا توجيه الدعوة الصادقة لأساتذتنا الأعزّاء من أصحاب الاختصاص العالي في المجالات المعرفيّة الإسلاميّة (الفكريّة والثقافيّة) بأن يرفدونا بنتاجهم القيّم؛ بغية العمل على طباعته ونشره، ومنه تعالى نستمدّ التوفيق.

مؤسسة العرفان للثقافة الإسلاميّة

المقدّمة

من الظواهر التي ضربت في عمق التاريخ البشري، ورافقت حياة الإنسان الاجتماعية منذ عصور سحيقة هي ظاهرة الحرب؛ بل يمكن القول: إنها ولدت معه منذ أن رأت عينه النور، وكانت ترافقه دائماً في تفاصيل وجوده، ولو تتبّعنا أوراق تاريخ المجتمع البشري في عصوره المختلفة لما وجدنا عصراً واحداً منه يخلو من حرب؛ بل من حروب متعددة، رغم أن الحرب عادةً ما تفضي إلى الخسارة والمصيبة وحوادث كثيرة صعبة ومرة، ولهذا نجد أن البشر غالباً ما ينفر بطبعة منها، ويهرب ويفر من الوقوع في شراكها؛ ولكن لم تجد تلك المصائب والمحن المرافقة لها نفعاً في أن تمنع وترد آلاف الحروب المختلفة على مرّ التاريخ البشري، سواء كان ذلك في زمان حكومة النظام القبلي على المجتمعات البشرية، أم في الأزمنة اللاحقة لذلك عندما تحولت الدولة إلى مجموعة من المدن ترتكز على أقاليم متعدّدة، وظهور النظام والدول النظامية، أو عندما أوجد نظام الحكومة - الوطن والدولة - أمة تستقل بذاتها، رغم كل ذلك كانت الحرب عنواناً بارزاً، وأمراً واقعياً يلاحق النسيج الاجتماعي للبشر.

ولعل ما ذكر آنفاً هو السبب الذي حدا ببعض المفكّرين إلى الاعتقاد بأن الحرب أساساً تعدُّ جزءاً ذاتياً وضرورياً لا ينفك عن الحياة الاجتماعية، ولا يمكن أبداً تجريد المجتمع الإنساني عن الحرب والقتال، فتجلّى هذا الرأي في ألوان مختلفة من التعابير والصياغات والنظريات الفلسفية، فيرى (هوبز) أنَّ

الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، ويعتقد (نيتشه) أن سحق الأقوياء للضعفاء وقهرهم هو القانون الطبيعي لحياة الإنسان الاجتماعية، ومثل هذه الآراء والنظريات كانت ملهمة لهذا الاعتقاد، وأسهمت كثيراً في دفعه إلى الأمام.

وكيفما كان الأمر فإن الذي يُنبِئنا به التاريخ هو أن الحرب كانت موجودة دائماً في مسرح الحياة الاجتماعية لبني البشر، من هنا: إنّ غض الطرف عن ذلك ليس إلا صرف النظر عن الواقع وإنكاره، طبعاً هذا الحديث لا يعني إطلاقاً أننا نروّج للصراع، ونشيع دواعي الحرب، أو نقرع طبولها أبداً؛ بل هو إذعان واعتراف بحقيقة بيّنة في علم الاجتماع البشري، وظاهرة مهمة في حياة المجتمع الإنساني، فلو أردنا أن نكون موضوعيين ونتحلى برؤًى واقعية للأشياء، علينا أن نتحرّى طبيعة هذه الظاهرة، ونحللها، ونجيب عن الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بها، بدلاً من تجاوزها وغض النظر عن حقيقتها و واقعيتها.

من هنا تعاطى الإسلام بوصفه ديناً شاملاً مع هذه المسألة بواقعية وموضوعية ضمن تعاليمه، وببيان إرشاداته المختلفة الخاصة بالحرب؛ إذ جاءت التوجيهات الإسلامية المهمة، والحلول الناجعة المتعلقة بواقع هذه الظاهرة الاجتماعية ليهتدي بها أتباع هذه الديانة السمحة.

إن الموضوعات والمسائل المتعلقة بظاهرة الحرب يمكن تقسيمها بنحو كلي على مجموعتين، هما:

الأولى: المسائل المتعلقة بالجانب الوجودي وواقع الحرب وكينونتها.

الأخرى: الأمور المتعلقة بالقضايا الدستورية وما ينبغي ولا ينبغي منها، والمسائل المتعلقة بالنظام الحقوقي للحرب. وبنظرة إجمالية لآيات القرآن الكريم نجد أنها تعرّضت في موضوعات متعددة إلى المجموعتين كلتيهما.

وما بين يديك أيها القارئ الكريم بحث ودراسة تحليلية لظاهرة الحرب من وجهة نظر القرآن الكريم؛ لذلك إن نوع البحث في الواقع هو تفسير موضوعي للقرآن، وكما أشرنا خلال البحث أن موضوع الحرب سيبُحث ويُدرس في ضوء القرآن وآياته الشريفة المتعلقة به.

إن هذه البحوث عبارة عن مجموعة دروس ومحاضرات كان الأستاذ الحكيم آية الله مصباح اليزدي حفظه الله قد ألقاها على جمع من الطلبة في مؤسسة «في طريق الحق» ونشكره تعالى الذي وفقنا لنظم تلك الدروس وكتابتها، وهذا ما نملكه من بضاعة مزجاة وأملنا أن يتقبل الله منا هذه البضاعة المتواضعة وتكون سبيلاً لرضا صاحب العصر والزمان ورعايته.

المقرران

محسن حسين اسكندريّ و محمد مهدي نادريّ

الفصل الأول

مفاهيم عامة

أولاً: الحرب والنظريات المختلفة:

إن المحور الأساسي التي تدور عليه بحوث هذه الكتاب هو البحث عن ظاهرة (الحرب) في ضوء الرؤية القرآنية وسنبحث هنا في الآيات المتعلقة بالحرب والمسائل المرتبطة بها.

لقد أضحى موضوع الحرب - لجوانب عديدة - موضوعاً مهماً استرعى انتباه المفكرين، وأثار اهتمامهم عبر البحث والتقصي، ثم إنه يمكن دراسة هذه الظاهرة ضمن تخصصات وفروع علمية مختلفة من العلوم الإنسانية، فضلاً عن أن علم التاريخ تعرض لحروب كثيرة وقعت على مر العصور المختلفة، ولكن من الواضح أن هدف علم التاريخ هو الاطلاع على الحوادث التي تعرضت لها الأمم السابقة ومن ثم الإخبار عنها، وأما (فلسفة التاريخ) فهدفها دراسة الأسباب والعوامل التي دعت الى تحقق ووقوع تلك الحروب بين الأمم والشعوب وبحثها، وعليه إننا عندما نتحدث عن الحرب فإننا بعد أن نتعرّف وجود تلك الحروب وظهورها وعوامل تكوينها على طول تاريخ المجتمع الإنساني نسعى للكشف عن القوانين التي تحكمها، وعن الأسباب التي دعت إلى انتصار بعض الأمم وهزيمة الأخرى.

هذا وجرى الحديث عن الحرب في فلسفة الحقوق ويقصد به هنا هو البحث عن القاعدة الأساسية التي يمكن تبرير الحرب عن طريقها، والتنقيب عن العلل

التي سوّغت وقوعها، ويعنى القانون الدولي عندما يتعرض للحرب بحقوق الامم وجيوشها وواجباتها في حال نشوب الحرب واشتعال فتيلها، في حين يدرّس أساتذة الكلية العسكرية والمعاهد الحربية طلابهم على سبل التخطيط والتنسيق العالي في أداء العمليات العسكرية في جبهات القتال.

إذاً كل تخصص وعلم من العلوم الإنسانية له علاقة وارتباط ولو بنحو من الأنحاء مع ظاهرة الحرب فيتعرض لها بالبحث والتحليل والدراسة.

وما يهمنا الآن في هذا البحث هو أن نلتفت إلى نقطة مهمة، وهي أن القرآن الكريم ليس كتاباً في علم التاريخ، أو فلسفة التاريخ، أو علم الاجتماع، أو فلسفة الحقوق والقانون الدولي، وليس نصوصاً تتعلق بالخطط والبرامج العسكرية وفنون القتال؛ بل إن الهدف الأساسي من إرسال هذا الكتاب المقدس هو هداية الإنسان في مسيرته لنيل الكمالات الروحية والمعنوية، من هنا فلو تعرضت الآيات القرآنية الشريفة للحرب أو القتال كانت ضمن هذه المسيرة ومن أجل الحصول على ذلك الهدف وتلك الدرجات، بعبارة أخرى: إن هذه الآيات ترشد الأشخاص الذين يطلبون الكمال في حياتهم، وتهدي من يقصد نيل الدرجات الإنسانية العليا، وتأخذ بيده إلى الصواب في ساحة المعركة ومواطن الصلح والعلاقات الدولية؛ ليعرف مع من، وفي أي حال، وكيف يجب عليه القتال وفي أي المواطن يحجم عنه؟، ويسلك سبيل الصلح والسلام مع العدو.

إن القرآن الكريم بصدد بيان مسألة الحرب وعرْضها وما يتناسب مع هدفه الأساسي؛ ليكون التكليف واضحاً وبيّناً لأتباعه ومريديه، وهي المسألة التي

ضربت في عمق التأريخ الإنساني وجذوره التي تعد من أقدم الظواهر التي رافقت الحياة الاجتماعية للبشر، ولا ينبغي التعاطي معها إطلاقاً بوصفها ظاهرة غريبة عابرة مرّ بها الإنسان، ولاشك في أن لهذا الكتاب السماوي نكاتاً ومسائلَ عديدة تتعلق بعلم التاريخ، وفلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، وفلسفة الحقوق، والقانون الدولي، والأخلاق وحتى بعض النكات التي تتعلق بالفلسفة أيضاً.

سنحاول في هذا الكتاب الاشارة أيضاً الى بعض أهم تلك النكات، ولكن ينبغي علينا أن نفهم أن هدف هذا الكتاب الأساسي هو ما ذكرناه، حتى لو دعا الأمر إلى التعرض لبعض مسائل العلوم المذكورة أو العلوم الطبيعية والفيزياء مادام الأمر لغرض الوصول إلى الهدف المقصود.

ثانياً: عرض بعض المفردات المهمة:

الآن وقبل البدء بدراسة آيات القتال وبحثها وما هو المقصود من ظواهر تلك الآيات عرض أهم المفردات التي استعملت في القرآن الكريم بمعنى الحرب، إذ إن بعض المفردات التي استعملها القرآن في هذا المجال هي كلمات غنية وثرّة وتحتوي على مفاهيم أعمق، في حين نجد بعضها الآخر له مفهوم يوازي المفهوم البيّن من المفردة الفارسية (جنك)، وفيما يأتي نتناول كل واحدة من هذه الكلمات بالتوضيح والبيان.

١- الحرب:

جاءت لفظة حرب في القرآن الكريم ثلاث مرات، يقول تعالى في إحدى

الآيات عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]، وفي آية اخرى يقول تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[3].

في الآيات الثلاث المتقدمة جاءت كلمة الحرب بمعنى القتال الحقيقي، ولكن في الآية الآتية استعملت مفردة الحرب بمعنًى آخر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[4]، فلم تستعمل مفردة الحرب بمعنى القتال الحقيقي؛ بل بمعنى إعلان الحرب على الله من آكلي الربا، إذ عدّ القرآن الكريم ذلك الفعل حرباً.

ومن المصدر (حرب) هناك موردان ذُكرا في القرآن الكريم أحدهما بصيغة

---

(١) المائدة:٦٤.
(٢) الأنفال:٥٧.
(٣) محمد: ٤.
(٤) البقرة:٢٧٨ـ٢٧٩.

الماضي «حارب»؛ والآخر بصيغة المضارع «يحاربون» وقد استعملت في هذين الموردين بمعنى الحرب.

جاء المورد الأول في الآية التي نزلت بمسجد ضرار، عندما كان إسلام مَنْ بنى ذلك المسجد نفاقاً ودجلاً، إذ أرادوا من خلال ذلك المسجد أن يتآمروا على المسلمين، لذلك نعتهم الله تبارك وتعالى ونعت مسجدهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1]، فاعتبر الله سبحانه وتعالى الكافرين وأعداء الإسلام والمسلمين أنهم: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وجاء المورد الآخر في آية أخرى ذكرت أن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله أحد أربعة أمور: هي: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

٢- القتال:

المادة الأخرى التي جاءت بمعنى الحرب في القرآن الكريم هي (ق ت ل) وقد وردت ١٧٠ مرة في الكتاب العزيز؛ ٩٤ مرة بهيئة الثلاثي المجرد (قتَلَ يقتُل)، و ٦٧ من باب المفاعلة، و٥ مرات من باب التفعيل، و ٤ مرات من باب

(١) التوبة:١٠٧.

(٢) المائدة: ٣٣.

الافتعال، وفي هذا السياق ينبغي الالتفات إلى أن القتل والتقتيل يعني نهاية شخص واحد على يد آخر، وبالنتيجة سيكون القتل من طرف واحد، وعليه لا تستخدم هاتان المفردتان بمعنى الحرب وهو القتال المصطلح، وصراع طرفين، وأما كلمة قتال واقتتال ففيها طرفان، وتستخدم في الموارد التي يكون كل من الطرفين قد عزما وسعيا إلى قتل الطرف الآخر وإماتته، وتستعمل عندما يصول أحد الطرفين ويجول على الآخر؛ من هنا: إن موارد باب المفاعلة والافتعال هي التي تكون بمعنى الحرب وهي التي ستنسجم مع موضوع بحثنا.

٣- الجهاد:

استعملت مفردة الجهاد ومشتقاتها ٣٥ مرة في القرآن الكريم، والجهاد في اللغة: هو السعي وبذل الجهد والقدرة وتحمل المشقة في سبيل الوصول إلى الهدف المقصود، وحيث إن المفردة من باب المفاعلة فغالباً ما يستعمل في نوع من المشاركة والتقابل والمنافسة، وعليه: إن الجهاد يتضمن عادة طرفاً آخر يشارك في العملية، فيستعرض أحد الطرفين أمام الآخر، ويستعد للمواجهة، وكل منهما يعد العدة والعدد لنيل هدفه وهو الانتصار على الآخر، وإلحاق الهزيمة به، باذلاً كل طاقته وقدرته في سبيل ذلك.

طبعاً ينبغي الالتفات إلى أن الجهاد لا يتجلى بشكله العسكريّ والحربيّ فحسب؛ بل كل لون من ألوان المنافسة والمواجهة والكفاح يطلق عليه جهاداً أيضاً، فقد تكون المواجهة مواجهة حربية وقد تكون اقتصادية أو ثقافية وقد

تكون سياسية أيضاً، ويجب أن يعلم القارئ أن مفردة الجهاد لا تستعمل دائماً بمعناها الإيجابي؛ بل قد تستخدم في مصاديقها السلبية أيضاً، مثال ذلك ما جاء في الآية الثامنة من سورة العنكبوت، إذ يقول الله تبارك وتعالى بعد أن يوصي الإنسان برّ والديه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وفي آية أخرى جاءت عبارة: «عَلى أَن تُشْرِكَ بِي»، «لِتُشْرِكَ بِي»، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

ولا يوجد في القرآن الكريم ذكر لسعي الوالدين وإلحاحهما لجعل الأبناء مشركين ونعتت ذلك بالجهاد، سوى ما جاء في هاتين الآيتين، ومن الطبيعي جداً أنهما يحملان هنا معنى سلبياً، ولا يوجد فيهما أي قيمة معنوية إيجابية، وأما مفردة الجهاد والمجاهدة في سائر الآيات الأخرى فجاءت بمعنى السعي الحثيث، وبذل الوسع الذي يقوم به الإنسان ليبلغ أهدافاً صحيحة ترضي الله سبحانه وبالنتيجة يكون المعنى ذا معطًى إيجابي.

وهذا السعي وبذل الجهد ذو البعد الإيجابي قد يكون توظيفاً للوسائط والأدوات المادية فحسب، وهنا يقال له الجهاد المالي أو الجهد اللوجستي، كتأمين تكاليف الحرب مع الكفار والمشركين والمنافقين، ومساعدة الفقراء والمحتاجين في

(١) العنكبوت: ٨.
(٢) لقمان: ١٥.

المجتمع، وإعانة المرضى والمصابين من خلال صرف الأموال لهم، وبناء المشافي الصحية، والمشاركة ببناء المدارس والمساجد، أو تعبيد الطرق والشوارع، وقد يكون لهذه الأفعال بعدٌ حربيٌّ وعسكريٌّ أيضاً عندما تتضمن أخطاراً ومغامرات حقيقية تشكل خطورة جادة على حياة الإنسان، قد تصل إلى بذل النفس والشهادة حتى.

وقد تأتي مفردة الجهاد بمعنى مخالفة النفس الأمّارة، وهو ما يطلق عليه جهاد النفس أو الجهاد الأكبر، وهناك آيات عديدة استعملت كلمة الجهاد بهذا المعنى، وفي ما يأتي نشير إلى بعض الموارد التي ذكرت ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وكيفما كان معنى الجهاد فإن المصداق الأبرز والأوضح للجهاد هو معناه الاصطلاحي، وهو القتال في سبيل الله، وفيه يكون المجاهد قد حمل روحه على كفه وهو ينتظر الشهادة، وهذا النوع من الجهاد يكون مقارناً لجهاد النفس، فعلى المجاهد في سبيل الله أن يبتعد عن كثير من الشهوات والملذات، ويهجر الدنيا، ويترك الزوجة، والأولاد، والأموال؛ ليستعد لميدان القتال ومواجهة العدو ويعرّض نفسه وسلامته للخطر والفناء، ومن الطبيعي جداً أن هذا العمل سيتوقف على جهاد كبير وعظيم للنفس.

---

(١) العنكبوت: ٦.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

٤- سفك الدماء وإراقتها:

هناك تعبير آخر قريب من مفهوم الحرب وهو سفك الدماء وإراقتها؛ إذ جاءت في القرآن الكريم مرتين، قال تعالى﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى أيضاً مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[2].

ينبغي الالتفات إلى أن سفك الدم أعم من القتال، ولا يتفق في الحرب فحسب، بل يراق الدم في القتل أيضاً، فيصدق في قتل الإنسان لمثله، ويصدق أيضاً عندما يقصد الطرفان، وتنوي الجبهتان أن تريق أحدهما دماء الأخرى، والآخر هو المعنى الذي سيكون مرادفاً للحرب، وهو موطن بحثنا.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن هناك تعابير ومفردات أخرى وردت في القرآن الكريم، تفيد معنى الحرب والقتال أيضاً، ولكن لا حاجة بنا للبحث فيها.

ثالثاً: القيم المعنوية التي تحملها اصطلاحات الحرب والقتال:

استعملت مفردات وتعابير عديدة لمعنى الحرب في القرآن الكريم، بعضها لا تحمل قيمة معنوية مهمة من قبيل الحرب والمحاربة، والقتال والمقاتلة والاقتتال،

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) البقرة: ٨٤.

أي: لا تجد لها معنى مستقلاً بنفسه يدل على أن المقصود من تلك المفردات - بحسب ما يرى من استعمال تلك الكلمات - هو الحق أو الباطل، أو العدل أو الظلم، ولا يفهم منها ما إذا كان القتال مشروعاً أم لا؟ أجل، يمكن استعمالها في كل واحدة من تلك الموارد.

إذاً الحرب والقتال والمفردات الأخرى القريبة لها يمكن أن تكون حسنة أو قبيحة بالقياس إلى مواطن استعمالها؛ ولكن لا يمكن أن تكون لتلك المفردات نفسها هذه القيمة من خلال قصد المتحدث وتقييمه، فيجزم أنها بذاتها ذات بعد حسن أو قبيح.

نعم، لدينا أيضاً كلمات واصطلاحات لها قيمة واعتبار بنفسها أعم من أن يكون ذلك المعنى إيجابياً أو سلبياً، من قبيل الجهاد وسفك الدم.

فنجد أن الاستعمال القرآني وتعاطي الثقافة الإسلامية مع مفردة الجهاد هو تعاطٍ إيجابيّ على العكس من اصطلاح سفك الدم؛ إذ تدل بنفسها في الاستعمالين على معنًى وقيمة سلبية.

صحيح أن معنى الجهاد في اللغة يعني أي لون من ألوان السعي والجهد الحثيث للوصول إلى أي هدف من الأهداف، ولكن الاستعمال القرآني وتعارف المسلمين يقصد به فقط قتال المسلمين للكفار والمشركين، وذلك فقط هو الذي يقصد به الجهاد في هذين الاستعمالين، في المقابل لا تطلق هذه المفردة على النشاطات العسكرية، والتحركات القتالية التي يقوم بها الكفار والمشركون، سواء كان ذلك حرباً في ما بينهم أم هي استعدادات لقتال المسلمين.

وكذلك في ما يخصّ اصطلاح سفك الدم، فإنه وإن استعمل في اللغة بمعنى إراقة الدماء، وهذا الأمر وإن كان حسنه وقبحه يتعلق بطبيعة الظروف والمناسبات والدواعي المختلفة التي تحيط بعملية إراقة الدماء وسفكها، ولكن استعمال هذا الاصطلاح في الثقافة الإسلامية والمحيط الإسلامي باعتباره وقيمته السلبية، لم يكن سوى معنًى قبيحٍ غير مشروع.

وعليه إن الجهاد يطلق في ثقافة القرآن والدين الإسلامي وفي عرف المسلمين وتداولهم على القتال الذي يكون ذا أهداف حقّة وعادلة، من هنا أطلق بعض المترجمين على هذا اللون من القتال (الحرب المقدسة)، وترجم هذا اللون من القتال بهذا الاصطلاح، وعكسه مفردة سفك الدم واصطلاحها؛ إذ يستعمل في الثقافة القرآنية والعرف الإسلامي في الحرب الظالمة عندما تكون أهدافها باطلة غير حقة.

وعلينا أن نلاحظ أيضاً أنه كلما وردت عبارة (في سبيل الله) بعد مفردة الحرب أو القتال أو أي عبارة أخرى مرادفة لتلك دلت على حقانية ذلك القتال، وهو قتال في سبيل الله، سواء ورد ذلك القيد والعبارة بعد لفظ الجهاد ونحوه، حيث يكون لتلك المفردات والألفاظ معانٍ وقيمٌ إيجابية حقّة، أم جاء ذلك القيد بعد لفظ القتال ونحوه؛ إذ لا يكون لنفس تلك المفردات قيمة إيجابية، وثقل معنوي، بعبارة أخرى: إن ورود عبارة (في سبيل الله) فإنه فضلاً عن كون الأمر هنا جهاداً سيكون لكلمات الطائفة الثانية وألفاظها اعتبار إيجابي وقيمة معنوية حقّة أيضاً.

الفصل الثاني

الحرب في ضوء النظام التكوينيّ

بعد عرض أهم مفردات البحث واصطلاحاته، علينا الآن التحري عن الرؤية القرآنية المتعلقة بالحرب وأبعادها وزواياها المختلفة، وهذا البحث مبنيّ في ضوء التسلسل التاريخي والمراحل الزمنية لنزول الآيات الشريفة، أي إننا نبدأ الدراسة والبحث في أول آية نزلت في الحرب والقتال، ومن ثم - وبحسب التسلسل التاريخي - يتم تناول آية بعد أخرى نزلت بهذا الخصوص.

علينا كذلك رعاية الأساليب والطرق المختلفة الأخرى في تنظيم هذا البحث وتدوينه، وفي هذا المضمار سنسعى لتطبيق سبيل منطقي خاص، إذ سنقدم المواضيع والمسائل المبنائية أو الأساسية التي لها دور رئيسي في فهم مسائل الحرب الأخرى وقضاياها في ضوء أهمية الدور ومركزيته، فلا شك في أن البرهنة على بعض مسائل الحرب وإدراكها منوط بإدراك بعضها الآخر وإثباته، من هنا ولكي نفهم تلك القضايا والمسائل بشكل أيسر وأسهل، علينا مراعاة هذا التنظيم والتسلسل الطبيعي المنطقي الذي أشرنا إليه.

وببيان آخر: إنه في ظل تراكم المواضيع والقضايا المتعلقة بالحرب والقتال، فإننا نجد هناك نوعاً من التقدم والتأخر المنطقي في ما بينها، بحيث لو لم يراعَ ذلك التسلسل عند البحث والمطالعة أو عند التعليم والتدريس سيكون مصير ذلك الجهد وما يرافقه الفشل، ولن يبلغ النتيجة المطلوبة والنهاية الصحيحة.

هناك العديد من المسائل الأساسية التي تتعلق بالحرب عندما لا يتم بيانها في

بادئ الأمر سوف تكون الإجابة عن المسائل الأخرى معقدة وغير واضحة أو غير ممكنة.

من هنا علينا أن نراعي هذا التقدم والتأخر، والنظم المنطقي للوصول إلى دراسات جادة وبحوث نافعة، ولبيان الأمر نمثل بما يأتي:

أإنّ الحرب أمر حسن أم قبيح؟ وإذا كان قبيحاً، فكيف يمكن منع وقوعه والحيلولة دون تحققه؟ وإن كانت الحرب والمعارك أمراً حسناً فما هي حدوده ومدياته؟ وإلى متى وأين يجب أن تستمر؟ وما هي القوانين والضوابط التي تحكم تلك الحرب؟ وما هي السبل الصحيحة لتقيمها؟ وأي الشروط ينبغي مراعاتها عند نشوبها واندلاعها؟ لكي لا تضيع حقوق الإنسان وتسحق مقدرات البشر.

ولكن قبل أن نعطي جواباً عن هذه الأسئلة علينا أولاً أن نجيب عن سؤال هو أكثر أهمية ومحورية، ويعد أساسياً إذا ما قورن بالأسئلة المطروحة، وله من بينها رتبة التقدم، والسؤال هو: لماذا توجد الحرب وينشب القتال؟

إنَّ هذا السؤال هو من سنخ قضايا الكينونة والوجود، وله تقدم طبيعي على الأسئلة المتعلقة بحقوق الحرب وشروطها وضوابطها واعتباراتها، وإذا لم تتم الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن الرد على تلك الأسئلة رداً مقنعاً، وسوف تكون الإجابة عنها قاصرة لا تتناسب معها؛ من هنا شرعنا في بحثنا بالإجابة عن هذا السؤال، وفي ضوء هذا التسلسل أجبنا عن الأهم فالأهم، مقدمين بذلك السؤال الأكثر محورية، بناءً على ذلك تكون الإجابة عن أي سؤال، وحل أي

مسألة ستفتح الطريق لحل عقد كثير من المسائل اللاحقة الأخرى، وهي دائماً سبيل للإجابة عن الأسئلة التي تليها.

أولاً: البيان الفلسفي لاندلاع الحرب:

أشرنا في ما تقدم إلى أن السؤال الأساسي الذي تكون الإجابة عنه بمنزلة الشرط الأساسي للإجابة عن الأسئلة الأخرى المتعلقة بالحرب: لماذا تقع الحرب في العالم أساساً؟ لماذا خلق الله البشر على نحو يبادر إلى الحرب وسفك الدماء؟ ولماذا أصبح كل هذا القتل والفساد والدمار والخسائر التي تحيق بالإنسان وتلحق به؟ هل وقوع كل هذا الدمار وإراقة هذه الدماء الغزيرة بسبب تلك الحروب أمرٌ مقصودٌ في نظام الخلقة، ومطلوب ضمن الإرادة التكوينية لخالق العالم؟ الله تعالى هو الذي يرغب في أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان؟ أم أنه غير راضٍ عما يحصل، وأن المخلوقات هي التي يقتل بعضها بعضاً، وهي كائنات تعيش التمرد والخصام، وتثير الصراع والحرب؛ لذا ندم على خلق الإنسان وتكوينه؟ وفي هذا الصدد نقرأ في نصوص التوراة ما يأتي: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم * فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه * فقال الربّ: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم * وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب»[1].

---

(١) سفر التكوين: ٦ (٥ـ٨).

أجل في ضوء نصوص التوراة الموجودة التي تعرضت للتحريف طبعاً نجد أن الصراع والقتال الذي يمر به الإنسان لم يكن مقصوداً في إرادة الباري التكوينية، وما إن رأى إشعاله لفتيل الحرب والنزاع ندم وتأسف على خلقه، إلا أن ضعف هذا الكلام يغني - بالطبع - عن شرحه وتوضيحه.

وعلى أية حال ينبغي الالتفات الآن إلى الرؤية الإسلامية، وكيف يمكن أن يكون ردها على هذا السؤال المحوري؟

وماذا سيقول الإسلام عن هذه المسألة المعقدة؟

وفي ضوء تعاليمه كيف يرى الهدف الذي كان وراء خلق الإنسان وابتداعه؟

ولِمَ خلق الله الإنسان مجرماً شريراً سفاكاً للدماء يسعى وراء الحرب والاقتتال؟

وكيف تكون كل المفاسد الإنسانية، وإراقة الدماء، وإثارة الحروب والصراعات من وجهة نظر الإسلام ضمن النظام الأحسن، والخلق الأصلح؟

حلّ هذا الموضوع إذاً، وفكّ عقدته مهم ورئيسي جداً للوصول إلى الأبعاد القانونية والحقوقية والقيميّة للحرب والخوض فيها.

يقول تعالى في الإنسان الذي يهوى الحرب والمخلوق المتعطش لسفك الدماء:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

يتضح من خلال هذه الآية أن الملائكة حتى قبل خلق الإنسان كانوا يعلمون هويته وحقيقته وأنه سيقتل وسيسفك الدماء[2] من هنا طرحوا سؤالاً مؤدباً معترضين فيه على جعل خليفة من هذا النوع، فقد سألوا الله تعالى: لماذا تجعل الإنسان المخلوق السفاك والمخرب خليفتك في الأرض رغم أننا بمنزلتنا هذه أرفع وأسمى منه، فأجابهم الله تعالى جواباً مجملاً: «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»، وهذه الجواب على إجماله فيه إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن من بين هؤلاء البشر الذين عدّهم الملائكة ظالمين عاصين مَنْ ستكون منزلته ومقامه أسمى وأرفع من الملائكة وهو أحق بالخلافة منهم في الأرض.

وعند النظر إلى هذه الآية يمكن القول ومن دون شك: إن القرآن الكريم يرى أن القتال وسفك الدماء إحدى اللوازم البينة لوجود الإنسان الأرضي، وهو أمر ضروري لا ينفك عن حياته الاجتماعية، وأن الله تعالى وملائكته كانوا يعلمون قبل خلق هذا الكائن المعقد بهذه الخصوصية الذاتية اللازمة له، وعليه لا يمكن القول إطلاقاً: إن الله تعالى لا يدرك حقيقة هذا المخلوق، ولا يجوز التفوّه بأنه لا يعلم ظاهرة الحرب المغروسة فيه وسفكه للدماء، ولا يصح الحديث أساساً عن أنه لا يدري بأن هذا الأمر سيتفق وقوعه في حياته ومسيرته

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) لقد عرض المفسرون آراءً مختلفة عن طبيعة فهم الملائكة، وكيف أنهم كانوا يدركون أن هذا المخلوق مفسد يهوى الحرب والصراع، فمن يروم الاطلاع أكثر على فحوى هذه الآراء يمكنه مراجعة كتب التفسير والشروح التي دونت ذيل الآية المذكورة.

الاجتماعية، وبعد خلقته أدرك حقيقة الموقف فندم على تكوينه وإبداعه !

اتضح الآن أن الله والملائكة كانوا يعلمون بصفة الإفساد وإراقة الدم وخصوصيتهما لدى الإنسان، وهنا يطرح سؤال فلسفي مهم وهو: لماذا خلق الله تعالى الإنسان بهذه الصفات الذميمة، فجعله يحمل كل هذا الشر والدمار، وعلى صعيد أوسع وأعم لماذا خلق الله تعالى العالم ليكون مسرحاً لكل هذا الفساد والفقر والسلب والنهب؟ ولماذا جعل كل هذه الكوارث تحيط بالإنسان؟ وما هي الغاية والقصد من جعل هذا الكون يشهد كل هذه الحوادث الطبيعية المرّة والمؤلمة كالزلازل، والسيل، والقحط، والمرض؟

وقد أجاب الفلاسفة والمتكلمون عن هذه التساؤل كلٌّ بحسب منهجه ورؤيته، وينبغي البحث والتقصي عن الإجابة المفصلة -بخصوص هذا الموضوع- في مظانها. وما يمكن ذكره هنا إجمالاً هو: أن وجود شرور كهذه، ومفاسد بشرية وطبيعية إنما هي في الواقع من لوازم وجود عالم الطبيعة وعالم الإمكان وضرورياتها وتزاحم العالم المادي، وعلى أساس الحكمة الربانية خلق الله سبحانه عالم الطبيعة مرافقاً لمثل هذه الشرور والمفاسد شئنا أم أبينا، مثل الحرب والفقر والمرض والسيل والزلازل والطوفان ونحوها، ولا يمكن وجود عالم الطبيعة والخلق المادي هذا من دون هذه الشرور والمفاسد، لذا إن ترك فطر هذا العالم وخلقه من قبله تعالى وهو صاحب الفيض المطلق لا ينسجم مع إرادته تعالى، فخلق الطبيعة على هذا النحو وهو يعلم - عندما أراد ذلك - أنها ستحتوي على جملة من الشرور والمفاسد طوعاً أو كرهاً، والتصاق هذه الكوارث

والشرور ومرافقتها لهذا العالم لا يمنع من تعلق الإرادة الإلهية الحكيمة بخلقته وإبداعه، ذلك لأن - ورغم وجود هذه الشرور والمفاسد - هناك خيراً وجمالاً وحسناً يحتويه هذا العالم هو أكثر وأوسع بالتأكيد من تلك الشرور والمفاسد، هذا هو الجواب الإجماليّ، وبالنتيجة يمكن تبرير الحرب وسفك الدماء والقتل زاد أو نقص، وعليه يمكن أن يتفق وقوع مثل ذلك في المجتمع الإنساني.

ثانياً: الحرب والإرادة التكوينية للباري تعالى:

كما أشرنا سابقاً أن الآيات القرآنية تدل بوضوح على أن وقوع الحرب أمر معلوم، وبيّنه الله تعالى في نظام الخلق الرباني، ولم يكن خارجاً عن علمه وإرادته وتدبيره، ومن جملة الآيات التي يمكن أن تكون دليلاً على ذلك هي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(١).

وهذه الآية فيها دلالة على أن الله تعالى لو أراد فإنه يمكنه أن يخلق الإنسان ويجعل تفاصيل حياته بعيدة عن كل ألوان الحرب والقتال وسفك الدماء، ولكنه لم يرد أن يكون الإنسان مجبوراً على ترك القتال، ويكون مرغماً على أن يسود حياته الهدوء والراحة فقط.

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

إن الله تعالى لا يريد أن يسلك بنو آدم طريق الخير على سبيل الجبر والإكراه، فلو أراد ذلك سيكون الأمر كما قال سبحانه ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] ولأصبحت الحياة الاجتماعية كما ذكر في آخر الآية التي نحن بصدد البحث فيها الآن أيضاً، وهي التي تتحدث عن القتال، إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾[2].

هذه الآيات الكريمة تدل بوضوح على أن الله سبحانه خلق الإنسان أولاً وبالخصوص حراً كامل الإرادة، ولم يصده ويمنعه عن الحرب والصراع والإرهاب بنحوٍ جبري وقهري، وسينجز أعماله أحياناً في ضوء الميول والرغبات المودعة فيه مع شيء من التضاد والتناقض والصدام.

بعبارة أوضح: إن الله تعالى خلق الإنسان حتى يكون خليفته في الأرض، وحيث إن خلافته سبحانه هي منزلة ومقام غاية في الرفعة والسمو، يلزم الوصول إليه وبلوغه كفاءة وجدارة عاليتين، ومقومات كثيرة يجب أن تتوافر في المرء بسعيه ونشاطه الحر وفعله الإرادي، ولكي يحصل الإنسان على هذه الفضائل والكمالات يجب أن يخلق مختاراً، مريداً، قاصداً لما يفعل، فلو لم تكن في أعماقه مجموعة من الميول والرغبات المتناقضة والمختلفة وبواعث متغايرة، وخلا باطنه من الميل والرغبة بالمعصية وفعل الشر، كان ما يفعله من أعمال حسنة وسلوك ممدوح دون قيمة أو فخر، وعليه يكون الوصول إلى مرتبة الكمال

---

(١) الرعد: ٣١.
(٢) البقرة: ٢٥٣.

الإنساني القصوى غير مقدور، فعلى الرغم من عدم ارتكاب الملائكة للمعصية ولم يخطر بخلدهم التفكير بالخطيئة والذنب حتى، لم يكونوا جديرين إطلاقاً بمقام الخلافة ومنزلتها؛ ذلك لعلة واحدة فقط وهي أنهم لا يتمتعون بصفة الاختيار والإرادة والحرية، من هنا إن منزلة أولياء الله ومقامهم أسمى وأعلى من درجة الملائكة ومقامهم، ولا تقاس طاعتهم وعبادتهم بأعمال الصلحاء الإلهيين وعبادتهم، فإن الرجال الذين صدقوا مع الله مختارون بخلاف الملائكة، ورغم وجود الباعث للمعصية والحافز للذنب لديهم لم يرتكبوا أي شيء منها، والتزموا بكل الأحكام الربانية ونفّذوها، ولو نال الإنسان مقام الخلافة الإلهية ودرجتهم سيكف نفسه عن المعصية، ويطهر جوارحه من الذنوب، ولا يُقدم إلا على ما يرضي الله من الأفعال، والإرادة الإلهية تعلقت أيضاً بذلك وهو أن الناس هم الذين يختارون طريقة حياتهم ونوعها بملءِ إرادتهم وحريتهم وليس أنهم مجبرون على لون من ألوان الحياة، وملزمون بحركات مفروضة في مسيرة تكوينيّة قد عُيّنت وحددت من قبل؛ ثم إن هذا الاختيار والحرية والإرادة تزيد الإنسان وتسمو به في مضمار التكامل والرقيّ المعنويّ.

وعليه إن الحركة التكاملية للبشر رهن ذلك الاختيار بحيث يمكنه بحرية تامة أن يصنع ما يشاء، من جهة أخرى أيضاً: إن حرية الإنسان في الوقت الذي تسير به في مضمار الكمال والمراتب المعنوية، فإنها يمكن أن تأخذه إلى الظلم وتجاوز العدل وسلب حقوق الآخرين أيضاً، لذا إن حرية الإنسان من جهة هي متعلق الإرادة التكوينية للحق تعالى ولازمها الكمال ومن جهة أخرى فهي

تستلزم غياب العدل، وسيادة الظلم والجور، وسفك الدماء، وإشعال فتائل الحروب والقتل والقتال أيضاً.

هناك العديد من الحيوانات تعيش بعيدة عن كل ألوان الظلم والحرب والصراع، وتقضي أوقاتها هادئة مطمئنة، ولكن الأمر يختلف في ما يخصّ الإنسان؛ لأن الله لو خلقه على نحو يسلب منه قهراً القدرة على التجاوز والصراع والظلم، وهو بذلك - وهو على هذه الشاكلة - خالٍ من قلق الحرب واضطرابها، وبعيدٌ عن هوس القتال، وتكون حياته وقتئذٍ أكثر راحة وأوفر اطمئناناً، ولكن لا يمكنه أن يبلغ الكمال المطلوب ولا يصل إلى الدرجة المعنوية المطلوبة.

وينبغي الالتفات إلى أن هذه الحرب والصراع ما دام موجباً لخير الإنسان وصلاحه فهو متعلق بالأصالة لإرادة الله تعالى، ولكن حينما يكون مستلزماً للشر والفساد فسيكون متعلقاً بالتبع لإرادته سبحانه، وعموماً إن الإرادة الإلهية الحكيمة في جميع قضايا الخلقة متعلقة أولاً وبالذات بالخير والكمال، ولكن لو توقفت بعض الخيرات والمصالح على ظهور بعض الشرور والمفاسد، ستكون الأخيرة متعلقة بالإرادة التكوينية لله بالتبع واللحوق، وقد بُيّن هذا الموضوع بنحوٍ مميز ولغة خاصة في الروايات الشريفة، مثلاً تجدنا نقرأ في بعض الأدعية: «يامن سبقت رحمته غضبه»[1].

من هذه العبارة يمكن أن نفهم أن هدف المولى تعالى ومراده ومقصده الأول قد تعلق ببلوغ الناس رحمته ووصولهم للخير والكمال، ولكن من أجل الوصول

---

(١) مصباح المتهجد، للشيخ الطوسي: ص ٦٩٦.

إلى ذلك الهدف تحتم الضرورة في بعض الأحيان ويقتضي الأمر أن يظهر الغضب الإلهي، ويبدو انتقام الله في الأرض، واللغز في هذه القضية هو ما أشرنا إليه من أنّ الخير والكمال الإنساني يجب أن يرافق الجهد والسلوك الاختياري الحر للإنسان، ولازم الوصول إلى الكمال الإنساني هو أن يكون ابن آدم مختاراً، كامل الإرادة والتصرف، هذا من جهة ومن جهة أخرى إن الإنسان الحر أيضاً عندما يكون متعسفاً في اختياره وحريته ويجعل اختياره في غير موضعه فإن ذلك سيعقبه الغضب والعقاب الإلهي أيضاً.

وعليه إن حرية الإنسان واختياره عين كونها سبيلاً لرقيه وكماله فهي في الوقت نفسه يمكن أن تُسخّر لممارسة مجموعة من الشرور والجرائم، وكما أن لاختياره الدور الكبير في بلوغه منزلة الخلافة الربانية، فهو أيضاً يمكن أن يساعده على الهبوط إلى أسفل درجة من الانحطاط والخزيّ، من جانب آخر إن عالم الطبيعة على العموم هو عالم التضاد والتزاحم، فإلى جانب النعم والخير الموجود فيه هناك أيضاً محن، وآلام، ونقم، ومشقة جمّة، وكان لدى الله العلم الكامل بكل النتائج الفرعية والخصائص الجزئية عندما خلق ذلك العالم، من هنا يمكن القول: إن الشرور والمفاسد أمر لازم لعالم الطبيعة وقد كانت مقصودة بالتبع واللحوق لخالق هذا العالم، وعلى العموم إن الخلق والعالم مقصود بالذات له تعالى، والهدف من الإرادة التبعية له سبحانه في ما يخصّ الحرب وكل الشرور الأخرى، هو أن وجود الخير الكثير والنعم الوفيرة في عالم الطبيعة والمادة اقتضى وجودها، فإن تحققها وإن كان شراً وبؤساً وعناءً ولكنه لازم ولاحق لوجود ذلك

الخير الأكثر والنعم الأكبر.

وخلاصة الأمر عند طرح السؤال الآتي: «هل وقوع الحرب في نظام الخلق والتكوين مقصود له تعالى؟ وهل إرادته تعلقت بذلك أم لا؟» سنجيب بنعم، وهل يمكن أن تقع حادثة في الكون دون إرادة الله تعالى؟!

ولكن ينبغي الالتفات إلى أن الآثار والنتائج المفيدة للحرب وخيرها وبركتها مقصودة أولاً وأصالة، والشرور والفساد مطلوبة بالتبع لإرادته تعالى، وهذا الكلام يعني أن الله تعالى ومنذ الوقت الذي ابتدع فيه الخلق كان يعلم بطبيعة الإنسان المتعطشة للدماء ويدرك رغبته في الإفساد والدمار، وكان يعلم بأن هذه الحياة الاجتماعية لهذا الموجود ستكون مسرحاً للحرب والظلم والخراب، ولكن بمقتضى الحكمة البالغة له تعالى اختاره لينال مقام الخلافة ومنزلة النيابة عنه في الأرض، فأعطاه الحرية المطلقة حتى يستطيع مع اختياره هذا السير في طريق الكمال ويعتلي الدرجات المعنوية السامية، وبذلك يكون أرقى وأسمى من منزلة الملائكة، أو يكون بفساده وظلمة وعصيانه أحقر وأكثر هبوطاً مرتبة من الحيوانات والدواب.

ثالثاً: العوامل والشروط التي تدير الحرب:

وهنا يطرح سؤال آخر ينبغي الإجابة عنه أيضاً، وهو سؤال يتعلق بحجم الحرية ومساحتها التي يتحرك بها الإنسان ومديات الاختيار التي يمارس فيها إراقة الدماء والفساد والحرب والدمار.

هل الله سبحانه يريد أن تستمر الحرب ويمضي الصراع الذي يقوده الإنسان إلى ما لانهاية حتى لو أدى إلى نتائج مرة ونهايات كارثية توجب زوال الناس الصالحين أو توصل إلى انفراط عرى الحق واضمحلال العدل والقسط؟

ماهي النقطة التي تقف عندها حرية الإنسان وإرادته في الإفساد وسفك الدماء؟

وما هو الحد الذي تعجز فيه قدرة الإنسان عن ممارسة الظلم والبغي والخراب ولا يمكنه تجاوز ذلك؟

وهل تزول رغبته وشهوته في إراقة الدماء والفساد والحرب عندما يصل إلى ذلك الحد؟

ونجيب عن هذا السؤال بقولنا: علينا أولاً أن نقرأ آيات القرآن الكريم ونستنطقها، إذ أفادت أن الله تعالى إنما جعل الإنسان حراً من أجل أن يختار طريق حياته إما أن يتصاعد إلى الكمال والرقي أو يتسافل في السقوط والنزول، ولكن هذا الاختيار وهذه الحرية ليست مطلقة بحيث يمكنه أن يلغي أو يقضي عبر ذلك الاختيار على الهدف الأساسي والمقصود الأول من الخلق والإبداع، لأن إعطاء الحرية التكوينية للإنسان أساساً إنما هو من أجل أن يتمكن من السير في طريق الكمال الإنساني، وضمن مسيرته هذه، فلو كانت حرية الإنسان واختياره سبباً ليسلك الناس جميعاً طريق الغواية والسقوط والحقارة والوضاعة، وأن يعتنق كل البشر الشرك والكفر، فهنا سينتقض الهدف من الخلق والإبداع وينتفي

القصد منه.

من هنا إن الحكمة الإلهية لا تقتضي الحرية المطلقة والاختيار الدائم، الأمر الذي يفضي في نهاية الأمر إلى سيطرة المفسدين والظلمة على المجتمع البشري سيطرة تامة، على نحو تكون كل مفاصل الحياة وأحوالها وظروفها بأيديهم، فتنغلق سبل الخير وتسد منافذ العدل والصلاح، وفي النهاية ستضمحل التعاليم الربانية ويندثر الدين الإلهي، وبذلك لا يمكن لأي أحد السير على خطى الحق والعدل، بل سيقاد الناس عبر الطرق المظلمة والسبل الحالكة ويكون الظلم والجور هو سيد الموقف على المعمورة كلها.

إن الحكمة الإلهية اقتضت إلى هذا الوقت أن تكون الحرية نبراساً ينير طريق الحق لأتباعه ومريديه، من هنا كلما انتشر الفساد في المجتمع وضعفت قدرة المصلحين والمؤمنين فيه الأمر الذي يؤدي إلى تلاشي حضورهم واضمحلال وجودهم، فإن الله تعالى سوف يصد الطغاة ويمنعهم من خلال جنوده وأساليبه الربانية الخاصة فيقضي على سيطرة الكفر والشرك في المجتمع وهيمنة المفسدين العريضة على المحسنين، حتى لا تمتلأ الأرض والدهور بالظلم والجور ولا تعلو كلمة الأعداء والمفسدين والظلمة والعصاة.

وهنا تُطرح أسئلة أساسية، وهي:

كيف أن الله تعالى يتحكم بالحرب والفساد؟ وكيف يحيط ويحتوي وقائع الدمار والخراب في الحدود التي ذكرت؟ وكيف يمكنه كبح جماح الفساد عند

الحد والمقدار والحجم الذي تقدم؟

ونحن نقول في معرض إجابتنا عن هذا السؤال أن الله تعالى يفعل ذلك على ثلاثة وجوه وضمن ثلاث وسائل للحيلولة والحد من تفاقم حجم الدمار ونمو الفساد في الأوساط الاجتماعية والمجاميع البشرية في الأرض ومن ثمّ يسيطر على الحرب والخراب.

فمرة يسخر الأسباب والسبل فوق الطبيعية كغضب السماء وبعض بلائها، فيزيل قوماً أو حزباً من رقعة الوجود، وأخرى يستخدم العوامل الطبيعية، والأسلوب الثالث هو كبح الظلم والجور والبغي والطغيان عن طريق توظيف العامل الإنساني، فيسخر الله تعالى الناس المؤمنين ويدعمهم ويؤيد المحسنين وعباده الصالحين ويأمرهم بدحر الكافرين والمفسدين والمنافقين وقهرهم، فيحاربونهم ويمنعوا الحد والقدر الخطير الخارج عن الحد الطبيعي من ظلمهم وفسادهم.

ولكن على أية حال إن استعمال هذه الأساليب والطرق إنما يكون نهايته وعاقبته على نحو يتم فيها تأمين المصالح البشرية وتوفيرها، وعموماً تمضي وتدوم حياة الإنسان من خلال ذلك على أفضل وجه مع وفرة الخير والبركات.

إننا نظن في بعض الأحيان ونتوقع مثلاً أن الله تعالى لو نصر نبيه في حرب من الحروب مع الكفار والمشركين وخذل أعداءه وقهرهم، فستتحول الأرض إلى روضة من الزهور والرياحين وأن الكمال البشري سيسود العالم، مثل هذه

التصورات نابعة من عدم الدقة والسذاجة في التفكير والبساطة في تمييزالأمور، ففي هذه الحسابات نغفل عن حقيقة مهمة وهي أن وجود هؤلاء الناس الأشرار وبقاءهم قد يوفّر آلاف التبعات والآثار الإيجابية، ويحصل جراء بقائهم وبسبب وجودهم فوائد جمة في الأقل، فإن هؤلاء يحملون في أصلابهم ذرية طيبة وسوف يلدون أشخاصاً حسني السيرة أيضاً، كذلك فإن الله تعالى يجعل من هؤلاء الكفار والمشركين أداةً ونقطة لاختبار المؤمنين والصالحين به، وفي النهاية إن صبرهم وجلادتهم في مقابل المشقة والتعب والإرهاق الذي يحصل جراء مكافحة هؤلاء، والحد من انتشار رؤيتهم المضلة سيبلغهم الكمال، وسيتسامون في المراتب الإنسانية العالية ودرجات القرب الإلهي، وعليه لو لم يكن المفسدون الظالمون والمنكرون للحق ولم يقع الصراع والحرب لانتفى ميدان التمحيص ومسرح الاختبار ولم يحصل المؤمنون والصلحاء على تلك الكمالات والدرجات العليا، فلا ينبغي التعاطي مع هذه المسألة بنظرة فوقية أو قراءتها على أنها عديمة الأهمية.

والخلاصة: إن حكمة الخلق اقتضت أن الشرور والمفاسد مازالت تحتوي على أشياء إيجابية نافعة، فستكون موجودة قلّت أو كثرت، مادامت لم تغلق طريق الحق تماماً وتعطل العدل والقسط بنحوٍ مطبق.

أجل عندما يستفحل الظلم والفساد على نحو يعجز طلاب الحق ومريدو الكمال من اكتشاف طريق حياتهم الصحيح ولم يتمكنوا من معرفة الحق بنحوٍ جلي، هنا تتدخل القدرة الإلهية في دحض هؤلاء وتعيق قدمهم في نشر الظلم

والفساد وتحد من شيوعه.

هل الحرب ظاهرة عرضية طارئة أو هل هي ممنهجة متوقعة؟

السؤال الآخر الذي يمكن أن يطرح ويبحث فيه هنا أيضاً هو: إن ظاهرة الحرب التي شهدتها عصور وأزمنة متلاحقة من تاريخ الإنسان ومازالت حاضرة بقوة في أطراف وأماكن مختلفة من العالم، هل هي تتبع قانوناً معيناً فتقع هذه الظاهرة على مدى التاريخ المنصرم وحتى الآن في حدود ومديات هذا القانون الخاص، وهل هذا القانون يمضي حاكماً ومديراً لتلك الظاهرة بنحوٍ مدبر وممنهج؟ أو الحروب المختلفة هي ظواهر مبعثرة طارئة على مسرح الكون ليست متسلسلة وغير مرتبطة إحداها بالأخرى، وكل حرب يتفق وقوعها صدفة غير مرتبطة ولا معلقة على قانون أو نظام، ولا يوجد بينها وبين الحروب السابقة أي علاقة أو ارتباط؟

وهذا التساؤل في الواقع يتعلق بعلمي الاجتماع وفلسفة التاريخ، وعلى العموم إن البحث في هذا المجال يدور حول تساؤل مهم شغل أذهان أساطين فلسفة العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهو: إن الظواهر الإنسانية والاجتماعية هل هي كالظواهر الفيزيائية والطبيعية تتبع نظاماً معيناً أو أن الأمر ليس كذلك؟

ونحن في كتاب (المجتمع والتاريخ من وجهة نظر القرآن الكريم) تناولنا موضوع القوانين والأنظمة في الظواهر الإنسانية والاجتماعية، ولا نجد ضرورة في تكرار ما قُلنا هناك أن نعيده هنا، ولكن سنطرح هنا في ما يتعلق بموضوع

الحرب ثلاث نظريات وهي على النحو الآتي:

١- جواب الداروينية الاجتماعية:

النظرية الأولى وهي النظرية المبنية على فرضية علم الأحياء لعالم الطبيعة الإنجليزي المعروف تشارلز داروين (١٨٠٩- ١٨٨٢) وفي ضوء هذه الفرضية إن كل حيوان أو نبات من الحيوانات والنباتات المختلفة حتى يؤمّن طعامه وسائر احتياجاته عليه أن يتحدى منافسيه ويقاتلهم ويقاوم الظروف الصعبة في محيطه من أجل البقاء، الأمر الذي يستدعي سعياً وجهداً مضنياً وصراعاً مرّاً قد يودي بحياته، وهذا التحدي والنزاع المستمر يطلق عليه في اصطلاح علماء الطبيعة (الصراع من أجل البقاء)، ونتيجة ذلك هي (اختيار الأصلح والأقوى وبقاؤه).

وقد عمّمت الداروينية الاجتماعية هذه النظرية على عالم البيولوجيا ومجال الطبيعة المتعلقة بالكائنات الحية، وجعلت هذه النظرية تسري حتى في الروابط والعلاقات الاجتماعية لدى البشر أيضاً.

وفي ضوء هذه النظرية إن الأفراد والمجموعات الإنسانية مع تنوع المزايا والخصوصيات فيها، سواء كانت عرقية أم قومية أم ثقافية أم لغوية، فهم واقعون في شراك الحرب والصراع، وهذا أمر طبيعي جداً بحسب الداروينية الاجتماعية، وفي هذا الكفاح والصدام المستمر فإن الأشخاص والمجموعات التي تتمكن من الفوز والغلبة هي الأكثر تطوراً والأحسن كمالاً، وستكون لها الأهلية واللياقة للبقاء والاستمرار في الحياة الاجتماعية، وهذه المجموعة الأقوى ستسيطر على

المجموعة والفرقة الأضعف والأقل قدرة، وتسخرها لخدمة مصالحها وتحت سلطتها أو تقذفها من الوجود وتنهيها تماماً، فإن ما ترمي إليه هذه الرؤية هي أن الكائنات الحية - كما هو مثبت في علم الأحياء - الأضعف والمخلوقات الصغيرة الأقل قدرة على الدفاع ستكون في معرض الفناء والعدم، ويجري هذا الأمر في علم الاجتماع والتاريخ أيضاً، فإن الفرق والمجتمعات والأفراد الذين يفتقدون القدرة والأفضلية لا تكون لديهم الأهلية للبقاء، وإن الضعيف مهدد بالفناء والزوال إلّا أن يستجمع قواه، ويسعى للهيمنة والتسلط على المجموعات والأفراد.

وعليه إن الحرب بين المجتمعات والفصائل البشرية هي ظاهرة طبيعية، الهدف منها بقاء الأصلح، وتدوم هذه الظاهرة الطبيعية وتتطور فيُسحق من فقد الأهلية للبقاء ويفنى، ويبقى من له الأهلية لذلك، بعبارة أخرى إن أصحاب هذه النظرية يرون أن الحرب أيضاً هي لون وشكل من الاصطفاء والانتخاب الطبيعي.

٢ - نظرية ماركس:

النظرية الثانية تقوم على أساس الآراء والمعتقدات الفلسفية المتعلقة بالجدلية الديالكتيكية لكارل ماركس، إذ يدّعي الأخير أن هناك قانوناً فلسفياً يسود العالم ويسري في جميع تفاصيله، وهو أن كل ظاهرة تحدث إنما تتبلور أساساً نتيجة التضاد بين الخلايا الموجودة في عنصر (Thesis) والتضاد الحاصل أيضاً في

خلايا العنصر (Anti - Thesis) وجزيئاته، ومن ثم وعلى أثر الصراع والجدل والتفاعل الداخلي في العنصرين كليهما تتجلى ظاهرة جديدة أطلق عليها (Synthesis)، وهكذا يكون الباعث والدافع القوي في العنصرين كليهما هو الأساس في التغير والتطور والارتقاء في العالم.

وهذا المذهب يعتمد أولاً على أصل فلسفي اسمه (الديالكتيك) وهو أصل فلسفي عريض يستوعب جميع الظواهر الإنسانية والاجتماعية ومن ثم له حاكمية على تفاصيل ما يجري في العالم.

اذاً المجتمع الماركسي وبحسب الرؤية الجدلية الديالكتيكية يحوي تضادّاً يسري في جزيئات المجتمع بين الشيء وضده، وهذا التضاد الحاكم بين الضدين، هو تضاد لا يمكن الفرار منه وينتج عنه ظاهرة مشتركة من العنصرين كليهما تكون أكمل وأجدر بالبقاء، وعبر هذا الحراك والتفاعل يكون المجتمع قد دخل مرحلة تاريخية جديدة، وتجلّى فيه نظامٌ حديثٌ، وعليه يكون التاريخ صراعاً بين الطبقات الاجتماعية، وظاهرة الحرب هي الأخرى لا تخرج عن سياق هذا القانون، فهي ظاهرة طبيعية تقع وفق قانون ونظام محدد يعيّن حركتها ومدياتها، وفي كل مرحلة زمنية معينة سوف تحدث الصراعات والحروب على أساس علل وبواعث محددة في إطار ذلك القانون الكلي العام.

٣- رؤية الإسلام:

في سبيل نقدنا للنظريتين المتقدمتين علينا أن نبادر لبيان رؤية الإسلام

وعرضه ونظرته لهذه المسألة، ويبدو أن النظريتين المتقدمتين كلتيهما مردودتان سواء من اللحاظ العلمي أم من اللحاظ الفلسفي، ولا يمكن أن تنسجم مع الإسلام ولا مع أصول الفكر الإسلامي وقواعده، ومن المفترض أن يُطرح الإسلام رؤيته هنا أزاء الحرب، رغم ذلك إن في النظريتين تهافتاً أساسياً نشير هنا إلى بعضه:

الأول: إن الإسلام في الوقت الذي اعتبر الحرب ظاهرة قانونية طبيعية، لم ينكر تحت أي ظرف اختيار الفرد ومسؤولية المجتمع عن الحرب وصناعة التاريخ، وهذا الأمر يختلف عما ذكر في النظريتين السابقتين وهو تفاوت واختلاف أساسيان بين ما ذكر وبين ما يقول به الإسلام، فإنّ المسلك الأول والثاني يدعيان جبرية التاريخ، ونفي اختيار الإنسان في حركة التاريخ، ووقوع الحروب، وإنكار أي دور ومسؤولية له سواء في ظاهرة الحرب أم في الظواهر والحوادث والقضايا الاجتماعية الأخرى، فى حين أن الإسلام لايعدّ الحرب أمراً قهرياً ولا يعدها خارجة عن حدود حرية الإنسان واختياره؛ بل يرى أن الإنسان يمكنه وعبر إرادته وتصميمه أن يحول دون وقوع الحرب، وحتى الحرب التي اشتعل فتيلها يمكنه إيقافها أيضاً، كذلك يعدُّ الإسلام الإنسان مسؤولاً أمام بلورة هذه الظاهرة ووقوعها، وهو أيضاً يتوعد من يشعلون نار الحرب ويتجاوزون على حقوق الآخرين بدوافع ظالمة وبواعث فاسدة ويستنكر سلوك من يشارك في الحرب العدوانية والظالمة، ويستهجن عدم نهوض بعض الناس لنصرة المظلومين والدفاع عنهم، وبالنهاية لا يطالبون بحقوق من غصب حقه،

والإسلام أيضاً يعتبر أولئك مسؤولين أمام الله تعالى، وأنه سوف يؤاخذهم بما فعلوا من ظلم وقهر وفساد، وباختصار إن كل واحد من طرفي النزاع يتمتع بالحرية والإرادة الكاملة، وسلوكه أيضاً له قيمة أخلاقية سواء كانت سلبية أم إيجابية حسب الدواعي والبواعث التي تقف وراءها حسنة أم قبيحة، وسواء كان الطرف مظلوماً أم ظالماً، في جانب الحق أم في جانب الباطل.

الثاني: هو موضوع القانون والنظام الكوني، إذ إن كل مورد وعلى العموم كل حادثة إنما تسير لهدف وهي تمضي من وجهة نظر الإسلام على وفق الحكمة الإلهية، وإن العلاقة بين ظاهرتين طبيعيتين ليس معناها علاقة عمياء غير مدبرة تمضي وتسير دون هدف فحسب، كما يرى منظرو الفلسفتين المذكورتين، فمثلا القانون الطبيعي لا يقول سوى أن الأوكسجين مع الهيدروجين يصيران عند تركيب عنصريهما في ظروف وأوضاع خاصة وبنسب معينة ماءً، وهذا الماء ينقلب في شروط خاصة إلى بخار، والأخير يتقاطر ماءً عندما يكون في أجواء وظروف معينة أخرى؛ وبذلك إن القانون الطبيعي لا يتعرض إلى مقولة أن كل الأفعال والانفعالات المختلفة تكون ضمن غرض معين.

ولكن في المنظومة الدينية والتعاليم الإسلامية نقول: أجل، فعلى الرغم من أن الإسلام لا ينكر القوانين والقواعد الطبيعية، فهو يركّز على حقيقة أخرى وهي: أن جميع الأفعال والانفعالات والتأثيرات والتأثرات هي مقدمة لحصول غرض معين كان مقصوداً في نظام الخلقة، أي إن الله تعالى: أعطى جميع الظواهر الكونية المختلفة هذا النظام والترتيب حتى يتحقق الهدف والغرض المنشود من

خلق العالم والكون.

رابعاً: بعض التعاليم القرآنية الكلية الخاصة بالحرب:

بحسب الرؤية القرآنية ليس أصل حدوث الحرب تابعاً للإرادة الالهية ومقتضى نظام الحكمة الإلهية لعالم الوجود فقط؛ وكذلك كيفية الحرب وكميتها، وعلتها، وتداعياتها، ونتائجها أيضاً توابع لنظام الحكمة الربانية وعائدة لتدبير مدبّر العالم؛ وهنا نشير إلى بعض الأصول والقواعد الحاكمة على الحرب والقتال من وجهة نظر القرآن الكريم.

١- حرية الإنسان واختياره في الحرب:

لقد خلق الله تعالى الإنسان حراً مختاراً حتى يتمكن بذلك الاختيار والإرادة الحرة من الحصول على الكمال، وخصوصية تكامل الإنسان إنما تتحقق عن هذا الطريق الوحيد وهو إرادته واختياره، فلم يجعل الله الإنسان كالملائكة الذين يزاولون الأعمال الحسنة فقط؛ إذ نزع منهم جميع بواعث فعل القبح أساساً، فهذا الأمر يختلف في طبيعة هذا الكائن - أي الإنسان -؛ إذ أودع فيه بواعث فعل الخير إلى جانب حافز فعل الشر ودواعيه، وهو قادر على الاختيار الذي منحه الله له من المبادرة إلى أي من الفعلين ومزاولة كل واحد منهما، وكون هذا المخلوق بهذا النحو من الصنع والخلقة ومع هذه الدوافع المختلفة والمتناقضة، على الرغم من ميله الباطني لم يرتكب عملاً قبيحاً؛ بل بادر إلى الفعل الحسن ولم تدفعه سرائره إلى أعمال وأفعال لا يوجد فيها غير رضاه سبحانه، وهو بذلك سيحصل

على كمالات أكثر من الكمال والدرجة التي عليها الملائكة.

اقتضت الحكمة الربانية إذاً أن أيدي البشر مبسوطة في ما يتعلق بالقضايا الفردية والاجتماعية، ويمكنهم بحسب الإرادة والاختيار الذي يتمتعون به أن يصنعوا ما يشاؤون، فلو أرادوا أن يسلكوا طريق الله سلكوه ولو أرادوا سبيل المعصية ساروا فيه أيضاً، فإن الأمر الجلي هنا هو معنى الاختيار والانتخاب، فلو لم يكن الإنسان قادراً على أن يسلك سبلاً مختلفة ومتناقضة كان الحديث عن الاختيار والإرادة وحرية الانتخاب دون معنى.

وعلى كل حال إن مقتضى هذه المرحلة من الحكمة الإلهية هو الإرادة والحرية في العمل الإنساني حتى لو استلزم الأمر سلوك الأفعال المخالفة لمصالح الفرد أو المصالح الاجتماعية العامة، وحتى لو تمكن الإنسان من تجييش الجيوش لقتال أخيه الإنسان فيسفك دمه وينزل به أشد العذاب، لماذا؟ لأنه لو لم يكن مريداً مختاراً لذلك لانتفت مساءلته ومحاسبته في ما بعد.

٢ - التقسيم النسبي للقدرة والسلطة:

ما قلناه هو أحد أبعاد الحكمة الإلهية، فليس مقتضى الحكمة الإلهية أن يكون الإنسان مختاراً وحراً وله القدرة على القتال والحرب وسفك الدماء فحسب، بل مضافاً إلى ذلك الاقتضاء، إن القدرة والقوة لم تجعل إطلاقاً في يد أحد أو فرقة أو مجموعة، بل جعلت على نحو يمكن لسائر الأفراد والفرق أن يقف أحدها بوجه الآخر، ويمكن لكل مجموعة أن تجابه الأخرى وتتسلط عليها، ويستطيع كل فرد

أن ينافس الآخر أو يغلبه، فلو كان الأمر غير ذلك وتركزت القوة لدى طرف من الأطراف، وملك القدرة الكاملة، وراح يسلب عن الأطراف الأخرى ملكة الاختيار ويجبرهم على فعل ما يشاء، كان ذلك مخالفاً لمقتضى الحكمة الإلهية، وهي أن المرحلة الأولى من خلق البشر هي أن يكون فيها الإنسان مختاراً.

فعلى أساس الحكمة الإلهية يجب أن تكون موازين القدرة والقوى منقسمة في المجتمع يمكن أن تكون إلى جانب أي طرف أو فرد زادت تلك القدرة أو نقصت، يمكن لكل واحد من الأطراف أن يقاوم الآخر حقاً أو باطلاً ويجابهه ويتحداه ويخالفه سلباً أو إيجاباً، يقول تعالى في القرآن الكريم عند آخر قصة طالوت وجالوت: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهذه الآية على الرغم من كونها قد جاءت في آخر قصة طالوت وجالوت؛ ولكنها دون شك في مقام بيان الواقع والحقيقة الكلية، إذ يمكن أن نفهم من إطلاق هذه الآية وعمومها، ونستفيد أن الله تعالى أراد أن تكون الإرادة على نحو لا يكون فرداً أو فئة معينة، وعلى مرّ التاريخ قد استأثر بالقوة والشكيمة والقدرة المطلقة، فإنه في هذا الحال سيزيل قدرة الآخرين مئة بالمئة، وسيعجز الآخرون عن المقاومة والتحدي، لماذا؟ لأنه لو كان الأمر غير ذلك لفقد الآخرون القدرة والإرادة في الكمال الاختياري، وهو نقض للغرض والهدف من خلق الكون والإنسان.

---

(١) البقرة: ٢٥١.

وعليه وخلاصة المرحلة الثانية من أن الحكمة الربانية، بعد أن تبيّن المقصود من المرحلة الأولى، وهي أن الإنسان يتمتع بكامل القدرة والحرية في العمل ويستطيع أن ينافس الآخر ويقاومه ويعارضه ويوظف كل قدراته في التصدي إليه ودحضه تقتضي تلك الحكمة أيضاً أن تتوزع موازين القوى وأقطاب القدرة ولا تتمحور لدى فرد أو فئة أو مجموعة على نحو تسلب القدرة والقوى من الأطراف الآخرين، فتحرم التكامل الاختياري والعروج الإنساني، وهذه الصورة هي خسارة كبيرة للبشر وبتعبير القرآن هي سعي في الأرض فساداً وخراباً ولا تنسجم مع الهدف الأسمى للخلقة.

ما تناولناه هنا هو أحد القوانين والسنن الإلهية، والسيرة الحياتية تؤيده أيضاً في الواقع والسلوك، إذ إننا عندما نطالع تاريخ حياة الإنسان ونقرؤه يمكن أن نفهم بعمق وفي جميع المقاطع والحقب التاريخية أن القدرة والقوة لم تتمحور لدى أحد قد استطاع بها أن يخضع كل الأفراد والقوى والفئات والأقوام المختلفة والمتنوعة تحت سلطته وقدرته، بنحوٍ تتجلى قدرته في إجبارهم وقهرهم على طاعته إطلاقاً. على العكس تماما نجد على طول التاريخ قدرتين - في أقل تقدير - متساويتين في القوة إحداهما قبال الأخرى، وسائر القوى الأخرى تكون تابعة أو تحت وصاية هاتين القوتين، وقد يكون بعضها مستقلّ عن هاتين القدرتين أيضاً.

٣- الحيلولة دون ظهور السلطة المطلقة الباطلة:

وفي المرحلة الثالثة نقول: إن الحكمة الإلهية تقتضي توزيع القدرة بين الأفراد

والمجموعات المختلفة حتى لا يغلق طريق الحق بنحوٍ تام، فلو أصبح مَن بيده القدرة أفراداً أو مجموعات أو دولاً كلهم من أهل الباطل والفساد، وصار الأقوياء المسيطرون يتنافسون ويتبارون فقط على حطام الدنيا وشهواتها المادية، وحينها لن يبقى سبيل ومنفذ لأهل الحق، ولاسيما إذا وصل الحال إلى تقاسم قطبين ضالين نصفي الأرض، وكل واحد منهما سيطر على جزء منها، وبسط نفوذه تماماً على القسم والجزء الذي استحوذ عليه، والنتيجة هنا أن القدرة والسلطة على أهل الخير والحق، وهي نفسها النتيجة التي مرت وهي تمحور القدرة واستحكامها، وحينئذٍ سوف تُسلب القدرة والاختيار من أهل الحق، الأمر الذي ينتهي بهم إلى العجز عن الارتقاء والتسامي في التكامل البشري.

من هنا اقتضت الحكمة الإلهية في المرحلة الثانية من رسم المسيرة البشرية أن لا يكون الأقوياء كلهم من أهل الباطل، فتوزع القدرة على نحو يكون لأهل الخير والحق نصيب من العيش وفرصة لأداء طقوسهم الفردية وتأمين حياتهم الاجتماعية والمحافظة على سيرهم في طريق الحق والحياة المشرقة، والمضي في مسيرتهم التكاملية والاستمرار بها، وقد يتفق أن تتحقق هذه الفرصة لأهل الحق من خلال الصراع والاشتباك المستمر من خلال نشوب الصراع والقتال بين أفراد أهل الباطل وفرقه، ففي ذلك الوقت يكون أهل الباطل قد انشغلوا بعضهم ببعضٍ عندها يتمكن أهل الحق والصلحاء من تنفس الصعداء، وإعادة تنظيم قواهم والاستعداد من جديد، فنجد الدعاء المأثور عن المؤمنين(ع) في هذا الباب والذي يقول: «اللهم اشغل الظالمين بالظالمين واجعلنا بينهم سالمين غانمين».

وعبر هذه الفرصة والمتنفس الذي حاز عليه المؤمنون ربما يتوفر لهم طريق آخر للحصول على قدرة وقوة موازية ومساوية لقدرة أهل الباطل بحيث يستطيعون منافستهم وتحديهم، وفي هذه الصورة أيضاً يمكنهم التحرر من أهل الباطل فيتمكنون من ممارسة حياتهم الإنسانية بهناء وحرية ويختارون السبيل الواضح والصحيح لحياتهم.

وهذا القانون الذي طرحناه في المرحلة الثالثة هو جزء من القانون في المرحلة الثانية، إذ كان فحواه أن الحكمة الإلهية اقتضت توزيع القدرة وعدم تمحورها في يد فرد أو مجموعة. من هنا إن هذا القانون ناظر إلى أصل موضوع توازن القوى وتوزيعها، ولكن هذا القانون ناظر إلى خصوصية وميزة معينة من مزايا توازن القوى وانتشارها، و هو قانون مفاده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وهذه الآية تدل بوضوح على أنه لو لم يتحدَ الناس بعضهم بعضاً، ولو لم يدفع أحدهم الآخر ويقاومه ولو لم تصد مجموعةٌ مجموعة أخرى عن الطمع والفساد والدمار والخراب، لهدمت دور العبادة والصوامع والبِيَع في جميع الأرض، ذلك لأن القدرة والقوة التي تسخر للظلم لو لم تجابه ولم يستنكر على طلب الرفعة والتميز، ولم يتحدّ أهل الفساد أحداً، فإنهم لن يتركوا شيئاً حتى

---

(١) الحج: ٤٠.

يركعوا جميع الناس لسلطانهم ويجبروهم على طاعتهم، وبالنتيجة إن هؤلاء الأقوياء ومريدي السلطة والفساد والخراب لن يتركوا المؤمنين وأهل الحق أن يختاروا طريقهم ويواصلوا ما يشاؤون من أهداف وسبل، ولن يجعلوهم يهنؤون بحياة مستقلة، بل سيستمرون في جهدهم لتحقيق أهدافهم ويجبروهم على طاعتهم والخضوع لهم.

وحتى لا يقع عباد الله في وحل سلطة أهل الشرك ولا تطأ أقدام أهل الباطل أهل الحق ولا يسحقهم أهل الغيّ والفساد، حكم الله تعالى وأمر أن تكون القدرة موزعة ومقسمة بهذا الشكل حتى يظل طريق الحق سالكاً أمام عباده المؤمنين، أو يجعل نصيباً من القدرة والملك والقوة إلى جانب أنصار الحق والصلحاء من الناس؛ لماذا؟ لأن الله تعالى خلق العالم وكل شيء أساساً من أجل هؤلاء.

واختصاراً للكلام إن الحروب قد تقع على نحو يكون فيه عشاق طريق الحق ورفاقهم من أهل حارتهم ومحلتهم عندما يكونون مملوئين حيوية ونشاطاً ويطلبون مواصلة درب الحق قاصدين بذلك المسير نحو الله، فلا يشاهدون الطريق إليه مسدوداً أبداً، أجل، قد يكون هذا الطريق والسبيل عسيراً وصعباً إلا أنه يكون سهلاً ميسوراً عندما يكلف الله الناس ويأمرهم بالدفاع والثبات فيسعى المؤمنون من أجل ذلك.

٤ - الحرب وعذاب الاستئصال:

المرحلة الرابعة من التدبير والحكمة الإلهية والقانون الرابع من الاقتضاء

الحاكم على الحرب هو نزول العذاب، فعندما ينهمك قوم في الفساد ويستغرقون في الغي فإن مقتضى السنة الإلهية هو نزول العذاب على أولئك القوم، وعقابهم هو أن يُزالوا من صفحة الوجود، وهذا النوع من العقاب يسمى (عذاب الاستئصال) وأحد أنواع هذا العذاب هو أن يتم اقتلاع مثل هؤلاء القوم ومحوهم من الأرض على يد المؤمنين والصالحين.

بيان ذلك: قد يحصل أن هناك قوماً توفرت لديهم القدرة والاختيار، وغرقوا في أوحال الشرك والكفر والفساد والظلم والطغيان، وبلغوا حدّاً انعدم الأمل والرجاء من عودتهم إلى الصواب، وجعلوا الحق والعدل تحت أقدامهم حتى لا يضايقهم في مزاولة أي فعل من أفعال الشر، ومثل هؤلاء القوم طبعاً لم يدخروا جهداً في إيذاء الآخرين، وأوغلوا في النيل من حقوقهم لاسيما مريدي العدل وأهل الحق، في ضوء هذا المشهد يأمر الله تعالى بقلع هؤلاء من جذورهم ورميهم في غياهب العدم، إذ إن الحكمة الإلهية تقتضي عندما تبلغ الأكثرية الساحقة من الناس هذه المرحلة من السقوط والهبوط، وتبتعد جداً عن القيم والمبادئ الإنسانية، هنا ينزل العذاب وهو استئصال المجتمع كله عن بكرة أبيه، ويبتليه بحسب هذا النوع من العذاب بـ (عذاب الاستئصال)، وهذا العذاب قد يتجلى أحياناً على شكل بلاء سماوي وحوادث طبيعية، من قبيل الصاعقة السماوية التي نزلت على قوم ثمود وفي هذا السياق يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[1].

أو مثل الريح الصرصر التي اجتاحت قوم عاد واقتلعتهم من أماكنهم، حينما يقول عنهم الله تبارك وتعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[2].

وكذلك العذاب بوساطة السيل وهو البلاء الذي نزل على قوم سبأ وكان من مصاديق عذاب الاستئصال أيضاً، إذ كان هؤلاء القوم ينعمون بخير كثير وتحيط بهم الأرض والبساتين الخضراء، ولكن أعرضوا عن الإيمان بالله ولم يشكروا نعمته التي أعطاها لهم، لذلك ابتلوا بالعقاب الإلهي فجاءهم السيل العرم، وأودى بهم إلى الهلاك والهاوية، وأبدل بساتينهم وأرضهم الخضراء إلى أشجار ونباتات ذات ثمار مرّة ممجوجة الطعم، ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[3] وهناك نموذج آخر من عقاب الاستئصال وهو العذاب الذي نزل على قوم نوح ﵇، عندما أرسل إليهم الله تعالى نبيهُ نوحاً لهدايتهم، فمكث يحث في الوعظ والإرشاد بينهم تسع مئة

(١) فصلت: ١٧ – ١٨.

(٢) فصلت: ١٥ – ١٦.

(٣) سبأ: ١٥ – ١٧.

وخمسين عاماً، لكنهم لم يهتدوا إلى الطريق؛ بل ازدادوا طغياناً وظلماً فأخذهم الله بطوفان عظيم، ومياه غزيرة مرعبة، وكانت عاقبتهم الهلاك والموت أيضاً، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

وهكذا الأمر في ما يخصّ قوم فرعون عندما طغوا واستكبروا بعد الظلم والفساد الكثير الذي ارتكبوه بحق بني إسرائيل، لكنهم عندما تعقبوا النبي موسى عليه السلام وأنصاره غرقوا في البحر، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

ولكن عذاب الاستئصال كما يمكن أن يكون على شكل عذاب وبلاء طبيعي أرضي أو سماوي، فقد يتجلّى في بعض الأحيان على شكل حرب وقتال وصراع على يد الإنسان فيقوم وينهض ثلة من المؤمنين الصالحين ليخوضوا حرباً ضد الطغاة والبغاة، فينتصروا عليهم ويكون سبباً لهزيمتهم واستئصالهم، كما يقول تعالى بهذا الصدد، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

أجل، إن الصاعقة والصيحة والريح العاتية والسيل والمطر والطوفان كلها جنود من الله، وتحت اختياره وتجري بأمره، وعندما يريد أن يُهلك قوماً ستقطعهم تلك الآيات الإلهية عن دابرهم، مضافاً إلى ذلك إن هناك بعض جنود

---

(١) العنكبوت: ١٤.
(٢) الأعراف: ١٣٦.
(٣) الفتح: ٧.

الله أيضاً هم قدرات إنسانيّة وطاقات بشريّة، ويكونون أحياناً أدوات ربانيّة لإنزال العذاب والعقاب ببعض البشر الفاسدين والمفسدين، أجل، لقد قنّن الله تعالى نظام الحياة الاجتماعية للبشر على هذا النحو، فلو أن بعضاً منهم استحقوا عذاب الاستئصال، فتارة ينزل عليهم الحرب والقتل بأيدي جماعة أخرى من المؤمنين وعباده الصالحين فيقطعون دابرهم، ويمكن أن نطالع هذا الموضوع في بعض آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى:﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وسنشير في طيّات البحث إلى سؤال مفاده: لماذا لا يهلك من يستحق عقاب الاستئصال دائماً بوساطة العذاب السماوي أو الطبيعي، ونجده يسخّر في بعض الأحيان المؤمنين لمحاربتهم والقضاء عليهم فيهلكهم بهذه الوسيلة، وفي هذا السياق نقرأ قوله تعالى﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[2].

إن منطق القوة الذي يعتمد عليه المؤمنون هو البصيرة المغروسة في نفوسهم، فتجدهم يقولون: إننا عندما نقاتل المشركين والكافرين والظلمة والمفسدين لا نعرف الهزيمة أبداً؛ فلو متنا كان مصيرنا إلى الجنة، وهذا وحده فوز عظيم، ولو

---

(١) التوبة: ١٤ – ١٥.
(٢) التوبة: ٥٢.

قضينا على أعداء الإسلام والمسلمين وأركعناهم هو نصر آخر أيضاً، وبالنتيجة إن الحرب كيفما كانت نتائجها ستكون لصالحنا، وأما الأعداء الطغاة الذين لا أمل ولا رجاء لهم لنيل الهداية الربانية، سيكونون ضحية العذاب الإلهي، وهذا العذاب هو مقتضى الحكمة الإلهية البالغة لله تبارك وتعالى، الذي يقع عليهم من خلال تسخير بعض الظواهر الطبيعية والسماوية أو بعض العوامل البشرية، في هذه الآية هناك تعبير «بِأَيْدِينَا» وهو شاهد على بحثنا، وهذه الجملة تحكي أمراً قد أشرنا إليه وهو أن العذاب الرباني قد يتجلّى بحرب المؤمنين على الكفرة والمنافقين، وهذا في الواقع لون من ألوان عذاب الاستئصال؛ إذ يعذب الله بقوة المؤمنين والمسلمين والمجاهدين وبأيديهم الطغاة والفئات التي تستحق ذلك العقاب، وعليه إن حروباً كهذه كانت مقصودة وملحوظة عند تكوين نظام الخلقة، وكان أمرها محفوظاً في الأيام الأولى للخلق، أي إن هناك فئة من المعاندين والعصاة والمردة اقتضت الحكمة الإلهية منذ ذلك الحين التخلص منهم واستئصالهم عن بكرة أبيهم، فيأخذوا جزاءهم العادل على أيدي الصلحاء والمؤمنين، وهذه الحروب في الواقع هي عذاب ربانيّ استحقه الأوغاد والأشرار في الأرض جرى على أيدي المؤمنين الجديرين بالحرب والقتال في سبيل الله.

ويمكن أن نشاهد هذا القانون أيضاً في الآية الشريفة القائلة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].

وهذه الآية وسواها تشير إلى التوحيد الأفعالي والولاية الإلهية على المؤمنين

(١) الأنفال: ١٧.

والرسول خاصة، وهذه النكتة تفيد أيضاً أن قتل الكافرين بيد المؤمنين وهذا العذاب الإلهي في الواقع هو معطًى يشير إلى أن ظلم الطغاة وفساد الظالمين بلغ حداً لا يطاق، ولا سبيل لمعالجته إلا باستئصالهم ومحوهم، شاؤوا أم أبوا، وسوف يتحقق على أيدى المؤمنين ليقذفوهم في الهلكة والعدم، وبعبارة أخرى: إن هذا اللون من الحرب هو صورة من عذاب الاستئصال.

٥- دور الحرب في التنبيه والتأديب:

القانون التكويني الخامس الحاكم على الحرب هو نظام التأديب والتنبيه، إذ تقتضي الحكمة الربانية أن تكون الحرب في بعض الأحيان لتأديب فئة من المؤمنين المضطرين لفعل مجموعة من الأخطاء والمعاصي وتقريعهم، وهذه الحرب قد تفضي إلى هزيمة المؤمنين، وربما تكون هزيمتهم على مجموعة أخرى من المؤمنين الصلحاء، ولكن كيف كانت نتيجة الحرب؟ فهي لا تبلغ مرحلة حرب العقاب والاستئصال؛ بل هناك تفاوت واختلاف جوهري بين الحربين، إن حرباً مثل هذه لم يكن المقصود منها هو إنهاء المؤمنين من الوجود والواقع واقصاؤهم؛ بل الغرض منها هو تنبيههم وتحذيرهم وهدايتهم وزرع اليقظة والصحوة في نفوسهم، أجل، مثل هذه الحرب ستشعل الجذوة في نفوسهم، وتلهب في أرواحهم الثورة والاستبسال، وستكون تلك الحرب مسرحاً لأذاهم وقلقهم واضطرابهم كل ذلك حتى يستيقظوا من غفلتهم.

كثير من المؤمنين وأهل الدين لا يقصدون العناد والتمرد على الله والاستكبار

على سلطته وأحكامه؛ ولكن بسبب تأثير الهوى وتحت ضغط الميول النفسية ووساوس الشيطان ينحرفون عن الجادة والطريق المستقيم، فيسلكون سبيل الظلم والفساد، هؤلاء وأمثالهم لا ينكرون وجود الله وليسوا أعداءً للدين؛ ولكن بسبب تأثير الرغبات أحياناً والميول النفسية انحرفوا عن التعاليم الدينية وضوابطها، ولم يعملوا في ضوء الأحكام والأوامر التي يجب ويلزم أن يكون الفعل في ضوئها؛ بل إنهم وبصورة وزمن محدود ومؤقت ابتلوا بالضيق والعسر ومجموعة من المصائب، فلما أرادوا الخروج من تلك البلايا والمحن وقعوا في شراك الأعمال القبيحة والمخالفات السيئة، ولكن عقوبة مثل هذه لا تحصل على أيدي المؤمنين الطاهرين الخلص ليحاربوا هؤلاء المؤمنين الذين طرأ عليهم النقص وتلوثوا ببعض المعاصي؛ ذلك لأن المؤمنين الذين بلغوا هذه الدرجة من الطهارة والنقاء لا يمكن ان تتلوّث أيديهم بالدماء، ولا يصدر عنهم الأذى والضرر، من هنا إن إجراء هذه العقوبة على هؤلاء الأفراد إما أن يكون بأيدي فئة مؤمنة أخرى لم يكتمل إيمانها بعد، وتلوثت نفوسها ببعض المعاصي، أو بأيدي الكفار وغير المؤمنين، فانهم مملوؤون حقداً وعداوة، ويسعون في أذى المؤمنين وظلمهم، وهم مهووسون بقهر الصلحاء من الناس وتعذيبهم؛ ووقتئذٍ سوف تتسع الهوّة بينهم وبين الإنابة والتوبة والرجوع إلى الصواب.

إن الحرب الداخلية التي قد تشتعل في بعض الأحيان بين الفرق والفئات المسلمة، مثل هذه الحروب يمكن أن تكون نموذجاً لحرب التنبيه والتحذير، والهدف منها، والغرض المقصود من ورائها في نظام الخلقة هو أن كل واحد من

الطرفين المتنازعين في الحرب بعد التقريع والتأديب الذي يحصل لديهم جراء القتال سيهتدون في النهاية إلى الطريق السوي، ويورد القرآن الكريم في هذا السياق هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[1].

بعض العقوبات وألوان البلاء التي نزلت بحق بني إسرائيل يمكن أن يكون نموذجاً آخر من حرب التأديب والتقريع التي ابتلاهم الله تعالى بها، ويحكي لنا القرآن الكريم أنه في ضوء التقدير والقضاء الإلهي الحتمي أن بني إسرائيل أفسدوا في الأرض مرتين فكانوا قد ظلموا واستكبروا في الأرض، ولمّا كان فسادهم وظلمهم في كل مرّة يتجاوز الحد الذي قدّره الله تعالى، فقد يسلط الله عليهم قوماً ينغصون معيشتهم ويدمرون حياتهم، وفي ما يأتي القصة التي تلاها لنا القرآن الكريم عن بني إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

(١) الأنعام: ٦٥.

لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾[1].

وقد يلاحظ اختلاف الروايات وكتب التاريخ أحياناً في نقل هاتين الحادثتين اللتين أشارت إليهما الآيات القرآنية الشريفة المتقدمة، من هنا لا يمكن الجزم بما جاء فيها بخصوص هاتين الحادثتين، ولكن أكثر الروايات تحدثت عن أن نبوخذ نصر ملك بابل (٦٠٥ - ٥٢٦ قبل الميلاد) جهز جيشاً، وهجم على أورشليم فاحتلها وكان ذلك هو الهجوم الأول على فلسطين (التي وردت في الآية المذكورة بعنوان الأرض)، فأسر عشرة الآف يهودي، وفيهم ملك اليهود أيضاً، وعاد بهم إلى أرضه، ولكن بعد أن ثار اليهود الذين بقوا في فلسطين على ملك بابل من جديد، قرر نبوخذ نصر أن يتخلص من اليهود ويصفي موضوعهم بالمرة لينتهي من الأزمة تماماً، فاحتل أورشليم مرة أخرى وأضرم فيها النيران، ودمر هيكل سليمان وأسر جُلَّ من سكن في المدينة تقريباً وأخذهم معه إلى بابل، وبقي اليهود في بابل حتى هجم (كورش) على بابل واحتلها وقام بتحريرهم من سلطة نبوخذ نصر وملكه، ليعود اليهود بعد ذلك إلى أرضهم مرة أخرى، وكذلك أعاد (كورش) بعد أن احتل أورشليم المعادن النفيسة التي أخذها نبوخذ نصر من معبد أورشليم إلى مكانها.

وعلى أي حال إن هذا الأسر والنفي الذي تعرض له بنو إسرائيل في القرن السادس قبل الميلاد واستمر لأكثر من نصف قرن، هو المورد الأول من العقاب والجزاء الذي ذكرته الآية الشريفة.

---

(١) الإسراء: ٤ - ٨.

المورد الآخر للجزاء والعقاب الذي نزل بحق بني إسرائيل ورد أيضاً عن مصادر وبأشكال مختلفة، وفي ضوء ما جاء في بعض المصادر أن قوماً كافرين هجموا أيضاً على بني إسرائيل، وألحقوا بهم الأذى والظلم الكثير.

الأمر الملفت هنا أن الله تعالى حذر بني إسرائيل في نهاية المطاف أنكم لو عدتم إلى فسادكم وبغيكم واستكبرتم مرة أخرى لأخذناكم بالعذاب مجدداً وزرعنا الخوف والرعب في نفوسكم أيضاً، فحذرهم بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[1].

والحاصل هو أن تأديب الأشخاص من ضعفاء الإيمان، وتقريع ذوي الأعمال القبيحة هو أيضاً أحد القوانين التكوينية الأخرى الحاكمة على وقوع الحرب وظهورها، رغم أن هذا القانون غير قابل للتبرير والتوضيح أبداً من وجهة نظر فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الماديّ في العصر الحاضر، لأن مثل هذه المدارس تنكر هذا القانون أساساً.

٦- جدوى الحرب لدى المجاهدين:

القانون السادس من قانون الحرب هو أن الجهاد في سبيل الله غالباً ما يرافق البؤس والعناء والألم، إلا أن هذا العمل والفعل لا يخلو عموماً من فوائد ومنافع أيضاً، تقول الآية الكريمة حكاية عن ذلك: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) الإسراء: ٨.

(٢) البقرة: ٢١٦.

الجملة الأولى من هذه الآية تبين القانون التشريعي المتعلق بالحرب وهو ليس موضوع بحثنا الآن، ما تبقى من الآية هو موضوع بحثنا وهو تبيين أحد القوانين التكوينية الأخرى المتعلقة بالحرب، ففي هذه الآية هناك جملة: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ» تدل على أن الحرب والنزال غالباً ما يصاحب القتل، والضرب، والجرح، والإصابة، والأسر، والضياع، والتشرد، والثكل، والدمار، والخراب، والقحط، وعشرات المحن والبلايا، أجل فهي ظاهرة مرة بالغة الإزعاج وليست من طبع الإنسان وسليقته، ولكن الجملة الآتية في الآية الكريمة:«وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، تشير إلى هذه الحقيقة وهي أنه رغم الصعاب والمحن التي ترافق هذه الظاهرة فإن هناك فوائد وأموراً إيجابية كثيرة إلى جانبها أيضاً، والتي لا ينبغي التغافل عنها، وهذه الفوائد والحسنات هي التي يمكن أن تبرّر وقوع الحرب والصراع في العالم، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض فوائد تلك الحروب وحسناتها وهي على النحو الآتي:

- **إيجاد النشاط والحيوية والحيلولة دون الجمود والاسترخاء والكسل:**

من جملة نتائج الجهاد في سبيل الله هو أن الله سبحانه وتعالى يريد بمثل هذه الحروب تخليص الناس من الكسل وتحريرهم من الجمود والاسترخاء، ويقصد من ذلك أن يتفاعل الإنسان بنشاط وحيوية وكامل الطاقة مع الحوادث والوقائع التي تدور حوله، إذ من الطبيعي أن الإنسان وعلى مدى فترة طويلة لو كان ينعم بالراحة والرفاه، والأمان والهدوء والسكون، فإنه ينحدر إلى الخمول، ويعتاد على الكسل والاسترخاء، وبالنتيجة يتثاقل عن الحركة ويتوقف عن النشاط، ومن

جهة أخرى إن روح القتال والمقاومة والمجابهة تصبح ضعيفة لديه، فالحرب تخرج المجتمع من الكسل وتنأى به عن الخمول والاسترخاء، من هنا إن أفراد المجتمع يشعرون عندما تدور رحى الحرب أن كل شيء من حولهم في خطر، فتستيقظ كل القوى الخاملة والنائمة فيهم، وتنشط كل الطاقات الثملة لديهم، إن الحرب تقذف في نفس الإنسان الحماس، والإقدام، والمنافسة، والصلابة، والاستقامة، وترفع درجة النشاط إلى مستوًى أكبر.

ولو التفتنا إلى حقيقة الاسترخاء والترف في مجتمع من المجتمعات، وأدركنا أنه - على هذا الحال - فريسة غنيّة، وصيد سهل لبعض الأقوياء والفاسدين، سوف نذعن بسهولة إلى حقيقة أن الثمرة المذكورة هي إحدى النتائج المهمة للحرب في ما يخصّ المجتمع، من هنا إن الحرب في مثل هذه الأحوال يكون حكمها حكم اللقاح فيما يخصّ لبدن الإنسان عندما يعيد له النشاط والجاهزية مرة أخرى، ويعبئ القوى الداخلية في مواجهة غارات واجتياح الفايروسات والميكروبات إلى جسمه.

يقول علماء الأحياء: إن الظروف طبيعية عندما تتحقّق، ويسود الأمن والهدوء، فإن بعض القوى الصغيرة في الإنسان هي التي تكون فعالة، ولكن في الظروف الصعبة، وعندما يشعر بالخطر والتهديد فإن القوى الفعالة في الإنسان ستتضاعف مرات عديدة، ويمكن أن نستفيد هذا الموضوع من بعض الآيات القرآنية، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟

مِائَتَيْنِ ﴾[1].

ولعل إحدى العلل التي يمكن أن تبرر هذا الموضوع هي الحقيقة العلمية المذكورة، وربما يكون ذلك هو السر في أن يكون المؤمنون في صدر الإسلام أقلية، ويحيط بهم العدو من كل جانب ومكان إذ كان الأكثر والأقوى في ذلك الوقت، ولذلك تجد المؤمنين يشعرون دائماً بالخطر المحدق، الأمر الذي كان يبعث - وبنحوٍ طبيعي - الطاقة الخارقة في تراكيبهم العضوية والاستعداد الكامل لمواجهة التهديدات والأخطار.

- **رفع الإحساس بالنقص والفاقة:**

الثمرة الأساسية الأخرى من ثمار الجهاد هو انتباه المجتمع وإحساسه بالحاجة والفقر الموجود في شرائحه، وهذا الشعور يدفع أفراده إلى النهضة والاجتهاد في إزالة ذلك النقص، ويسعون لتأمين الحاجة، وملء الحلقات المفقودة من الفاقة لديهم، فلو أمعنا النظر في الجهود والنشاطات الفردية والفعاليات الاجتماعية نفهم أن اجتهاد عموم الناس وسعيهم وفعالياتهم الحقيقية إنما تنشط بقوة وتبدأ مباشرة بعد شعورهم بالاحتياج والفاقة الحقيقية، فتنصب جهودهم فقط للحيلولة دون استفحال ذلك النقص، حتى إن مأكل الإنسان ومشربه - وهو النشاط الممتع الذي يشعره بكثير من اللذة والراحة - تجد أن الإنسان يبادر إليه فقط عندما يشعر بالعطش والجوع، أو أنه يسرع إلى مراجعة الطبيب عندما يحس بالألم والمرض.

---

(١) الأنفال: ٦٥.

وبنحوٍ عام إن الإنسان في كل موطن يشعر بالنقص والفاقة، ويجد الحاجة إلى أي شيء جادة وحقيقية سوف يبادر مباشرة لسد ذلك النقص، إن المرض على الرغم من أنه مزعج عند الإنسان مخالف لطبعه؛ ولكن مالم يشعر بالألم والأذى من ذلك المرض والذي يعد بمنزلة الإنذار الجاد بالخطر؛ لوجود نوع من النقص موجود في بدن الإنسان، وينبؤه بضرورة الانتباه الدقيق والمعالجة السريعة، من هنا يجب القول بأن وجود الألم أيضاً هو الآخر في ما يخص الإنسان في الواقع خير، وله آثار وتبعات إيجابية.

وعندما تُقدم أمة من الأمم لأي سبب كان على الحرب مع الأجنبي والعدو - وبالطبع فإنها أيضاً - وفي ضوء القاعدة المذكورة - ستكون بحاجة للحرب جرّاء إحساس أفراده بضرورة البقاء على قيد الحياة - فإن تلك الأمة ستبادر تدريجاً إلى مكامن النقص، ومواطن الاحتياج المنتشرة في مفاصل الدولة، وعند تشخيصها تسعى بكل طاقتها إلى رفع النقص الحاصل، ولو قلبنا صفحات التاريخ لوجدنا أن نسبة مئوية غير قليلة من الاكتشافات والاختراعات في الفن والصناعة بدأت وتبلورت إبان وقوع الحرب والمعارك.

- **ترويج الإسلام وزيادة عدد المسلمين:**

من ثمار الحرب الأخرى هي أن السعي والإيثار والتضحية والتفاني الذي يبرزه المؤمنون والمجاهدون والمضحون- لاسيما عندما ينتصرون في المعارك على أعدائهم - سوف تتحقق لهم الشهرة، وسيتعرف الناس عليهم في الأرض أكثر، ويشعر من يرافقهم بصدق دينهم، ويفهم أهدافهم، ومقاصدهم، وعقائدهم،

وبعد أن يستوعب المجتمع والناس البواعث والدواعي الإنسانية والإلهية لدى المؤمنين سوف يدفعهم ذلك إلى المشاركة في إدارة الحرب، والمساهمة في القتال، ودفع نفقاتها، وتحمل الخسائر التي تنشب جرّائها، الأمر الذي سيثير فيهم روح اعتناق الإسلام وعبادة الله، يعني أن أولئك المؤمنين عندما حازوا على القدرة في الهجوم والغارة على العدو جعل ذلك الأمر لهم مكانة لامعة، وكسبوا درجة ممتازة بين الناس، واتاحت لهم الحرب أيضاً تبليغ الدين الحق وإذاعته.

يصرّح المستعمرون في الشرق والغرب اليوم بنحوٍ علنيٍّ بأن الأصولية - ويقصدون بذلك الإسلام الأصيل - تهدد قدرتهم ونفوذهم، وتشير الإحصاءات والتقارير إلى أن النزعة الإسلامية وفي شعوب ودول مختلفة من الأرض تزداد يوماً بعد آخر انتشاراً وحضوراً، والمجتمعات الإسلامية أيضاً ماضية في إيجاد أرضية جديدة، وحراك أكثر نشاطاً وحيوية لنشر العقائد والمعارف الدينية وتعميقها في مجتمعاتهم وبلدانهم.

وخلاصة ذلك إن شعلة الإسلام انتشرت بسرعة أكبر، وأحد العوامل المهمة في هذا الأمر قطعاً هي الثورة الإسلامية في إيران، ولابد من أن يكون للمقاومة وصمود الأمة الأثر الكبير في ذلك، ولاسيما في الحرب المفروضة التي كان النصر في نهايتها للإسلام.

٧ - الحرب وسيلة للاختبار والتطور:

القانون التكويني السابع من قوانين الحرب هو أن المؤمنين الموحدين عندما يتحملون عناء المعارك، ومرارة القتال فإنهم بذلك يرتقون درجات الكمال المعنوي والروحي، وهي من الأمور والفوائد الحسنة الأخرى للحرب، وفي إثر ذلك جعلها الله تبارك وتعالى وفي ضوء إرادته الحكيمة تلك الحسنة والفائدة، ولحظها في النظام التكوينيّ والتعاليم التشريعية لحياة الإنسان، فيمكن القول هنا: إن ساحة المعركة والحرب بنحوٍ عام هي أفضل مكان يمكن من خلاله أن يصل الإنسان إلى الهدف الأساسي من خلقته وتكوينه، والدنو من الكمال النهائيّ، ومعنى الهدف الحقيقي من خلقة الإنسان هو بلوغه الكمالات المعنوية والروحية كلما تسامى في المسير إلى قرب الله، فلو أراد المرء السير والسلوك نحو الله والقرب الإلهي فإن الوقت الوحيد الذي يمكن فيه الوصول إلى مراده ومقصوده هو تحمل الصعاب والنوائب والمحن والنكبات وتجرع كثيراً من المشاكل والشعور الحرمان، إن الوصول إلى الكمال المعنوي، والنمو الروحي يتحقق في صورة واحدة فقط، وهي أن يخالف الإنسان هوى نفسه، ويقف أمام أهوائها ورغباتها، ويركن بإخلاص محض إلى الأوامر الإلهية والقوانين الربانية، وهذا الأمر يحتاج إلى صبر واستقامة، إن الإنسان الذي يمكن أن يبلغ الدرجات العالية من الكمال هو الذي لايقع ضحية غرائزه، ولاتكبله الميول الشهوانية، ويتحقق ذلك فقط عندما يكون ذلك مرضيّاً لله تعالى، حتى لو خالف هوى نفسه مئة بالمئة.

إن السر الوحيد في ابتلاء المؤمنين والصالحين بالمصائب والمحن الدنيوية ليس

إلا الكمال والسمو المعنوي، وإن الله تعالى قادر على أن لايلحق الصعاب، والبلايا، والمشاكل، الحياتية مثل الفقر، والمرض، والخوف، والجوع وغيرها، ويستطيع أن لايصيب بها المؤمنين والمحسنين؛ ولكن لطف الله تعالى ورحمته ليس كذلك؛ لأنه أراد أن يصل المؤمنون والصلحاء عن طريق تحمل النوائب والمحن والمشاكل والعقد إلى الكمال الذي يليق بهم، وأيّ شيء أكبر من أن يحظى المرء بالرحمة الإلهية والنعم والمواهب الربانية، ووقوع الحرب والقتال في حياة عباد الحق سبحانه والموحدين أيضاً من هذا القبيل.

إن المصائب والمحن والمشاكل المرافقة للحرب والألم والأذى الذي يواجهه الإنسان في المعركة إنما هي ساحة خصبة لاستقاء البشر وارتشافهم الفضيلة، وميداناً حسناً للتخلص من الشوائب والملوثات.

إن الحرب مسرح مناسب للإنسان ليكون هدفاً للبلايا والمحن الإلهية المختلفة، والظفر والنجاح والفوز عند الصبر عليها، وهي طريق للسير في مدارج الكمال والقرب الإلهي واحدة تلوي الأخرى حتى يكون جديراً بنيل أعلى المراتب وأسماها.

إن المؤمنين ومن خلال الجلادة والصبر والاستقامة في ميدان المعركة وبانصهارهم وذوبانهم في وطيس وقائعها، فإنهم بذلك الصنع يجعلون وجود جوهرهم وباطنهم أكثر صفاءً، وأنقى سريرة، يقول تعالى في هذا الصدد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1].

تشير هذه الآية الشريفة ضمناً في جملة «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» إلى الصعاب والمشاكل والعثرات التي تواجه السالك في الطريق إلى الله، وتبشر المؤمنين أنكم لو صبرتم واستقمتم وتحملتم تلك الصعاب والنكبات وصمدتم أمامها، وقاومتموها ستكون نهايتكم الجنة والسعادة الأبدية.

من هنا إن القرآن الكريم في آيات متعددة يشير بوضوح إلى أن مايقع في الحرب وفي ساحات الوغى من صعاب وإرهاق شديد، وما يحصل من دمار وخراب بعد ذلك بسببها إنما تحقق في ضوء الإرادة والحكمة الإلهية، ويعد سبيلاً لامتحان البشر واختبارهم، لقد جعل الله الحرب والصراع ومايحمله من نتائج مرة من أجل أن ينضج ويكتمل استعداد الإنسان وتينع جدارته وقابليته للسير في طريق الله، فيبلغ المقاتلون في الصراعات والحروب الملتهبة الكمال بالفعل بعد ماكان بالقوة، ويتدرجون في الرتب الإنسانية غير المتناهية واحدة بعد الأخرى، ويصعدون إلى القمم المرتفعة والمنيعة؛ لينالوا بذلك منازل السمو والرقي للإنسان الحقيقيّ.

إن الله يختبر المؤمنين بوساطة الحرب، حتى يعلم إلى أي مدًى تكون لديهم القدرة والاستعداد للعمل بالتكاليف الشرعية، والتعاليم الربانية في ظل المحن والصعاب والقدرة على تحملها: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ

---

(١) فصلت: ٣٠.

ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(١).

إن هذه الايات الشريفة تتعلق بالجهاد فتشير إلى أن الله تعالى يخلق في روح المؤمنين ونفوسهم الاستعداد والقابلية للمشاركة في الحرب، ولكن ليس عن طريق الدعاية البعيدة عن الحقيقة، وعبر الإعلام المزيف؛ بل من خلال بيان سلسلة من الحقائق، وعرض مجموعة من الوقائع والقيم الإنسانية، وإن الشارع المقدس عندما يريد بيان سننه وتعاليمه لا يستخدم إطلاقاً السبل الملتوية، والطرق المخادعة لإقناع الإنسان وتبليغه بمايريد، سواء كان ذلك الإنسان مؤمناً أم كافراً، فليس من قواعد الإسلام، ولا من أسسه أن يأخذ بيد الناس إليه، ويقنعهم بأهدافه وأغراضه عبر ممارسة الدجل والغش والخداع.

ثم إن الله تعالى في ضمن بيانه للصعاب التي عادة ماترافق الحرب، مثل الخوف، والفاقة، والنقص، وغلاء الأسعار في المواد الغذائية، والخسائر الاقصادية والمالية، والقتل والذبح، وفقدان بعض الأعضاء والأسر وغير ذلك، إنما يبينها الله تعالى بعنوان كونها أسباباً للامتحان وأرضية مناسبة لاختبار المؤمنين، ووسائط لتحصيل الكمالات المعنوية، فيعد المؤمنين بالحسنى عندما يثبتون ويستقيمون ويصبرون على تلك الصعاب.

إن المؤمنين الصابرين هم الذين يعتقدون بالمبدأ والمعاد، وهم الذين لديهم إيمانٌ كامل، لذلك، إن ما نريد قوله وبيانه الآن هو أن أحد العوامل الأساسية

---

(١) البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

لنصر المؤمنين على أعدائهم الكفار هو معرفتهم بالله ووعيهم بالتوحيد، وإن اعتقاد المجتمع المسلم وإيمانه هو رمز لانتصار هؤلاء على أعدائهم، وهو دليل الشموخ والفخر عند الخروج من ساحة الاختبار والتمحيص، إن النصر العظيم الذي يحظى به الصابرون هو لطف الله ورحمته، وهو الهداية التي أشار إليها الله في نهاية الآيات المذكورة: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[1].

وحاصل ما يريده تعالى في هذه الآيات أن الحرب سبيل لتمحيص الإنسان واختباره، وهي طريق للسمو والرقي وتكامل المؤمنين، وإن الذين يواجهون العدو في ساحات الوغى ولايولّونه الأدبار، فإن القرآن الكريم يبيّن أن مثل هؤلاء سيحصلون على أسمى منازل الكمال، وستدركهم العناية واللطف الإلهي الخاص وسيبلغون مقصودهم وينالون مطلبهم.

في آية أخرى نقرأ مايأتي عن الحرب: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2].

---

(١) البقرة: ١٥٧.

(٢) آل عمران: ١٤٠ - ١٤٣.

تعرضت هذه الآيات الكريمة إلى بعض النكات سنشير في ما يأتي إلى بعض منها لوجود المناسبة ومورد البحث:

الأولى: تقدمت الإشارة إلى أن الحكومات، والدولة، والقوى، والقدرة، لاتبقى في قبضة فرد أو فرقة خاصة، ولاتتمحور لدى أيّ طرف من الأطراف؛ فضلاً عن أنها منقسمة في عصر واحد بين أفراد وفرق مختلفة ومتعددة، فإنها تنتقل على طول التاريخ من يد إلى أخرى بين مجموعات وشخوص مختلفين أيضاً، وأشرنا بعد ذلك إلى أن الإرادة الإلهية تعلّقت بأن أي قدرة لا تبقى منحصرة إلى الأبد بيد شخص، أو فئة، أو مجموعة، أو قوم، أو عرق، أو طائفة معينة؛ بل اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون القدرات والقوى باقية متنقلة ومتحولة من يد إلى يد تارة هنا وأخرى هناك، وهذه الحقيقة كانت مقصودة وداخلة في التصميم العام، والتدبير الرباني لحياة الإنسان الاجتماعية.

الثانية: هي النكتة التي تشير إليها الآيات المذكورة وهي أنه في بعض المواطن يكون انتقال القدرة من جبهة إلى أخرى بوساطة القتال، والحرب، والضرب، والاشباك، فمرة تكون هذه الوساطة والوسيلة اختباراً وامتحاناً للمؤمنين حتى يعرف الله تعالى الاشخاص المؤمنين حقاً، ويتخذ منهم شهداء.

وخلاصة ذلك: إن الله تعالى عندما يُحدث الحرب إنما يصنع ذلك لأجل أهداف ومقاصد، وأحد تلك المقاصد هي أن يمحّص المؤمنين، ويختبرهم في معمعمة الحرب والصراع، وهذه النكتة التي جاءت في الآية الأولى جاءت في التالية أيضاً؛ ولكن بلسان آخر لتؤكد هذه النكتة مرة أخرى، إذ قال هناك:

«وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ» والتمحيص هنا بمعنى التصفية والتنقيح من العيب والنقص، وهذا التمحيص يمكن أن يكون له معنًى وبعد اجتماعي، وقد يكون له معنًى وبعد فردي.

أما التمحيص في البعد الاجتماعي فيمكن تصويره على النحو الآتي وهو أن يراعي أفراد مجتمعٍ من المجتمعات الإسلامية - قلّوا أو كثروا - الظواهر الشرعية، ولكن أكثرهم مبتلًى ببعض الملوثات والشوائب، وفي مثل هذه المجتمعات تكون الحرب طريقة مناسبة جداً ليُعلَم من هم الأشخاص المسلمون حقاً، والموحدون واقعاً، ومن هم الذين يقدمون رضوان الله وطاعته على كل شيء مهما كانت الظروف والمناسبات، مقابل هؤلاء ليُعرفَ الأشخاص الذين حُرِموا الإسلام والتوحيد الحقيقي، وترقد في أعماق نفوسهم روح الشرك والكفر، والظلم والعصيان، وعند الملاحظة والدقة نشاهد أن الحرب كلما غربَلَت ومحَّصت صفوف العاشقين الصادقين فإن العصاة والمردة والكذابين يمتازون أيضاً: «لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

وأما التمحيص ذو البعد الفردي فيمكن أن يكون في مسلم ينطق الشهادتين؛ ولكن يشوب إيمانه بعض النقائص والذنوب، مثل اللذة، والاسترخاء، والكسل، وطلب الجاه والسمعة، والظلم والفساد، فحتى يتم تطهيره من هذا الوهن والضعف والتلوث، وتنقى نفسه وروحه من تلك المعاصي، وتقلع جذورها من أعماق ذاته، عليه أن يهيئ الظروف، والأوضاع الملائمة، والمناخ المناسب، ويتيح لأعماقه الالتفات إلى الضفة الأخرى وهي ساحل الأمان والخير،

إلى أن يحين الوقت لتمضي حياته بهدوء وسكينة، وتسير بنحوٍ طبيعي، عندها سينتفع من أنواع النعم الإلهية المختلفة.

إن الميول الحيوانية، والنزعات النفسانية، والوساوس الشيطانية في الإنسان عادة ما تسلبه قوته وقدرته على المقاومة والثبات، فتضيع عليه الفرصة ليكون بينها كالقشة في مهب الريح، عندها تحرك المرء بأي اتجاه تريد لهذا الصوب أو لذاك، ومما لاشك فيه أنّه لو استمر الحال على هذه الشاكلة ستضعف معنويات الإنسان، ويقلّ إيمانه، وينحدر شيئاً فشيئاً، وفي النهاية سيضمحل.

إن المشاكل والنكبات التي تقع في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية تضرب النمط السائد في حياته وتربكه، وتتيح الأرضية المناسبة لتطهير الإنسان وتنقيته، وهي الثمرة التي ستكون مهمة جداً، ومطلوبة في حياة الإنسان، الحرب هي الأخرى جزء من النكبات والمتاعب الحياتية الصعبة والمرّة، تجعل شروط البناء الذاتي لدى الإنسان صعبة، ولكنها في الوقت نفسه مفيدة جداً.

وحيث إن الحرب ساحة للتضحية بالنفس، فيها يُرغم الإنسان على التخلي عن المال والزوجة والأولاد، ويقطع صلته بكل زخارف الدنيا وبقاياها، فهي أرضية مناسبة ليجعل كل شيء غير الله تعالى خلفه، ويتجه بقلبه فقط نحو الله جلت قدرته، فيمكن للحرب أن تقذف أي شيء لايتفق ولايتلاءم مع إيمانه الخالص النقي النابع من أعماق الإنسان وباطنه، وتكسو الروح بالصفاء، والنفس بالنقاء والطهارة، وحينئذٍ تبلغ به الكمال المنشود.

والخلاصة: إن إحدى النتائج الأساسية والمهمة لظاهرة الحرب والقتال هي أنها أرضية مناسبة جداً لمن لديهم الاستعداد الكبير لقبول الكمال، وتتيح الفرصة العظيمة لمن يلج أُوار الحرب الملتهبة، وتحثهم على صنع ذاتهم وخلق أنفسهم، وفي مراحل متفاوتة من الحرب سوف يتخلصون من كل بقايا الذنوب والشوائب المختلفة، وفي النهاية سينالون الكمالات الروحية والمعنوية وإن كانت عظيمة.

من هنا إن الحرب بالرغم مما يرافقها من الصعاب والمرارة وما يعقبها من المصائب والمحن والخسائر، إلا أنه لو لم تكن سوى نعمة واحدة وفائدة واحدة في تلك الحرب - وهي إنه سيحظى المؤمنون الصالحون والمجاهدون في سبيل الله الدرجات المعنوية العالية، ويرتقون مراتب الكمال الروحية، الأمر الذي يصعب على الماديين إدراك تلك الفائدة، ويعجزون عن استيعابها - لما أمكن لأي أحد الحديث عن أي نعمة أو موهبة، وسوف يكون غير ملزم بشكرها والثناء عليها، وفي ضوء ما يراه الإسلام الحنيف فإن الهدف من خلق العالم والبشر هو تقرب الإنسان - كلما كان أكثر - إلى الله سبحانه والدنو منه، والحرب أفضل وسيلة يمكن أن تكون من مقدمات هذا القرب وممهداته وتتيح له نيل منزلة الإنسان الأكمل والأحسن في حضرة الله جل شأنه.

٨ - الانتصار النهائيّ للحق:

القانون الثامن من القوانين التكوينية والسنن الإلهية الحاكمة على ظاهرة

الحرب هي أن نهاية حياة الإنسان وخاتمتها، وصراعاتها، وكفاحها الإنساني ستكون هي الانتصار النهائي الذي يختم هذه المسيرة للحق والحقيقة وسيستولي عباد الله والصالحون على كل العالم، وفي مقام توضيح هذا القانون وبيانه ينبغي بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: هي أن الإرادة الإنسانية - وكما أشرنا من قبل أيضاً - وسلوكه الفردي والاجتماعي، واختياره في السير على طريق الخير، أو سلوك طريق الشر هو أمر ملحوظ في الإرادة الربانيّة ومقتضى الحكمة الإلهية البالغة، وقد أعطى الله تبارك وتعالى القدرة والاستطاعة في الحركة للسير في كل واحد من هذين الطريقين ووضعها بيد الإنسان واختياره، فكانت الإرادة الإلهية ومقتضى الحكمة الربانية على النحو الآتي: إن من يخطو ويسير باتجاه الجنة والنجاة يملك القدرة والإمكانية في سلوك طريق الضلال الذي سيودي به إلى جهنّم، ومن يسير في طريق جهنم يمكنه أن يمشي أيضاً باتجاه الجنة ونعيمها، وهذا الأمر يعني أن كلاً من الفريقين حر ومختار في انتخاب طريقه وهدفه، ومريد في أن يمشي في السبيل الذي اختاره، والآيات القرآنية الكريمة التي تدل على أن الله تعالى يعين ويساعد من يختار طريق الخير، ويساعد من اختار طريق الشر والكفر تشير في الواقع إلى هذا المعنى والآية الآتية من جملتها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ

عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1].

المقدمة الأخرى: وهو المعنى الذي أشرنا إليه في أكثر من مناسبة من أن خلق العالم، وإن كان الهدف الحقيقي من تكوينه وإبداعه بالذات هو تحقيق الخير والكمال، ولكن إلى جانب الخيرات والكمالات المقصودة بالذات للخالق فإن هناك بعض الشرور أيضاً، والنقص الموجود في المسيرة الكونية بنحوٍ عام، ومن ملحقات ولوازم المقاصد الذاتية، وهي إنما تكون مطلوبة ومقصودة بالعرض كما يصطلح على ذلك تبعاً لتلك المقاصد الأولية، ومن جملة ذلك في ما يتعلق بالإنسان. وفحوى ذلك أن الله لم يخلق الإنسان حتى يذهب بسوء اختياره إلى جهنم ولم يكن الغرض من تكوينه أن يخطئ بالانتخاب فيذهب إلى الجحيم، كلا، بل أراد أن يبلغ عبر حسن اختياره وإرادته ليدخل الجنة، لذلك إن سقوط الإنسان في جهنم ووقوعه في دركاتها ليس خارجاً عن إرادة الله تعالى، ولكن ذلك كان ملحوظاً ومقصوداً بالعرض وبالتبع له تعالى وليس أصالة وذاتاً.

الآن وبعد ذكر هاتين المقدمتين يجب أن نقول انطلاقاً من أن إرادة الله تعالى تعلقت أولاً وبالخصوص بخير الإنسان وسعادته ورقيّه وكماله: إن القصد من كل ذلك هو أن يكون من أهل الجنة، وقد دبر حياة هذا المخلوق الاجتماعية والفردية وقدّرها على هذه الشاكلة وهي أن الله سيمد من يسيرون في طريق الخير والكمال ويختارون سبيل الجنة بنحوٍ أكبر، وفي الختام سيحظون هؤلاء أنفسهم قطعاً بالنصر المؤزر والنهائي.

---

(١) الإسراء: ١٨ - ٢٠.

إن الله تعالى يعطي المؤمنين الصالحين والمجاهدين في سبيل الله الحرية والإرادة في العمل والاختيار، ويعطي المخالفين والأعداء ذلك أيضاً، وكل واحد من الفريقين يحظى بالأرضية المناسبة للنشاط والفعالية، ويمد كل واحدة من المجموعتين بالعدّة والعدد، والأسباب والأدوات الكافية، لكنه سبحانه يعتني بالفرقة الأولى المجاهدة والمقاتلة في سبيل الله عناية خاصة، وفي معرض تأييده ونصره لهؤلاء سينالون في النهاية النصر الحقيقي، وهذا النصر ليس دون حساب أو تدبير وليس دون ضوابط وشروط خاصة بذلك النصر، وكيفما كان الأمر فإن الحكمة الإلهية له تعالى اقتضت النصر النهائي لأهل الحق من عباد الله الصالحين في تلك الحرب، وفي هذا السياق آيات عديدة وردت في القرآن الكريم، وهنا نشير إلى بعضٍ منها: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(٢).

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٣)، وقال عزّ من قال: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) آل عمران: ١٣٩.
(٢) الأنبياء: ١٨.
(٣) الحج: ٣٨ – ٤٠.

سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[1].

يعبّر الله تعالى في هذه الآيات الشريفة عن انتصار أنبياء الله تعالى بعنوانه تقديراً إلهياً حتمياً، وقضاءً ربانياً قطعياً، وقد ركّز على ذلك مراراً، ولا أظن أن هناك تأكيداً أكثر من ذلك، وقد عبّر عن ذلك التأكيد بأدوات مختلفة، مثل: (إن)، و(الجملة الاسمية)، و(لام التوكيد)، و (ضمير الفصل)، وقد كرّر القرآن الكريم ذلك في أكثر من موضع، ونقرأ في آية أخرى عن هذا التقدير الحتمي ما يأتي: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

وفي ثلاث آيات أخرى وعد الله سبحانه بالنصر الإلهي والحتمي لدينه الحنيف والنبي الأكرم ﷺ على سائر الأديان الأخرى: فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[3].

وقد جاءت في نهاية اثنين من هذه الآيات الثلاث جملة: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» وهي الآية: ٣٣ من سورة التوبة، والآية: ٩ من سورة الصف، وفي نهاية آية واحدة فقط جاءت جملة «وَكَفَى بِالله شَهِيداً» وهي الآية: ٢٨ من سورة الفتح، وهذه الآيات والجمل الشريفة فيها تركّز أكثر من ذي قبل على هذه الحقيقة.

يستفاد من مجموع هذه الآيات أن عاقبة الحرب والقتال الحاصل بين أهل الحق وأهل الباطل ستكون النصر النهائي لأهل الحق والحقيقة، وسيكون الفوز

---

(١) الصافات: ١٧١ – ١٧٣.

(٢) المجادلة: ٢١.

(٣) التوبة: ٣٣؛ الفتح: ٢٨؛ الصف: ٩.

والظفر حليف الدين الإسلامي، وأنصاره الحقيقيين أيضاً، وفي ضوء ما يعتقد به الشيعة فإن النصر النهائيّ والتام لدين الإسلام سيتحقق على يد أمام العصر والزمانﷺ، وفي نهاية التاريخ سيكون العالم من أوله إلى آخره تحت راية الحق والعدل الخفاقة، وهي الراية التي سيرفعهاﷺ.

الفصل الثالث

مكانة الحرب في النظام التشريعيّ

أولاً: عرض بعض الملحوظات:

ما تقدم حتى الآن هو البحث في ظاهرة الحرب من حيث مكانتها وموقعها في النظام التكوينيّ، والقوانين التكوينيّة، والعلل والعوامل الحاكمة عليها، والآن حان الوقت لنبحث في القوانين والنظم التشريعية الحاكمة على الحرب والقتال، وبنحوٍ عام ندرس مكانة حضور هذا الموضوع في النظام التشريعي وحجمه، ولكن قبل الدخول في أصل هذا الموضوع علينا أن نعرض بعض النكات والملحوظات المتعلقة بذلك:

١- إن كل أحكام الشريعة أعم من كونها فردية أو اجتماعية فهي تابعة ثبوتاً وفي الواقع إلى المتغيرات والتحولات الأخرى، وهذا الأمر المتغير عبارة عن المصالح والمفاسد المترتبة على كل حكم من الأحكام، فلو توفرت المصلحة والمنفعة في عمل، لما أمر الشارع المقدس بأدائه وإتيانه، ولو كان فيه مفسدة ومضرة لنهى المكلفين ومنعهم عن فعله والإتيان به، وفي الأثناء هناك بعض الأفعال تضمنت فيها منافع ومصالح وفيها أيضاً مضارّ ومفاسد، ففي مثل هذه الموارد يحكم الشارع المقدس عليها بعد ملاحظة المفاسد والمصالح المترتبة عليها، فلو كانت مصالح ذلك العمل ومنافعه في الجملة أرجح من مفاسده ومضارّه لأمر به، وإن كان العكس نهى عنه[1].

---

(١) نجد هذه المقايسة بين المصالح والمفاسد في القرآن الكريم؛ إذ نلاحظ في بعض النماذج التي ذكرتها الآيات الشريفة، ومنها المقارنة بين مصلحة ومفسدة أحد فعلين: هما شرب الخمر، ولعب القمار، إذ إن ←

وهناك نكتة أخرى تذكر في هذا المجال؛ وهي إنه لو بلغت تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة حد اللزوم والإيجاب، يكون أمر الشارع المقدس ونهيه بنحوٍ وجوبيّ وإلزاميّ (الوجوب والحرمة)، وإلا فيكون الأمر بصورة غير إلزامية (الاستحباب والكراهة).

وعليه إن كل فعل تعده الشريعة الإسلامية واجباً إنما هو فعل يشتمل على مصلحة فقط، أو فيه مفسدة ولكنها قليلة جداً مقابل المصلحة الكبيرة، عندها سيكون أداء ذلك العمل - في الجملة - واجباً، وفي المقابل إن كل فعل يعتبره الشرع المقدس حراماً، هو فعل الذي يحتوي على مفسدة، أو كانت مصلحته قليلة لا تذكر مقابل مفسدته العظيمة، ومع وجود تلك المصلحة الجزئية أيضاً سيكون ارتكاب ذلك الفعل حراماً أيضاً بسبب وجود المفسدة الأقوى فيه.

بجملة واحدة إن الأحكام والقوانين الإسلامية سواء كانت أحكاماً فردية أم اجتماعية تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية ونفس الآمرية، سواء علمنا بتلك المصالح والمفاسد الناشئة عن تلك الأحكام أم لم نعلم.

٢ - وهنا جاء دور السؤال الآتي وهو: ما السبيل لمتابعة المصالح والمفاسد

مفسدتهما ومضارهما أكبر من مصلحتهما ومنافعهما، ينتهي الشارع إذاً إلى وجوب اجتنابهما: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة:٢١٩)، ففي هذه المقارنة يشير الله تبارك وتعالى إلى أنه على الرغم من وجود المصلحة والمفسدة في الفعلين المذكورين؛ ولكن حيث إن مصالحهما أقل ولا تعد شيئاً في مقابل المفاسد التي فيهما، منع الله سبحانه من ارتكابهما، وفي آية أخرى يحكم على خبائث تلك الأفعال فيقول:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

المذكورة ومعرفتها؟ وكيف يمكن الاطلاع وتعرّف المصالح والمفاسد الكامنة وراء الأحكام الشرعية؟ وهل من سبيل لإدراك مناشئها ومصادرها؟

وحتى نجيب عن هذا السؤال يجب القول: إن كثيراً من مواطن هذه المصالح والمفاسد كُشِفَت لنا عن طريق الوحي والقرآن الكريم، أو عن طريق أقوال المعصومين عليهم السلام وأحاديثهم، وهم المفسرون الحقيقيون للقرآن الكريم، كذلك، إن كثيراً من تلك المصالح والمفاسد وملاكات الأحكام يتم إماطة اللثام عنها بمساعدة العقل والتجربة، وهنا إذا كان كشف العقل هذا كشفاً قطعياً ويقينياً، عندها يمكن الاعتماد عليه في الكشف عن الحكم الشرعي أيضاً.

ولكن في كثير من الموارد أيضاً يمكن أن تكون المصالح والمفاسد الواقعية للأحكام الشرعية مجهولة وتبقى غير معروفة، ولا يمكننا وبأي طريق الكشف عنها والوصول إليها، أي لا عن طريق الآيات ولا الروايات ولا يمكننا الكشف والتعرف عليها بمساعدة العقل أيضاً.

إذاً المصالح والمفاسد التي تسنى لنا العلم بها والتعرف عليها إنما يمكن أن تكون في الحقيقة جزءاً من مجموعة مصالح ومفاسد وملاكات الأحكام الشرعية الواقعة في العالم الفسيح فقط، فنحن لم ندعُ إطلاقا لإدراك جميع المصالح المفاسد الواقعية للأحكام، ولم نزعم بأننا نستطيع الكشف عنها جميعاً؛ بل مع ملاحظة التعقيد والدقة الموجودة في أعمال الإنسان وسلوكياته، ونتائج ذلك في جميع أبعاد حياته المادية، والمعنوية، والدنيوية، والأخروية، والاقتصادية، والسياسية، والقانونية وفي جميع مدياتها وعواقبها، لا يمكننا أن ندّعي أننا نستطيع الكشف

عن سائر المصالح والمفاسد الموجودة في جانب من هذه الجوانب الإنسانية، حتى يمكننا أن نزعم أننا نعي جميع المصالح والمفاسد الكامنة وراء سائر الأحكام الشرعية ونفهمها.

أحد الأسباب الرئيسية في عدم قدرتنا على إدراك المصالح والمفاسد الواقعية للأحكام هي أن مفاسد الاحكام ومصالحها لا تنحصر بالمصالح والمفاسد الدنيوية؛ بل هناك مصالح ومفاسد أخروية ومعنوية أيضاً، لها دور وتأثير في مصير الإنسان وعاقبته أكبر بكثير من المصالح والمفاسد الدنيوية، ولهذا الأمر أعطى الله تعالى للمصالح والمفاسد المعنوية عناية وأهمية أكبر من المصالح والمفاسد المادية؛ ذلك لأن قيمة الإنسان وشأنه متعلق بالمصالح والأغراض المعنوية، والمصالح المادية ليست سوى سبيلٍ ووسيلة للمصالح المعنوية، بعبارة أخرى إن المنظومة القيمية للدين الإسلامي تعدُّ أي أمر مهما بلغ شأنه لا يقابل ولا يوازي قيمة الكمال المعنوي والروحي للإنسان، وهو القرب كلما كثر من الله سبحانه وتعالى، وأن قيمة أفعال الإنسان ونشاطاته تتعلق بدورها ومكانتها في تأمين المصالح الأخروية وتحصيله، وأن قيمة المصالح الدنيوية مقيدة ومشروطة ومن ثمّ تكون مطلوبيتها هي (المطلوبية بالغير).

وعليه، إن تقييم قيمة أعمال الإنسان وسلوكه ومقارنتها ينبغي أن يلاحظ فيها وقبل كل شيء المصالح والمفاسد الأخروية والمعنوية ولا يصح الاكتفاء بالمصالح والمفاسد الدنيوية أو تعطى الأولية لها.

٣ - رغم أن مفردة الحرب والجهاد تطلق على القتال و المحاربة بين فريقين

وبين مجتمعين أو شعبين أيضاً، كذلك إنه بالرغم من إطلاق مفردة الجهاد على مكافحة الظواهر السلبيّة المختلفة سواء الثقافية منها، أم الاقتصادية، أم السياسية، أم العسكرية، إلا أن ما نقصده هنا فقط هو مكافحة الأمر وإزالته عن طريق القتال العسكريّ.

٤ - عندما نقصد تحليل ظاهرة الحرب المتعلقة بموطن بحثنا، وهي التي عادة ما يرافقها حدوث أمر هو الأخطر والأهم من بين كل تفاصيل الحرب ألا وهو قتل الإنسان وسفك دمه سواء كثر أم قلّ، فحريّ بنا أولاً أن نتناول هذا الموضوع وأن نبسط هذه المسألة، وأول ما نعرضه هو بيان يتعلق بالقتل - بنحو مطلق - في النظام التشريعي والقواعد القانونية للإسلام، ومن ثم نتناول الموضوع الأساسي وهو نفس واقعة القتل في الحرب سواء تعلق موضوع القتل بالفرد أم المجموعة، وسنستعين من أجل توضيح هذا الموضوع ببحث بعض المسائل التشريعية المتعلقة بموضوع الحرب.

توجد هناك نزعة لدى كثير من الفلاسفة وعلماء الحقوق والقانون وبعض المفكرين الآخرين ترتبط بهذه المسألة، وتقوم هذه النزعة على ضرورة احترام حرمة الإنسان وكرامته وتقديسه، مهما كانت ظروفه وطبيعة حياته التي يعيشها، ومن أي طبقة كان، وأي عمل اقترف، وأي سلوك ارتكب، وفي ضوء ذلك لا يمكن أن يحكم على أي إنسان بجزاء شاقّ أو أي عقاب فيه كثير من الغلظة والخشونة، والأقبح من ذلك لا يمكن الحكم عليه إطلاقاً بالموت.

وهذه النزعة والاتجاه نابع من رؤية، أو مقولة الإنسان المتحضر أو كما

يصطلحون عليه بـ(الإنسانية)، أو (الإنساني Humanistic)، وتحت وطأة هذه النزعة تأثرت الأحكام العقابية والقوانين الجزائية في كثير من الدول في العالم، وأحد آثارها الرئيسة هو أن الحكم بالإعدام أصبح ممنوعاً في تلك الدول.

ولكن لا توجد هذه النزعة والاتجاه في الدين الإسلاميّ الحنيف، ولا في الشرع المقدس؛ بل إن جميع الأحكام والقوانين التشريعية في نظام الإسلام القويم والقواعد الحقوقية مبنية على المصالح والمفاسد التكوينية والواقعية، ولا تعتمد على الأحاسيس والمشاعر والعواطف، فلو اقتضت المصالح الواقعية للبشر في موطن ما أن يتلاشى الفرد أو المجموعة، ويختفيان من ربقة الوجود، فإن قتلاً بهذا النحو عندما يكون لمعاقبة الفرد أو المجموعة المقترفة للخطأ ومجازاتهما يكون جائزاً؛ بل واجباً، وسيكون اجتنابه غير مشروع وغير مقبول، رغم إن الجزاء والعقوبة قد تكون مرة وصعبة من اللحاظ العاطفي.

إن المواطن التي يجوز فيها عقوبة الإعدام يمكن تقسيمها على مجموعتين أو طائفتين:

المجموعة الأولى: وهي الموارد التي تتضمن حكماً بالإعدام صادراً من المحكمة، وهذا الحكم يجب إجراؤه على يد أجهزة السلطة الرسمية للدولة.

المجموعة الأخرى: هي الموارد التي لا تحتاج إلى حكم المحكمة، ولا يلزم فيها دور السلطة، بل يمكن أن يبادر الأفراد لتطبيق حكم الإعدام.

والمجموعة الأولى تنقسم هي الأخرى على قسمين:

الأول: الموارد المتعلقة بقصاص النفس.

الآخر: الموارد المتعلقة بإجراء الحدود.

ويتحقق القصاص بأن يقتل شخص شخصاً آخر بغير حق، فلو طلب أولياء الدم من السلطات والأجهزة الحاكمة إجراء القصاص، عندها وما إن تثبت الجناية في المحكمة، وتحكم بضرورة قتل القاتل، تكون السلطات والأجهزة المختصة ملزمة بتنفيذ حكم المحكمة، وعليه إن إجراء القصاص بعد ثبوت الجريمة في المحكمة الشرعية، هو متوقف أيضاً على طلب أولياء الدم وإرادتهم.

وفي موارد الحدود أيضاً لو اقترف أحدهم بعض المعاصي الكبيرة على نحو يلحق الضرر بحقوق عامة المجتمع - فبالرغم من عدم تجاوزه على الحقوق الخاصة لأي شخص آخر - فإن الحاكم الشرعي في بعض الأحيان ربما يحكمه بعقوبة الإعدام من باب الحد الشرعي، وعلى العموم إن الحدود من جهة وجوب ثبوت أسبابها ودواعيها عن طريق حكم المحكمة من جهة أخرى، وحينئذٍ تقوم السلطات الرسمية وأجهزة الدولة بتنفيذ الحكم العادل بحق المقترف، فهي من هذه الجهة تشترك مع القصاص، ولكن هناك تفاوتاً وفرقاً أساسياً بين القصاص والحد، وهذا التفاوت هو أن القصاص متعلق بمجال الحقوق الخصوصية، ولكن موضوع الحدود ومساحتها هي الحقوق العامة، من هنا يكون تنفيذ القصاص بحاجة إلى وجود (مشتكٍ خاص)، وأما تنفيذ الحدود فلا يحتاج إلى ذلك، بل تقوم الحكومة نفسها بعنوانها المدعي العام بالمبادرة فتعاقب المتجاوزين على الحق العام.

وأما المجموعة الأخرى، وهي الموارد التي لا يلزم فيها عند المبادرة إلى قتل شخص إلى صدور حكم المحكمة، ولا تنفيذه على يد السلطات والأجهزة الحكومية، وهذه الموارد من قبيل أن يكون الإنسان هدفاً لهجوم شخص آخر فيكون في موقع الدفاع وبصدد ردّ العدوّ المعتدي، في مثل ذلك يكون للإنسان الحق شرعاً في الدفاع عن نفسه وحرمته حتى لو دعا الأمر في التصدي لذلك إلى أن يَقتل أو يُقتل.

وأيضاً لو اعتُدي على مال المسلم ونفسه وعرضه، كأن يروم شخص سرقة أمواله، أو يأخذها ويغتصبها بالقوة، أو ينوي قتله، أو تعرض عرضه وشرفه إلى الاعتداء والتجاوز، فإن المرء في مثل ذلك لا يلام عند الاعتداء على نفسه وماله وعرضه في الدفاع عنها حتى لو انتهى الأمر بفقدان حياته أو قتل من اعتدى عليه.

وكذلك الأمر لو شهد المسلم إهانة المقدسات الدينية، ورأى شخصاً يسيء لله تعالى، أو ينتهك حرمة الأنبياء والرسلعليهم السلام، ويمس هيبة الأئمة المعصومينعليهم السلام، أو القرآن الكريم، أو الكعبة المشرفة أو نحو ذلك، فإنه وبحسب فتوى العديد من الفقهاء له الحق في قتل المسيء والمنتهك، وإن كان بعض الفقهاء يحتاط في مثل هذه الموارد، ويذهب إلى عدم المبادرة إلى القتل دون الرجوع إلى المحاكم الشرعية.

وكيف كانت الصورة يمكن القول إجمالاً: يمكن للإنسان في المواطن التي لا يلزم أو لا تتوفر الفرصة للرجوع فيها إلى المحاكم الشرعية يمكنه المباشرة بالرد

على المتجاوز، ويستطيع أن يدافع عن نفسه وبنحوٍ مستقل، حتى لو انتهى به الأمر إلى مقتله، أو قتل من اعتدى عليه.

وكيف كان الأمر فانه مما لاشك فيه من أن الإسلام يرفض النظرية القائلة بعدم جواز قتل أي إنسان وتحت أي ظروف وبأي أحوال أو أوضاع، بل إن الإسلام يرى أن بعض الموارد تقتضي فيها المصالح - سواء كانت هذه المصالح فردية أم اجتماعية مادية أم معنوية - اجراء عقوبة الإعدام وتنفيذها بل قد تلزم وتكون واجبة أيضاً، أجل في ما يتعلق بإجراء هذا الأمر وتنفيذه يمكن أن يتوقف على الشكوى، وطلب من ولي الدم في المحكمة، وصدور الرأي الشرعي والقانوني فيه، وفي بعض الأحيان لا يحتاج الأمر إلى رأي المحكمة، ويكون لنفس الشخص الحق في المبادرة والإقدام على ذلك.

الأمر الذي يلزمنا الالتفات إليه هنا هو أننا لا يمكننا في كثير من الموارد أن ندرك ملاكات الأحكام الإلهية وأغراضها اعتماداً على عقولنا وعلمنا فقط، بل ربما لا يمكننا أن نزعم أننا نقف حتى في مورد حكم واحد من الأحكام الشرعية على سائر المصالح والمفاسد التي أدت إلى صدور ذلك الحكم، أو ندعي أننا ادركنا جميع الملاكات التي أدت إلى إنشائه، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

فالإنسان مع علمه البسيط ودرايته القليلة هذه قد يتوقع أن فعلاً ما تتوفر فيه مصلحة فقط ولا توجد أي مفسدة فيه، أو يظن أنها مفسدة ضئيلة جداً ومقابل المصلحة العظيمة لا ينبغي الالتفات إلى تلك المفسدة التافهة، ولذلك يعتبر أداء

---

(١) الإسراء: ٨٥.

ذلك الفعل وتطبيقه أمراً ضرورياً أو في الأقل يعده جائزاً، في حين يكون الواقع والحقيقة، أمراً آخر تماماً، ولربما يعتقد في بعض الأحيان إزاء تصرف أو فعل ما، أن فيه مفسدة فقط، ولا توجد فيه أي مصلحة، وحتى لو كانت المصلحة فهي قليلة وضعيفة جداً لا تعدو شيئاً أمام المفسدة العظمى، وحينئذٍ لا ينبغي حسبانها والعناية بها، لذلك يستنتج أن ذلك الفعل يجب أن يكون ممنوعاً ومحرماً، في حين أن مصلحة ذلك الفعل وفائدته أكثر من مفسدته، إلا أن الإنسان بسبب قلة علمه، وضيق إدراكه يغفل عن ذلك.

وفي موضوع الإعدام أيضاً توجد هناك كثير من المصالح والمفاسد تبقى بعيدة عن ملاحظة الإنسان وهو لا يدري عنها، إلا أن الله تعالى بعلمه الكامل غير المتناهي محيط بذلك تماماً، وقد تكون كثير من علل والأحكام لا نعيها ولا نهضم حقيقتها، ومثال ذلك: لماذا من يتجاوز ويسيء إلى المقدسات الدينية للمسلمين يحكم عليه بالإعدام؟! أو لماذا يجري الحد بحق من يتظاهر بالإفطار ثلاث مرات - وفي ضوء فتوى بعض العلماء مرتين - ولماذا في المرة الرابعة يحكم عليه بالإعدام، ولماذا يكون حكم المرتد الفطري الإعدام لو كان رجلاً، ولماذا يحكم على المرتد الملّي بالإعدام إذا لم يكفّر عن ذلك بالتوبة.

ويمكن أن تبلغ كثير من الحدود الشرعية مرحلة الإعدام أيضاً من قبيل حد الزنا، واللواط، أو المساحقة، وشرب الخمر، والسرقة، والمحاربة، وتكون تلك العقوبة غير مبررة وغير منطقية في ما يخصنا، ويعود هذا الأمر في الواقع إلى محدودية إدراكاتنا وقلة معلوماتنا وشحتها في طبيعة المفاسد الاجتماعية العظمى

الأمر الذي يسهم كثيراً في عدم إدراكنا وتفسيرنا لهذه الأفعال والسلوكيات.

من هنا حتى لو أجريت الحدود بحق المرتكبين لمثل هذه الأعمال نشعر بالاستياء والسخط إزاء ذلك، ولكن الله تعالى الذي يعلم حجم المفاسد والأضرار التي تنجم عن تلك الأفعال، والخسائر الاجتماعية الكبيرة التي تلحق ذلك، يقضي بأنه ومن أجل حفظ المصالح الاجتماعية العامة بضرورة تطبيق هذه الحدود وتنفيذها، إذ يجدها ضرورة، حتى لو جرح أو أعدم من ارتكبها.

ثانياً: الحرب وضرورة حفظ حياة الإنسان:

تبيّن حتى الآن أن الفرد في مجتمع ما قد يواجه عقوبة الإعدام من أجل إزالة خطره عن مصالح المجتمع، وبقتله يكون سائر أفراده في مأمن ومنأًى عن جرائمه، وفي ضوء هذا المنوال وعلى مستوى الدول والمجتمعات قد تواجه الشعوب والدول مجتمعاً ضالاً عن الطريق ومنحرفاً عن الحق والعدل غارقاً في غياهب الظلم والفساد والطغيان، ولديه الاستعداد والرغبة في التجاوز والاعتداء على سائر الشعوب والمجتمعات الأخرى، ففي مثل هذه الصورة يحكم على هذا المجتمع بالإعدام والإبادة أيضاً، ويجب هزيمته وكسر شوكته، لتشعر باقي الأمم والشعوب والبشرية بنحوٍ عام بالأمن والاطمئنان، ومع توفر هذا الأمن من التجاوز والتعدي، لن تحرم تلك الشعوب من السعادة والكمال الحقيقيّ.

من هنا إن المجتمعات الإسلامية - وما نقصده هنا ليس المجتمعات

الإسلامية بالظاهر والاسم فقط، بل ما نريده هو المجتمعات الإسلامية في الواقع والعمل - التي تقوم على أساس العدل، والحق، ونظام وطيد ينبذ الظلم والفساد مكلفة بمحاربة مثل هذا المجتمع الفاسد الظالم والمعتدي ومقاتلته، حتى يكف عن تجاوزه واعتدائه، ويعود إلى رشده ويستقيم أو يهزم عن بكرة أبيه، ويأتي مجتمع سويّ بدلاً عنه.

وعلى هذه الشاكلة يتضح أن الحرب والقتال ليست سلبيةً في الظروف كافة وليست النزاعات باطلة في جميع الأماكن والمناسبات، فإن الأمة التي تقاتل لصد المعتدي وردعه بالتأكيد ليست كالأمة التي تكون في موقف المعتدي والمتجاوز حتماً، بل هناك فرق بينهما، فإن الطرف الذي يحارب بدواعي الدجل والخداع وظلم الآخرين لا يستوي أبداً مع الطرف الآخر الذي يقاتل لغرض مكافحة الظلم ويحارب من أجل الدفاع عن حقوق المظلومين التي غصبها الطغاة والطامعون، بل إن قيمة سلوك الطرف الأول واعتباره تكون سلبية، في حين يكون عمل الفريق الثاني وأداؤه نافعاً وإيجابياً.

أجل، إن ما يستحق كل الذم، وأشد القبح، وأعنف العقوبة هو قتل النفس المحترمة أو النفس الزكية، فإن قتل النفس لا يعني قتل إنسان فقط، ولا فساداً في الأرض فحسب، يقول الله تعالى في هذا السياق: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]، وفي آية اخرى يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) المائدة: ٣٢.

﴿وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

ولكن لو قتل شخص شخصاً آخر بحق وبحكم الإسلام فإنه لا يرتكب جرماً، مثال ذلك: ورثة المقتول وأولياء الدم، لهم الحق أن يقتلوا القاتل وهذا معنى القصاص في الإسلام، أو يقوم المجتمع بالحكم على من يرتكب جرماً كبيراً متجاوزاً بذلك على حقوق الآخرين، أو كان سلوكه يمثل طعنه قوية في مصالح الناس المادية أو المعنوية، عندئذ يمكن لذلك المجتمع أن يعدم ذلك الفرد ويقصيه من الوجود، من هنا يمكن أن ندرك عدم المشكلة وانتفاء الضير في محاربة المجتمع الذي يسعى لتدمير المصالح المادية والمعنوية للبشر والمكوّن الذي يكون طبعه الفساد والكبر والاعتداء.

وهنا نفهم أن تحليل ظاهرة الحرب وتفسيرها على أساس الرؤى والأفكار المادية والثقافية في الغرب هو تحليل ناقص وغير دقيق، حسبما بيّناه في الفقرات السابقة، إذ إن قتل الإنسان وقتل النفس لا يمكن أن يكون مرفوضاً دائماً ومردوداً في كل الظروف والمناسبات، بل إن هذا الفعل يكون في بعض الموارد عين العدل والصواب، من هنا أيضاً يفتح لنا الطريق ويحلو لنا السبيل لتبرير الحرب والجهاد في سبيل الله وتوجيهها، ومن هذه النافذة يمكن أن نقرأ موضوع الحرب بوعي أكبر وحصافة عالية، ومن هنا إن تشريع الحرب في نظام الحقوق الإسلامية كي يبلغ المجتمع البشري من خلاله الكمال الذي يستحقه إنما يكون فقط عن طريق عبادة الله وحده.

---

(١) النساء: ٩٣.

ومن البديهي أيضاً أن نتائج الحرب مرّة جداً، وأن عواقبها ستكون سيئة للغاية، وهذا الأمر معلوم لدى الجميع، لكن مع قليل من الدقة والفحص يمكن أن ندرك أن بعض الحروب والصراعات حققت نتائجها وتوفرت فيها النتائج المطلوبة، وبالجملة غلبة مصالحها على مفاسدها كانت ملحوظة ومشهودة، ومثل هذه الحروب ستكون بالطبع ذات قيمة وشأن إيجابي.

ولكن إدراك ماهية الحروب والمعارك وفهمها وطبيعتها أهي من مصداق هذه الحروب الحسنة ذات القيمة الإيجابية، أم صورة من صور الحروب ذات القيمة السلبيّة، ومصداق من مصاديقها، ليس سهلاً نوعاً ما، وقد يكون إدراك هذه المسألة وتشخيصها في قسم من الحروب من خلال الإفادة من العقل البشري المحدود، ولكن في بعضه الآخر يخرج التشخيص والإدراك عن قدرة عقل الإنسان ومهارته، وسيكون إحصاء جميع المتغيرات الدخيلة وتحديد المعيار لدخولها أمراً في غاية الصعوبة، وربما يكون غير ممكن إطلاقاً.

من هنا يجب الإصغاء في هذا المجال إلى أوامر الله سبحانه؛ لماذا؟! لأنه عالم بكل شيء، وإليه ترجع الأمور، ويعلم بجميع المصالح والمفاسد التي تكمن وراء حدوث الحروب والصراعات، فإن تقرير قدرها وقيمتها ومقارنة كمّها وكيفها أمر ميسور لديه، ومقتضى هذه النتائج والمعطيات يعطي حكم جواز الحرب من حرمتها.

ثالثاً: الحروب في الشرائع التي سبقت الإسلام:

عند مطالعة القرآن الكريم يتضح أن الحرب المشروعة والقتال على الحق - الذي نسميه نحن جهاداً - كان موجوداً في جميع الأديان التوحيدية، وليس تشريعه خاصاً بالدين الإسلاميّ فقط، ونقرأ في إحدى الآيات الشريفة ما يأتي:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

إن الآيات المذكورة تدل على حقيقة أن هناك كثيراً من الأمم والأقوام المؤمنة قبل بعثة النبي محمدﷺ، وأنّ الشرائع والأديان التي سبقت الإسلام كانت تحارب بأمر أنبياء الله الكفار، والمشركين والمفسدين والطغاة وأعداء الله تعالى، فيستبسلون في القتال ويكونون غاية في الصلابة ورباطة الجأش والقوة، ويسطّرون أروع الملاحم في الشجاعة والاستقامة، ولا يظهِرون أمام العدو أي لون من ألوان الذلّة، والهوان، والخضوع أو التقهقر.

هؤلاء قد وضعوا حاجاتهم وأمنياتهم بين يدي الله الغني المالك، وعفّروا وجوههم في حضرته، وبعد الاستغفار من الذنوب وطلب العفو عن الأخطاء التي صدرت عنهم، والتوبة عن إفراطهم وتفريطهم، توكلوا على الله واستعانوا به لمواجهة الأعداء ومقاتلتهم، يرجون بذلك النصر والفوز منه تعالى، فاستجاب

---

(١) آل عمران: ١٤٦ – ١٤٨.

الله جلّ شأنه أيضاً دعاءهم وأعطاهم ما طلبوه، فنصرهم على أعدائهم، فضلاً عن ذلك قد جزاهم في الآخرة أيضاً أحسن الجزاء وكافأهم أجزل المكافأة يوم القيامة.

إن مفردة «كأيّن» التي بدأت بها هذه الآيات تفيد كثرة العدد ووفرته في اللغة العربية والأدب، من هنا نحن نفهم من خلال هذا التعبير أن الأنبياءﷺ وأتباعهم كانوا طول التاريخ يخوضون غمار المعارك والحروب، وكيف كان الأمر فإن الآية تدل بوضوح على أن الجهاد كان موجوداً في الأديان السماوية السابقة، وكان مشروعاً ومبرراً أيضاً.

ونستنتج من جميع الآيات التي تعرّضت لموضوع الجهاد والقتال في سبيل الله أن بعض تلك الحروب كانت جهاداً ابتدائياً وبعضها الآخر جهاداً دفاعياً، وفي ضوء هذه الآيات أيضاً يتبين أن القوم والأمة التي تكون مكلّفة بالجهاد تستجيب وتطيع في بعض الموارد أوامر نبيها، وفي بعضها الآخر تعصي وتتمرد على وصاياه وأوامره بالقتال والجهاد، وحتى يتضح البحث بنحوٍ أكثر نكمله بإشارة إلى بعض تلك الموارد.

١- حرب بني إسرائيل لاحتلال فلسطين:

جاء في بعض الآيات القرآنية الشريفة أن النبيَّ موسىﷺ وبحسب الأوامر التي تلقاها من الله عز وجل دعا بني إسرائيل للجهاد واستنهاضهم للحرب والقتال، لكنهم لم يطيعوه بما أمرهم.

فبعد أن أعرض فرعون عن القبول بدعوة موسى عليه السلام لعبادة الله، ونتيجة ذلك عصى وتمرد واستكبر وأفسد في الأرض، أهلكه الله وأغرقه في البحر، اتجه موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل بعد أن تخلّصوا من ربقة فرعون وظلمه وجوره، من مصر إلى الشام وفلسطين، وكان يعيش في فلسطين قوم كافرون، وهم أناس اتّصفوا بالقوة والغلظة والمهارة القتالية والحربية، فقال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: إن الله تعالى قد جعل هذه الأرض لكم، ولكن عليكم حتى تستقروا وتكونوا هذه الأرض تحت تصرفكم أن تقاتلوا، ولكن بني إسرائيل وبسبب السنين العجاف التي قضوها مع فرعون بين القتل والتعذيب والخوف والرعب، حيث تحولوا بسبب ذلك إلى أناس أذلاء جبناء قليلي الجرأة والعزم، وأيضاً بسبب الدّعة والراحة والعافية التي حصلوا عليها بعد خلاصهم منه، امتنعوا عن إطاعة أمر موسى عليه السلام، فقالوا لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا، وأخرجا هؤلاء الكفرة من هذه الأرض، ليتسنى لنا دخولها بعد ذلك، وبسبب هذا العصيان والتمرد على أوامر الله تاهوا في الأرض والصحارى أربعين سنة، والآيات الآتية هي التي تحكي تمام هذه القصة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

من هنا إن بني إسرائيل وبسبب تخلفهم عن طاعة تكاليف الله وامتناعهم عن الجهاد، تاهوا وضاعوا في الصحارى والوديان أربعين سنة من يوم خروجهم من مصر وحتى وفاة النبي موسى عليه السلام، ولكن بعد رحيله وبأمر من خليفته النبي يوشع بن نون فتحوا أرض فلسطين لتنتهي بذلك سنين الغربة والتشرد والضياع.

٢- حرب طالوت وجالوت:

تتحدث الآيات (٢٤٦) وحتى (٢٥١) من سورة البقرة عن قصة طالوت وجالوت وتتحدث عن المعركة التي دارت بينهما وهي نموذج آخر عن تشريع الجهاد وجوازه في الأديان التي سبقت الدين الإسلامي، فبعد أن فتح بنو إسرائيل بلاد فلسطين بأمر يوشع بن نون وسكنوا هناك، وهي القصة التي شرحناها تقريباً في الفقرة السابقة، مضت أكثر من ٣٥٠ عام ولم يحكمهم ملك، أو قائد يقودهم، أو يدير شؤونهم الحياتية والاجتماعية؛ بل كان القضاة هم من يتقلّد زمام كل هذه الأمور.

وخلال تلك المدة عادة ما تنشب الصراعات والحروب بينهم وبين جيرانهم

---

(١) المائدة: ٢٠ – ٢٦، فسرت (الأرض المقدسة) هنا، والأرض المحيطة بها، ومدينة أريحا؛ بل بأرض الشام من أولها إلى آخرها أرض فلسطين.

من العمالقة العرب، وأهل مدين، والفلسطينيين، والآراميين، وهذه الاشتباكات تارة تكون لصالح بني إسرائيل فينتصرون على خصومهم وأخرى يهزمون فيها.

وفي أواسط القرن الرابع دخل بنو إسرائيل حرباً ضروساً مع الفلسطينيين، وخسروا المعركة معهم بصعوبة، فضعفوا، وعجزوا، واستكانوا، وشردوا، وضاعوا، وبعد هذه الهزيمة النكراء على أيدي الفلسطينيين وشعورهم بالذلة والمهانة ذهب زعماء بني إسرائيل القضاة الذين كانوا وما زالوا يديرون شؤونهم الحياتية والاجتماعية إلى أحد الأنبياء المعاصرينﷺ، وطلبوا منه أن يكون ملكاً عليهم حتى يهتدوا بأمره وبتعاليمه إلى طريق الجهاد والقتال في سبيله، حتى يلحقوا الهزيمة بالأعداء الذين أذاقوهم الذل والهوان، وجعلوهم أمة بائسة ضعيفة لأوقات طويلة.

وفي بعض الروايات والكتب التاريخية ذُكر أن شخصاً يدعى (سموئيل، أو شموئيل، أو صموئيل) على اختلاف النسخ، كان مطلعاً بالتفصيل على الأحوال والمزايا الأخلاقية والسلوكيات العامة وعادات وتقاليد بني إسرائيل، إن هذا الرجل كان قلقاً جداً من أن هؤلاء القوم سيخذلون الأمير الذي سيكون عليهم، وكان يخشى عصيان بني إسرائيل وتمردهم لو أمرهم بالجهاد وألزمهم بالقتال، وكان يخشى عليهم من العذاب الإلهي في نهاية الأمر، من هنا أعرب عن هذا القلق وبين هذا الخوف لهم، فقال لهم: إني أخشى أن تحجموا عن القتال وتعرضوا عن القتال لو كلفتم به؟! وكان جواب بني إسرائيل دائما هو الآتي:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾[1][2].

وبعد إصرار بني اسرائيل الكبير وتكرراهم الطلب مرات عديدة نصّب نبي الله وبأمره تعالى طالوت أميراً عليهم وجعله قائدهم، ولكن أكثر بني إسرائيل ومن جملتهم أولئك الذين كانوا متحمسين أكثر من غيرهم لقتال العدو ومحاربته، وكانت بواعثهم للمشاركة في المعركة أكثر من غيرهم، وأولئك الذين كانوا كثيراً ما يلقون هتافات الحرب والجهاد بين أقرانهم، عندما أصبحت مسألة الحرب والقتال موضوعاً جدياً لا مناص منه وقد أعطيت الأوامر بالقتال، بدؤوا يتحججون ويقدمون الأعذار تلوَ الأعذار للهروب والتخاذل، فبدؤوا يتحدثون في بداية الأمر عن سلطة طالوت عليهم، وبدؤوا يشكّكون بالصلاحيات الموكلة إليه، وما هو فرقه عنهم والخصوصية التي ينماز بها عنهم حتى يكون أميراً عليهم، فقالوا من جملة ما قالوا: هو لا يملك المال والثروة ونحن أحق بالقيادة والزعامة منه: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾[3].

وفي أثناء سيرهم وقبل أن يصلوا إلى جبهة العدو تمرّد الجميع إلا قليلاً منهم عن نهيه لهم عن شرب الماء من النهر، وعندما بلغوا واقتربوا من العدو طرحوا تبريراً آخر للهروب من القتال، فقالوا: لا طاقة لنا بمجابهة عدو وجيش مثل

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) وجواب بني اسرائيل هذا يشير إلى أن الأعداء احتلوا مدنهم وأراضيهم، وأخذوا أولادهم أسارى، وأن بني إسرائيل أنفسهم يعيشون مشرّدين في الصحاري والوديان بعيداً عن ديارهم وأهلهم ونسائهم.

(٣) البقرة: ٢٤٧.

جالوت وجنوده: ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[١].

وعلى كل حال اندلعت المعركة واشتد القتال بين طالوت وجالوت ويقتل الأخير على يد النبي داوودعليه السلام وهو أحد جنود طالوت الشجعان، ومع مقتل طاغوت زمانه انفرط عقد التماسك في جبهة العدوّ، وشاعت الفوضى فيها، وتفرق جيش المردة، وانتهت الحرب بهزيمة الكفار والظلمة وانتصار بني إسرائيل وجيش عباد الله.

وبعد هذه الواقعة وحدوث بعض الوقائع المتلاحقة الأخرى تقلّد النبي داوود في النهاية الحكم، وأصبح ملكاً على بني إسرائيل، وبعد أن رحل النبي داودعليه السلام نال شرف قيادة دولة الحق والعدل خليفته وابنه النبي سليمانعليه السلام، وتميز زمانه بأن بلغت قوة دولة الحق والعدل ذروتها وكمالها.

٣- الجهاد في دولة النبي سليمانعليه السلام:

ولّما كانت دولة النبي سليمانعليه السلام قد امتازت بخصائص ومزايا فريدة، فكانت سلطنة لا نظير لها، جدير بنا هنا أن نعرض لبعض هذه الخصائص التي جاءت في القرآن الكريم.

يناجي النبي سليمانعليه السلام ربه فيرجوه وهو في حضرته، فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[٢].

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) ص: ٣٥.

وفي جواب الباري سبحانه وتعالى واستجابته لدعوى النبي سليمان ﷺ ورجائه أنه قد أعطاه ووهبه خصائص ومزايا مثيرة للإعجاب والحيرة، فنقرأ في سورة الأنبياء هذه العطايا والكرامات الرائعة من الله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾[1].

كذلك القصة الشائقة التي ذكرها القرآن الكريم في سورة النمل وفي ثلاثين آية تقريباً من الآية (١٦) وحتى الآية (٤٤) تلك القصة التي تحدثت عن النبي سليمان ﷺ، وعن تلك النعم التي وهبها الله تعالى له: وهي على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا

(١) الأنبياء: ٨١ – ٨٢.

يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وكذلك ما ذكر – في غير هذه الآيات الشريفة – من سورة سبأ من الآية ١٢

---

(١) النمل: ١٦ – ٤٤.

وإلى الآية ١٤ وهي التي تتحدث عن دولة النبي سليمانﷺ وخصوصياتها ومزاياها.

وكيفما كان الأمر فإن الآيات التي جاءت في سورة النمل والتي تقدمت معنا تحكي لنا دولة النبي سليمانﷺ وتصف لنا طبيعة الجيش والجنود البواسل الذين كانوا بإمرته ذلك الجيش المؤلف من تركيبة فريدة والمنظم في أقصى غاية من الإعجاز: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1].

وهذا الأمر طبعاً بمثابة المقدمة والتمهيد والاستعداد لخوض ذلك الجيش الحرب، وحينئذٍ يكون ذلك القتال والصراع مشروعاً وجائزاً للنبي سليمانﷺ وأتباعه وجنوده.

وتظهر أهمية هذه الآيات خاصة في بسطها وعرضها لموضوع الجهاد الابتدائي بنحوٍ صريح، وبيان جوازه بوضوحٍ أيضاً وليس بصورة إجمالية مبهمة، أجل عندما جاء الهدهد بخبر عن سبأ وكفرهم وعبادتهم للشمس، فأول عمل قام به نبي اللهﷺ هو أن بعث برسالة إلى أولئك القوم وهم في منطقة بعيدة جداً عن فلسطين، ولم يكونوا على خلاف مع النبي سليمانﷺ، فحذّرهم من الكفر وعبادة الشمس ودعاهم إلى التسليم والخضوع لنبي الله ودينه ومنهاجه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[2].

---

(١) النمل: ١٧.

(٢) النمل: ٣٠ – ٣١.

وبعد أن أرسلت بلقيس هديتها إليه بيّن لها أنه لم يخدع بتلك الهدية، وأنه لن يقع ضحية لهذه الصغائر الدنيوية فأراد أن يبعث لها جيشاً شديداً يستأصلهم عن آخرهم لا يمكنهم إطلاقاً الوقوف بوجهه أو مقاومته: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[1].

وجاء هنا توجيه التهديد بالحرب في حين أن قوم بلقيس لم يتعرّضوا لدولة سليمان(عليه السلام) وسلطانه بشيء، بل كانوا مستغرقين في حياتهم ومعيشتهم، وكان النبي سليمان(عليه السلام) أساساً لا خبر لديه عنهم، وأدرك أمرهم وقصة عبادتهم ودينهم عن طريق الهدهد، يتضح من ذلك أن هذه الحرب - على فرض أن بلقيس وقوم سبأ لم يأتوا إلى سليمان(عليه السلام) وسلطانه معلنين التسليم لله ولدينه وشريعته وفي ضوء وعد سليمان(عليه السلام) وقوله إنها ستقع حتماً - هي حرب الجهاد الابتدائي، اذاً فضلاً عن أن الجهاد الدفاعي كان جائزاً ومشروعاً في ما يخص النبي سليمان(عليه السلام) فإن الجهاد الابتدائي مشروع أيضاً، لماذا؟ لأنه لو لم يكن ذلك الأمر مشروعاً للنبي سليمان(عليه السلام) وهو نبي الله ومعصوم أيضاً لما قام بمثل هذا التهديد والوعيد.

إن أهل سبأ لم يهاجموا أو يعتدوا على حدود دولة سليمان(عليه السلام) فحسب - إذ تشير القرائن إلى أنهم لم يكونوا يفكرون بالحرب أبداً مع النبي سليمان(عليه السلام) - بل إنهم بعد أن تسلّموا الرسالة من رسول سليمان(عليه السلام) ورغم لهجة التهديد التي تعلوها مع ذلك أظهروا المرونة، وأبدوا إشارات هامة من أجل الصلح والتوافق والدعوى إلى التعايش السلمي عندما أرسلوا بهدية نفيسة إلى جناب النبي

---

(١) النمل: ٣٧.

سليمان عليه السلام.

أجل، إن هؤلاء حتى بعد الوعد والوعيد الذي صدر من سليمان بالحرب العسيرة كانوا مستعدين جداً للحيلولة دون اشتعال نار الحرب وتقديم إغراءات أكثر بعد أن قدموا تلك الهدية، حتى يتجنبوا سطوة النبي سليمان عليه السلام، لكن هدف نبي الله وغرضه هو أن ينتشلهم من واقع الكفر ويقتلعهم من عبادة الشمس أو غيرها من المخلوقات، ويدخلهم في عبادة الله الواحد الأحد ويحييهم حياة التوحيد، وهذا الأمر يدل على أن الشرائع السابقة للإسلام بالإضافة إلى تشريعها الجهاد الدفاعي، فهي تسيغ وتجيز الجهاد الابتدائي، كما استفدنا ذلك من الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة بني إسرائيل وفتحهم الأرض المقدسة.

٤- حرب الفرس والروم:

في ما تقدم تعرضنا لموارد الحروب التي وقعت قبل الإسلام وقد أشرنا إلى ثلاثة حروب تتعلق بالجهاد المنقذ والمنجي للأنبياء عليهم السلام، ولكن القرآن الكريم يشير أيضاً إلى نوع آخر من الحروب لا يرتبط بالحروب والمعارك المخلصة على أيدي الأنبياء عليهم السلام، ومن هذه الحروب هي الحرب العظيمة التي اشتعلت بين الفرس والروم، حيث كانا قطبي القوّة في ذلك العصر، وهذه القصة ذكرت في الآية الأولى وحتى الآية السادسة من سورة الروم، وهي كما يأتي: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة تتحدث عن هزيمة الروم من الفرس في أقرب منطقة وأقرب أرض إلى بلاد الحجاز وهي أرض بلاد فارس، وفي الوقت نفسه ينبئ القرآن الكريم عن نصر مرتقب سيتحقق للرومان على الفرس بسرعة على مدى بضع سنين مقبلة، وبذلك النصر سيفرح المؤمنون.

وعبر هذه الآيات يخبر الله تعالى بأمرين غيبيين:

الأول: انتصار الروم على الفرس في حرب أخرى ستقع في مدة قياسية عبرت عنها الآيات الكريمة ببضع سنين، وهذا في الواقع إخبار عن الغيب وتنبؤٌ ذكره الباري تعالى قبل وقوع هذه الواقعة وأطلع المسلمين بها، وفي ضوء المعطيات التاريخية ففي أقل من عشر سنين من زمن نزول هذه الآية اندلعت الحرب بين الروم والفرس، وفيها انتصرت الروم على الفرس.

الآخر: التنبؤ والخبر الغيبي الذي يتحدث فيه عن فرح المؤمنين وسرورهم عندما ينتصر الروم على الفرس: «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ»، وفي ما يرتبط بهذا الموضوع يطرح السؤال الآتي: لماذا يفرح المؤمنون في ذلك اليوم وهو يوم انتصار الروم على الفرس؟ ذكر المفسرون في معرض الإجابة عن هذا السؤال أمرين:

الأول: ولمّا كان الروم مسيحيين موحدين من أهل الكتاب، وكان الفرس مشركين بالله، فقد فرح وسعد المسلمون بنصر عباد الله وانتصار التوحيد على

---

(١) الروم: ١ - ٦.

أهل الشرك.

الآخر: وبحسب ما جاء في بعض الروايات والنصوص التاريخية أن حرب بدر تزامن وقوعها في ذلك المقطع التاريخي الذي اندلعت فيه حرب الفرس مع الروم والتي انتصرت فيه الأخيرة، وكذلك ما نعلمه من ضعف المسلمين وعجزهم الظاهري وعدم توفر العديد من مستلزمات القتال الضرورية في حربهم مع قريش الذي يفوق جيش المسلمين من حيث العدّة والعدد، والإمكانات المالية والعسكرية، وفي ضوء هذه الصورة كان من البعيد جداً أن ينتصر المسلمون على المشركين، ففي ضوء المعطيات العسكرية والحربية هو أمر لا يصدق، وهذا الأمر هو الذي دعا إلى فرح المؤمنين بشدة، وارتفعت معنوياتهم أكثر عندما كسرت شوكة العدو بعد هذه الهزيمة النكراء التي تلقاها على أيدي المسلمين.

وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن جملة «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» في الآيات المتقدمة هو نوع من الإخبار الغيبي بشّر الله بها عباده المؤمنين عندما أخبرهم عن موضوع النصر القادم.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً أو قصصياً حتى يفترض به أن يقصّ مئات بل آلاف الحروب والمعارك التي اندلعت على مرّ التاريخ، ولكنه إنما ذكر قصص هذه الحروب الأربعة ووقائعها؛ لما لها من العبرة والموعظة، وهي جملة من الأهداف التربوية والإنسانية المؤثرة في حياة المؤمنين والمسلمين.

رابعاً: الجهاد في الإسلام:

حان الوقت لبيان طبيعة الحدود الشرعية للجهاد في الدين الإسلامي الحنيف، وهنا سنبدأ بعرض ذلك:

إن المسلمين عندما كانوا يعيشون في مدينة مكة لم يتمكنوا من تأسيس مجتمع إسلامي مستقل، ولم يقدروا على تشكيل خليط اجتماعي متكامل، إذ كان عددهم قليلاً، ولم تكن قدرتهم الاقتصادية والاجتماعية بتلك القوة والتماسك أيضاً، وبنحوٍ عام كان المسلمون يُعدّون أقلية بين المشركين الذين هم كثرة، وكانوا معذبين بأنواع العذاب الجسمي والروحي من قبل المشركين، وكانوا عاجزين عن الدفاع بسبب قلة إمكاناتهم الدفاعية وشحتها.

وعليه، إن أول شيء فعله نبي الإسلام محمد ﷺ بأمر الله تعالى، هو أن أرسل فريقاً من المسلمين برئاسة جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة، وبعد أن قضى هو ومن معه بعض السنين في مكة هاجر النبي ومعه كثير من المسلمين إلى يثرب التي سميت في ما بعد بمدينة النبي، وحتى ذلك التاريخ وقبل هجرة النبي ﷺ ومن معه إلى المدينة لم يكن المسلمون مكلّفين بمقاتلة الأعداء ومحاربتهم.

وكان المسلمون الغيارى المتحمسون قبل نزول قانون الجهاد والتكليف للقتال يطلبون من الرسول الأكرم محمد ﷺ أن يأذن لهم في مقاتلة المشركين والكفار في مكة وفي غيرها.

إن طبيعة الحياة التي قضاها المسلمون بين المشركين وبهذا النحو من التعسف

والقسوة الذي كان يصدر من كبراء مكة أصبحوا مقيدين في تحركهم الأمر الذي كان سبباً في تشريدهم وتعذيبهم بصنوف العذاب، وقد زعزعت تلك الأمور في نفوسهم روح القتال ومنعتهم عن محاربة المشركين، وكسر شوكتهم، وإلحاق الهزيمة بقوتهم، وحالت تلك الظروف من أن يتمكن بعض المسلمين من تخليص إخوانهم الذين كانوا تحت قبضة المشركين؛ إذ كانوا يرزحون تحت التعذيب الجسميّ والنفسيّ.

ولكن في ذلك الوقت اقتضت مصالح الإسلام والمسلمين عدم خوض الحرب والدخول فيها، لأن عددهم كان قليلاً، ومن اللحاظ الاقتصادي هم فقراء جداً، إذ صادر المشركون أموالهم وأخذوها منهم بالقوة، وكانت قدارتهم العسكرية تكاد تكون معدومة، ولم يتوفر القدر الكافي من الأسلحة وعدد الجنود الذين يمكن الاعتماد عليهم في الحرب، لذلك لم يأذن النبي ﷺ لهم بالقتال في تلك الحقبة.

إن إعطاء الإذن بالقتال في مثل هذه الأوضاع والظروف غير المهيأة، والأجواء والشرائط الصعبة التي كان يمر بها المسلمون سيكون في الواقع بمنزلة جواز قتل النفس، لذلك وحتى مع الإصرار والطلب الحثيث الذي كان يلحّ فيه بعض المسلمين لم يقابل بالموافقة والرضى من قبل النبي لقتال الأعداء، ذلك؛ لأن الاستعداد اللازم للحرب مازال مفقوداً، لذلك عكف المسلمون في تلك الحقبة على صناعة عمقهم ومحيطهم وإعادة تنظيم بيتهم الداخلي، ولملمت شتاتهم، الأمر الذي أتاح لهم البدء بمقدمات تأسيس مجتمع مسلم حي ومتماسك، حتى

يمكنهم بعد ذلك - مع توفير الأسلحة والمعدات لتعبئة القوى اللازمة والقدرات المطلوبة - يبدؤون بالتخطيط الجاد للعمليات العسكرية، وإعادة الحقوق والممتلكات التي اغتصبها العدوّ منهم.

ولكن وفي ضوء الآيات القرآنية التي أعطت النبي ﷺ الإذن بالقتال، وبعد صدور الأوامر الصريحة من النبي ببدء الحرب على المشركين نجد أن الفريق الذي كان متحمساً أكثر من غيره لخوض المعركة ضد الكفرة، وكانوا يصرون على النبي بالبدء بالحرب، نجدهم يتخلفون عن الأمر بالجهاد ويمتنعون عن الدخول في الحرب، هذا ما أخبر عنه الله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1].

إن جملة «كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ» في هذه الآية التي أمرت المسلمين بالكف عن القتال والحرب، وأوصتهم أن يكونوا منشغلين ببناء ذواتهم، تدل على أن الجهاد والقتال ليس إيجابياً ومفيداً في كل الأحوال والظروف التي يمر بها المسلمون، بل إن قيمته وفائدته القصوى ترتبط بشروط ومصالح مختلفة تتعلق بحياتهم وشؤونهم الاجتماعية، وهي تتغير وتتفاوت بحسب الأوضاع التي يمرون بها، فإن الظروف

---

(١) النساء: ٧٧ – ٧٨.

الحياتية الخاصة التي كانوا يعيشونها بمكة والحالات والأوضاع التي عاشوها إبان دخولهم إلى المدينة كانت شؤوناً وأحوالاً قاهرة وحاكمة عليهم، ولم تقتض المصلحة أن يكلف المسلمون بالجهاد، فإنه وبحسب الظروف الحياتية الخاصة لم تكن تتوفر لديهم العدّة والعدد الكافي وحينئذٍ ستنتهي الحرب بهزيمتهم وخسارتهم بسرعة، وفي النهاية سيتلاشى المجتمع الإسلامي ويُستأصل الإسلام من جذوره، لذا لم يأتِ الإذن بالقتال حتى جاء الوقت المناسب فتوفر الاستعداد - سواء زاد أم نقص - الضروري عندئذٍ أمر الله المسلمين بالجهاد.

وكما أشرنا سابقاً إلى أن الموضوع الغريب في الأمر والملحوظة اللافتة هي أن فريقاً من الذين كانوا مصرّين على محاربة العدو ومواجهته وكانوا كثيراً ما يطلبون من النبي ذلك، نجدهم في الوقت الذي صدر الحكم بالجهاد اعترضوا على قتال العدو ومحاربته بحجة أن الوقت مازال مبكراً على مواجهة العدو، فقالو هلا تأخر إلى أجل آخر، فطلبوا من الله تعالى أن يؤجّل موعد هذا الحكم، وفي ردّه على هؤلاء أن حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بأنهم فريق يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، لذلك فهم غير مستعدين للقتال، وليسوا جاهزين للمسارعة بمواجهة العدو ومحاربته، مضافاً إلى أنهم في نفس الوقت لا يكترثون بمخالفة أوامر الله وتعاليمه، بعكس المؤمن الحقيقي الذي يعتقد بأن الله عالم حكيم عادل، فهو يسلم له سبحانه بنحوٍ مطلق، ففي الوقت الذي يعلم أن الله ينهى عن الجهاد تراه لا يصر ولا يسرع إليه، ولكن عندما يصدر الحكم بالجهاد والقتال في سبيل الله فلن يماطل ولا يسوّف في تطبيقه للأمر الالهي أبداً.

خامساً: تشريع الجهاد:

هكذا وفي النهاية وبعد مضي وقت الإعداد النفسي والروحي وانقضاء دورة البناء الذاتي لدى المسلمين نزلت الآيات (٣٨) إلى (٤١) من سورة الحج على النبي محمد ﷺ تأذن له وللمسلمين بالقتال، وتسمح لهم أن يضربوا الأعداء بكل شدة وغلظة، لتكون هي البداية لجهادهم بوجه كفار قريش ومشركيهم؛ إذ أشارت الآيات الآتية لذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[1].

ففي هذه الآيات الشريفة إذنٌ للمسلمين الذين كانوا قد ظُلِموا، والذين ضاعت حقوقهم واغتصبت من قبل الآخرين، ورخصةٌ في المحاربة، وجوازٌ لهم في الدفاع عن أنفسهم، ومما لاشك فيه أن لسان هذه الآيات ولحن الرخصة التي أعطيت للمسلمين بالقتال جاءت بعد الظلم والجور الذي وقع عليهم من المشركين وتعديهم على حرمات المسلمين وأموالهم، وتشريدهم من بيوتهم، وسلب الأمن والسكينة عنهم، وعليه إن سياق هذه الآيات هو الدفاع؛ بل إن لحنها على الأكثر هو القصاص، ولم تتعرض إلى الجهاد الابتدائي إطلاقاً.

---

(١) الحج: ٣٨ – ٤١.

سادساً:الاختلاف بين الدفاع والقصاص:

سنشير في ما يأتي إلى التفاوت والاختلاف بين الدفاع والقصاص، وهو موضوع لا يخلو من الفائدة أيضاً، وفي معرض بيان هذا التفاوت نقول: لو قتل شخص شخصاً آخر، كان قد عزم على قتله، أو التعدي على ماله، أو ماء وجهه وعرضه، أو تجاوز وأساء إلى مقدساته الدينية والطائفية، وأراد بقتله هذا أن يمنعه عن ذلك، ويقطع عليه كل السبل للوصول إلى مثل ذلك الفعل.

مثل هذه الفعل يقال له دفاع، من هنا إن الدفاع يعني الحيلولة دون تجاوز المتجاوز.

وأما لو استطاع الشخص المتعدي والمسيء الوصول إلى مبتغاه، وتحقّق تجاوزه على الآخر، جاز في مثل هذه الموارد للشخص الذي ضاع حقه ووقع عليه الحيف، أن يقابله بالمثل ويصنع به كما صنع به، ويصطلح على مثل هذا الفعل بـ(القصاص).

وما ذكرناه حتى الآن كان بخصوص المقابلة بين الأشخاص، إلا أنه يصدق بحق الدول أيضاً، افرضوا أن الدولة (أ) اغتصبت من الدولة (ب) مساحة من الأرض، ولم تتمكن الأخيرة لأي سبب من الأسباب أن تنتزع هذه المساحة المغصوبة من الأولى، ولكن يمكن للدولة (ب) أن تأخذ وتسيطر على بعض المساحة من أرض (أ)، ففي مثل هذه الصورة أجاز الشارع المقدس للدولة (ب) أن تتصرف في تلك الأرض عوضاً عن الأرض التي اغتصبتها الدولة (أ) وهذا

الفعل يعد قصاصاً ومقابلة بالمثل.

سابعاً: حدود القصاص ومدياته في الحرب:

إن دائرة القصاص وحدوده في الحرب واسعة جداً، فقد تتسع مديات القصاص إلى نقض اتفاقيات الحرب الدولية وأحكامها، أو الاعتراف بها في الأقل من قبل الطرفين المتحاربين في أثناء القتال، فكل ما يحصل بينهما من تجاوز بالمثل يكون داخلاً في دائرة القصاص، وعليه فلو خرق أحد الطرفين واحداً من مقررات الحرب وضوابطها وتجاوز عليه، كان للطرف الآخر أيضاً أن لا يراعي في حق خصمه ذلك الضابط ويحق له أن يخرقه، ويعود أصل تشريع هذا الحكم إلى المرحلة الأولى من ظهور الإسلام، وبيان ذلك:

في الزمن الأول لظهور الدين الإسلامي الحنيف، كانت هناك مجموعة من التقاليد والأعراف الحربية بين الأقوام والقبائل العربية سائدة بين جميع القبائل فكانت محل احترام الجميع، وعندما جاء الإسلام أمضى جزءاً منها أيضاً، ومن تلك التقاليد هي ضرورة إيقاف القتال، وعدم جوازه في الأشهر الحرم، والآخر هو حرمة القتال في أطراف المجسد الحرام وداخله، من هنا كان المسلمون يرون أنهم ملزمون بهذه الضوابط والقوانين التي سنّها العرب قبل الإسلام، عندما أوجب الدين الإسلامي عليهم تطبيقها من ناحية تداولها العام ومقبوليتها العرفية، ولكن الكفار والمشركين من جهة أخرى كانوا يخرقون في بعض الأحيان تلك القواعد العرفية، ويستصغرون تلك المقررات الحربيّة، مستغلين في ذلك عهود المسلمين والتزاماتهم أمام العرب فيهجمون على المسلمين في الأشهر

الحرم، أو يقاتلونهم في المسجد الحرام، أو في أطرافه، إذ تكون أيدي المسلمين في ذلك الوقت مغلولة، وهناك يكونون عاجزين عن الدفاع، ولو دافعوا سقطوا في عيون العرب لأنهم بذلك ينقضون الاتفاق.

هذه الشيطنة والخداع الذي مارسه المشركون سبّب قلقاً لدى المسلمين، وراحوا يفكرون في تكليفهم، ويتساءلون عن واجبهم لو استمر العدو على هذا النهج في القتال، وصارت مهاجمته لهم في الأشهر الحرم؟! فكان الله تعالى يعلم بهذا الهاجس الذي يعيشه المسلمون، فأذن لهم في مثل هذه الموارد وهذه الأوقات بالقتال إذا هاجمهم العدو، وأن يقابلوهم بالمثل، وهو معنى القصاص؛ إذ يكون المسلمون غير ملزمين بالقوانين والقواعد المذكورة إزاء الكفار والمشركين، وفي هذا السياق يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وفي آية أخرى يقول سبحانه في هذا المضمار: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

والنتيجة: إن للقصاص مفهوماً أوسع من تطبيقاته في المجالات المتعلقة بالحقوق والقوانين المحلية، وهو نافذ ذو مصداقية في العلاقات الدولية، وجارٍ في الحرب، والصلح، والاتفاقيات الدولية، والمواثيق العالميّة.

---

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢)البقرة: ١٩١.

الفصل الرابع

أقسام الحرب في القرآن

أولاً: القرآن والحروب التي اندلعت في أول الدعوة الإسلاميّة:

علمنا أن أصل الحرب والقتال على العموم أمر جائز في الشرع المقدس للدين الإسلاميّ، وهناك العديد من القوانين والقواعد الخاصة بالحرب كان الإسلام قد قررها وأمضاها أيضاً، ففي زمان النبي ﷺ تواصلت الحروب والمعارك في أكثر من مناسبة بين المسلمين وأعدائهم المشركين، وقد تعرّض المؤرخون إلى أكثر من ثمانين حرباً - صغيرة وكبيرة - كانت قد وقعت في تلك الفترة الزمنية من حياته ﷺ، وقد نزلت كثير من الآيات الشريفة من القرآن الكريم تتعرض إلى هذه الحروب وتفاصيلها، وفي هذا الفصل عقدنا العزم على تناول هذه الآيات وبحث شأن نزولها.

ومن بين الحروب العديدة التي خاضها النبي محمد ﷺ في حياته مع المسلمين وكان القرآن الكريم قد تعرّض لها، هي ثلاث حروب: بدر والأحزاب وحنين، وقد ذُكِرت حرب بدر في سورة آل عمران إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

ووردت حرب الأحزاب في سورة الأحزاب حينما قال جلّ اسمه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[2]، وجاء ذكر معركة حنين في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) الأحزاب: ٢٢.

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾[1].

ولكن بغضّ النظر عن ذكر أسماء الحروب ووقائعها في الآيات والسور القرآنية الكثيرة التي تعرضت لذلك إجمالاً وتفصيلاً، مثل البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والأحزاب، والفتح، والحشر، والصف، والعاديات، فإن ما لا نقصده هنا هو البحث في العمق التاريخي للحروب ونفس الفترة الزمنية التي وقعت فيها المعارك في بداية الدعوة، إن ما نرمي إليه هنا فعلاً، وهو الذي يحظى بالأهمية في ما يخصنا هو البحث في هذه المسألة وهي أن الحرب التي حدثت في تلك الفترة هل كانت حروباً ومعارك دفاعية؟ أو أن بعضها كان جهاداً ابتدائياً ولم يكن فيها جانب دفاعي؟ وعلى العموم أ في الإسلام جهاد دفاعي فقط أم هناك جهاد ابتدائي قد شُرع في الإسلام أيضاً؟ وهنا يطرح سؤال آخر أيضاً وهو: أساساً كم نوعاً من الجهاد اعتبره وعدّه القرآن الكريم جائزاً؟

ثانياً: التصنيف القرآني للحروب:

لقد قسّم القرآن الكريم بنحو عامٍ الحروب بأصنافها وأنواعها سواء التي وقعت في العصور والفترات الماضية من التاريخ البشري أم الحروب التي ستقع في المستقبل بلحاظ قيمتها واعتبارها على قسمين أساسين هما:

١- حروب الحق العادلة، وهي التي أطلق عليها القرآن الكريم عنوان: الجهاد في سبيل الله أو القتال في سبيل الله.

---

(١)التوبة: ٢٥.

٢ - حروب الباطل الظالمة، وهي التي أطلق عليها القرآن الكريم عنوان: القتال في سبيل الطاغوت.

مثال ذلك هذه الآية التي ذكرت القسمين كليهما من الحرب، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

إن حرب الحق المقدسة هي تلك الحرب التي تقوم على أساس القتال في سبيل الله، والحرب الباطلة المدانة هي تلك الحرب التي تقوم على أساس القتال في سبيل الشيطان. وكما ذكرنا في موضعه: إن أمام الإنسان في الواقع طريقين لا ثالث لهما: أحدهما: عبادة الله سبحانه وطاعته، والآخر: عبادة الشيطان وأتباعه، وفي كل عمل يقوم به الإنسان إذا لم يكن من أجل عبادة الله تعالى وطاعته ولم يكن في سبيل الكمال الحقيقيّ الذي هو القربُ والدنوّ من الحق جل شأنه، فسيكون دون شك عملاً شيطانياً.

ومن الواضح أن هذه الآية لا تدلنا على خصوصيات الحرب ومزاياها ولا تكشف لنا عن طبيعة العدو وهويته لتكون حرباً في سبيل الله، وما هي الأمور التي تتصف بها الحرب الشيطانية والقتال في سبيل الطاغوت، ولكن عند مطالعة الآيات والروايات الأخرى ستتضح وتتجلى هذه المسألة تماماً، إذ وبعد مراجعة جميع أدلة الجهاد في سبيل الله، نجد أنه قتال في مسيرة الكمال الإنساني والبشري، وهي حرب تجعل الإنسان والمجتمع قريباً من الله تعالى، وهذا الكلام وإن كان

---

(١) النساء: ٧٦.

معلوماً وجلياً من جهة المفهوم، ولكنه غير معلوم من ناحية المصداق، فهناك بعض الأمور مازالت غامضة من قبيل: ما هي الحرب؟ وضد أي من الأشخاص والمجموعات؟ وفي أي أوضاع وظروف يمكن أن تكون مصدراً لكمال الفرد والمجتمع؟

وفي الجواب على هذه التساؤلات ذهب بعضهم إلى أن الحرب التي تكون مصداقاً للجهاد في سبيل الله هي الحرب التي تكون في مواجهة فريق ومجموعة خاصة كالمشركين مثلاً، وليس كل المشركين عموماً، بل الحرب ضد مشركي مكة، وسائر الحروب والمعارك لا تكون مصداقاً لذلك، وظن بعضهم الآخر أن هذه الحرب هي جهاد دفاعي خاص بزمان وظرف معينين وهو عندما يغير ويهجم الأعداء - أعم من المشركين وغيرهم - على المسلمين، وفي غير موطن الدفاع لا يجوز للمسلمين القتال، ولكن عند قراءة الآيات المتعلقة بالجهاد ودراستها يتضح أن الجهاد في سبيل الله لا يختص بالحرب ضد طائفة معينة، ولا ينحصر بالجهاد الدفاعي أيضاً، وسنبين هاتين النقطتين، ولكن تجدر الإشارة - قبل التعرض إلى بيانهما- إلى ضرورة التأمل في مفهوم (في سبيل الله) نفسه.

ثالثاً: المقصود من اصطلاح «في سبيل الله»:

تتضمن جملة «في سبيل الله» - وهو اصطلاح خاص بالثقافة الإسلامية - معنًى ظريفاً جداً، وعلى الرغم من شهرة هذا الاصطلاح، وكثرة استعماله بين المسلمين، ووفرة استخدامه في المصادر الإسلامية والنصوص الدينية كالقرآن

الكريم، وأحاديث المعصومينعليهم السلام، ولكن لم يلتفت الى معناه ويدرك المقصود منه، وهنا يمكن أن نقول - لتوضيح المراد منه بنحوٍ أوسع - ما يأتي:

إن كل فعل يقوم به الإنسان هو مصداق للحركة، وكل حركة لابد من أن تكون لجهة معينة، وهدفاً وغرضاً محدداً، سواء كان ذلك الفعل خارجياً ظاهراً أم كما يعبرون عنه فعلاً جوارحياً، الذي يقوم به المرء عن طريق أعضاء البدن، أم سلوكاً وفعلاً جوانحياً باطنياً، وهو الفعل الذي يتعلق بروح الإنسان وعقله وفكره، ومن هنا يكون ذلك الفعل مستوراً ومخفياً عن لحظ الآخرين ورؤيتهم، مثل ما يدور في عقل الإنسان وروحه من خيال وأفكار.

وهذه الجهة التي تسير إليها الحركة لو كانت على نحو تنتهي إلى كمال الإنسان وسموه، فسيكون ذلك - طبعاً - هو الطريق المستقيم، وهو طريق الخير والصلاح وسعادة الإنسان، وسيؤدي إلى الحق والحقيقة، وأما لو كانت جهة الحركة تمضي بالإنسان بعيداً عن كماله الحقيقي، وتقذفه بمنأًى عن سمو ذاته، فمن الطبيعي أن يكون الإنسان وهو في هذه الحالة في طريق الشر والفساد، ويسلك سبيل الشقاء والباطل.

من جهة أخرى وانطلاقاً من رؤية الإسلام، فإن الكمال الحقيقي لأي إنسان، لا يكون إلا في القرب الكبير من حضرة الله تبارك وتعالى، وأدنى من ساحته المقدسة، وما يعدّه الإسلام من حركات وأفعال صحيحة هي تلك السلوكيات والأفعال التي تتوفر فيها جهة الصلاح والخير للإنسان، وهي التي تكون مصداقاً للحق والعدل، وهي الحركات التي تقع وتحصل كلما صار الإنسان أكثر قرباً

ودنواً من الكبير المتعال، مقابل ذلك إن كل سلوك أو حركة تبعد الإنسان عن الله وتنأى به عن رحمته يعدها الإسلام باطلة وفاسدة، وبتعبير آخر: إن الحركات والأفعال التي يعدها الإسلام حقاً، ويعتبرها عدلاً هي تلك الأفعال التي تكون ضمن المسير والسلوك إلى الله سبحانه وتعالى، وكل حركة وفعل آخر غير داخلٍ في هذا الخط والاتجاه سيكون بحسب القواعد والأصول الإسلامية باطلاً وغير صحيح.

وعليه فلو أردنا الإجابة عن السؤال الآتي وهو: لماذا يطلق الإسلام على الأفعال الإيجابية الحسنة والنشاطات الصحيحة والحقة التي يقوم بها الإنسان عبارة: «في سبيل الله»؟ علينا أن نقول إنما يكون ذلك لأن الإنسان عندما يقوم بأداء هذه السلوكيات والأفعال يكون قريباً من الله تعالى، وستكون نهايته إليه سبحانه.

وقد استعملت جملة «في سبيل الله» في القرآن الكريم في موارد متعددة، سنشير في ما يأتي إلى بعضها:

منها ما جاء في بعض الآيات الكريمة من وصف تحمل الإنسان العذاب من الأعداء وصبره على أذاهم، وعدت ذلك الأمر موجباً لخيره وسعادته، من قبيل هذه الآية: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[1].

---

(١) التوبة: ١٢٠

ووصفت بعض الآيات الأخرى بعض الأفعال بعنوان «في سبيل الله» أيضاً من قبيل الهجرة، والجهاد، والتضحية بالنفس، والشهادة في محاربة الأعداء ومقارعتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ﴾[3].

واستعملت بعض الآيات القرآنية الأخرى عنوان: «في سبيل الله» قيداً للإنفاق وبذل الأموال في سبيل الخير، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾[4].

وفي بعض الآيات جاء وصف «في سبيل الله» للعوز المالي والإملاق أيضاً، كما في الآية الكريمة: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾[5].

---

(١)البقرة: ٢١٨.

(٢)البقرة: ١٩٠.

(٣) البقرة: ١٥٤.

(٤) البقرة: ٢٦١.

(٥) البقرة: ٢٧٣.

رابعاً: مفردة «لله» في القرآن الكريم:

من المناسب جداً بعد أن تعرّفنا معنى العبارة الإسلامية والقرآنية «في سبيل الله»، ووقفنا عند مفهومها والمراد منه، أن نشير إلى عبارة إسلامية وقرآنية أخرى شبيهة بها وهي عبارة «لله» ونتعرف الفرق بينهما.

كما قلنا في البحوث المتعلقة بفلسفة الأخلاق أننا نعتقد أن الأفعال الاختيارية للإنسان، عندما يكون لها قيمة واعتبار إيجابي ومفيد فإنها تتصف بأمرين:

الأول: أن يكون الفعل حسناً، أي أن يكون ذلك الفعل بنفسه حسناً جميلاً بغض النظر عن طبيعة قصد فاعله، والدواعي التي دفعته للقيام به، ويعبر عن هذا الأمر أيضاً بـ(الحسن الفعلي).

الآخر: أن يكون الباعث والداعي للفعل صحيحاً أيضاً، بمعنى أن قصد الفاعل وهدفه لابد من أن يكون نزيهاً وحسناً، وهو ما يعبر عنه بـ(الحسن الفاعلي)، وتظهر أهمية هذا الأمر خاصة في الأفعال التي يطلق عليها الفقهاء بـ(العبادة).

وعليه إن الفعل الأخلاقي حتى يتصف بالحسن والجمال وحتى تكون له قيمة مفيدة وبعدٌ إيجابيٌّ يجب أن يكون بنفسه مجرداً عن غيره حسناً وجميلاً، ولابد أيضاً أن يكون قصد الفاعل وغرضه بعيدًا عن التظاهر والأنانية وخداع الناس وطلب الجاه والسمعة.

وعند بيان هذه المقدمة نقول الآن: إن تعبير «في سبيل الله» ناظر في الواقع إلى

(الحسن الفعلي) والسلوك المفيد والنافع ذاتاً، وأما تعبير «لله»، أو «قربة إلى الله» فهو ناظر إلى (الحسن الفاعلي)، ويدل على أن المرء عندما يهمّ بالقيام بعمل نافع ومفيد يجب أن تكون دوافعه صحيحة ونزيهة أيضاً.

تجدر الإشارة إلى أن الأهم من بين هذين التعبيرين هو (الحسن الفاعلي)، فإن صحّة الباعث والدافع للفعل أو قبحه يمكن أن يجعله في أعلى القيم السامية والاعتبارات الإيجابية، وبالعكس يمكن أن يهبط به إلى أحقر منزلة سلبية وأحقر درجة رخيصة.

خامساً: الأقسام الثمانية للجهاد في القرآن:

في مطلع بحثنا في هذا الفصل ذكرنا ما نعتقد به وهو أن (الجهاد في سبيل الله) لا يختص بمحاربة طائفة معينة، ولا ينحصر في القتال والجهاد الدفاعي فحسب، ولبيان رؤيتنا هذه ينبغي عرض الأقسام المختلقة للحرب الإسلامية في القرآن الكريم، وتعدد أنواع القتال المبرر في الإسلام.

١- الحرب تجاه المشركين:

يقول الله تعالى في إحدى الآيات القرآنية الكريمة لبيان هذا النوع من القتال مخاطباً المسلمين: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

---

(١) التوبة: ٣٦.

٢- الحرب تجاه الكفار:

وهذا النوع من القتال ذكر في آيات عديدة من القرآن الكريم ومن جملتها ما يقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[2].

وجاء في آية أخرى أيضاً: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[3].

وفي ما يتعلق بمفردة «كفّار» التي وردت في هذه الآيات والتي جاء الأمر فيها بقتالهم، فينبغي الالتفات إلى أن «الكافر» أعم من المشرك، ويطلق على غير المسلم سواء كان مشركاً أم غير مشرك.

٣- الحرب تجاه أهل الكتاب:

وقد جاءت آيات عديدة أيضاً تعرّضت إلى قتال أهل الكتاب ومن جملتها ما جاء في الآية الآتية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[4].

---

(١) التوبة: ١٢٣.

(٢)الفرقان: ٥٢.

(٣) محمد: ٤.

(٤) التوبة: ٢٩.

في ما يتعلق بهذه الآية الشريفة هناك نقاشات وبحوث مختلفة، من جملتها هذا الأسئلة وهي: هل الآية تشير إلى فريقين أم هل تشير إلى فريق واحد؟ وأإنّ الله يحفز المسلمين ويرغبهم في قتال الفريقين معاً بخصوصيتين منفصلتين أم يريد منهم محاربة فريق واحد أو قتال فريق واحد له هذه الخصوصيات المتباينة؟ فهل المسلمون مكلّفون بقتال أولئك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يكفّون أنفسهم عمّا حرّم الله تعالى ونبيه الكريم، و قتال فريق من أهل الكتاب الذين لا يتّبعون دين الحق أيضاً؟ أو واجبهم فقط هو محاربة فريق من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يكفّون أنفسهم عن المحرمات الشرعيّة والإلهية ولا يتبعون دين الحق؟ وجواب هذه الأسئلة سيتعلق بطبيعة تفسيرنا لجملِ الآية الكريمة ومقاطعها.

إن أحد الآراء هو أن جملة: «الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ»، الموجودة في هذه الآية تشير إلى مجموعة واحدة، وجملة «وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ» ناظرة إلى فريق آخر ومجموعة أخرى، والرأي الآخر هو أن هذه الآية من أولها إلى آخرها ورغم اختلاف جملها وتباين مقاطعها تشير إلى مجموعة واحدة فقط.

فتبين أننا لو أخذنا بالرأي الأول تكون الآية ناظرة إلى الكفار، وإلى المشركين، وإلى فريق أهل الكتاب أيضاً، ولكن لو أخذنا بالرأي الثاني فإن الآية ستكون ناظرة إلى فريق من أهل الكتاب فقط.

وكيفما كان معنى الآية فإن الموافقة على أي من الرأيين المتقدمين لا يشكّل

خطأً في الأمر الذي سنستفيده من الآية الكريمة، وفي ضوء كل واحد من النظرين المذكورين، فإن القدر المتفق عليه من معنى هذه الآية هو أن الحرب تجاه أهل الكتاب أمر مشروع، وهذا الحكم نافذ ما داموا لم يستسلموا لدولة الحق والعدل، أجل، في الوقت الذي يدينون بدين الحق أو يدفعون الجزية للدولة الإسلامية ويبتعدون عن منافسة المسلمين والتكبر والاستعلاء عليهم ويسعون في تحقيق ذلك، سيكون حكم قتالهم ملغًى.

رغم أن تشخيص جزئيات الحرب وشروطها وأحكامها بوجه أهل الكتاب مرتبط بالفقه الإسلامي، إلا أنه لاشك في أن أصل جوازه كيفما كانت طبيعة التفاصيل المتعلقة به، وقد حصل هذا الأمر عندما حارب النبي ﷺ في صدر الإسلام اليهود وهم طائفة من أهل الكتاب.

٤ - الحرب تجاه المنافقين:

إن الحرب مع المنافقين وقتالهم لون آخر من ألوان الحروب التى خاضها المسلمون فى زمن النبي ﷺ، والتي ركّز عليها القرآن الكريم، إذ يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1].

فضلاً عن جهاد الكفار فإنّ الله سبحانه وتعالى يأمر في هذه الآية بمجاهدة المنافقين أيضاً، ويوصي نبيه أن يتعاطى معهم بقوة وحزم ولا يتعامل معهم باللين

(١) التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩.

والمرونة، وغض الطرف أو السلم والتجاوز عن أخطائهم.

وفي بعض الآيات الكريمة يعاتب الله المسلمين ويلومهم على اختلافهم في المنافقين وقتالهم، ويعيب عليهم اختلاف كلمتهم في محاربتهم، وتقريع من يمتنع من المسلمين عن مقارعة هؤلاء والجهاد ضدهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[1].

ثم إن الله تعالى ينبئ المؤمنين بأن هؤلاء المنافقين لن يكتفوا بنفاقهم السرّي وكفرهم الباطني فحسب، بل لديهم رغبة جامحة بأن تكفروا كما كفروا هم وسلكوا سبيل الضلال، ليكون الجميع متساوين في الكفر، فهؤلاء لا يرتضون دين المسلمين ونهجهم، ولا يرغبون في الاتحاد والانسجام معهم، ولا يتمنون أن يكونوا في خندق واحد إلى جنبهم تحت راية الإسلام؛ ليكون المحور والقطب الذي يلجأ إليه الجميع، من هنا كانوا يسعون إلى إلحاق المسلمين بالكفر والزندقة والإلحاد.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[2].

---

(١) النساء: ٨٨.

(٢) النساء: ٨٩.

ورغم أن المنافقين يظهرون الإسلام ويقولون به لكنهم لم يرافقوا المؤمنين والمسلمين الواقعيين ولم يهاجروا معهم من مكة إلى المدينة، وكانوا يقصدون من ذلك البقاء على التلّ، ولم يُعرَفوا مع أي طرف هم عند اندلاع الحرب بين المسلمين والمشركين، حتى إذا ألقت الحرب أوزارها بانتصار المسلمين أو بهزيمتهم فإنهم قد نأوا بأنفسهم عن كلفة الحرب وخسائرها، وبعد الحرب يمكنهم من خلال الوقوف إلى جانب المنتصر الانتفاع والإفادة من ذلك، وهذا الأسلوب العام سياسي بامتياز، وفيه كثير من الدجل والمراوغة والدهاء، فمثل هؤلاء لا يكشفون عن موقفهم الصريح، ولا يعلنون عنه حتى يستطيعوا ركب الموج، ولا يتأخرون تحت أي ظرف من الظروف عن القافلة السائرة.

وكيفما كان الأمر؛ فإن الله تعالى وفي مقابل هذا الخداع، وهذه الحيل التي يمارسها المنافقون؛ يكلّف المسلمين بأن يجعلوهم على المحكّ، ويمتحنوهم حتى تتبيّن صحّة ما يدعيه هؤلاء من الإسلام أو من كذبه، وأحد مصاديق هذا الاختبار استسلامهم للهجرة مع المسلمين إلى المدينة وإذعانهم لها، إذ ذكر الله تعالى في هذه الآية مخاطباً المسلمين: إنهم لو هاجروا معكم إلى المدينة رافقوهم وصاحبوهم، وإلا فلا تفعلوا ذلك أبداً، بل تعاملوا معهم بحزم وقوة وغلظة، وعلى كل حال إن الله تعالى يحذر المسلمين من أن ينخدعوا بالحيل المكشوفة لهؤلاء الانتهازيين، وما لم يأتوا إلى طريق الصواب بصدق وإخلاص، ولم يطمئنوا لكلامهم وحديثهم عليهم أن لا يعتمدوا عليهم ولا يحبوهم ولا يخالطوهم.

وما دمنا في ذكر هذا القسم من الأقسام الثمانية للحروب الإسلامية من

المناسب هنا أن نتعرض لبحث صغير وهو مصاديق المنافق، لنقول: إن مفردة المنافق أساساً على أي شخص تطلق وبحق من تقال؟

لقد استعمل اصطلاح المنافق في القرآن الكريم بمفاهيم واسعة وعريضة، ويشتمل على مصاديق متنوعة ومختلفة، لكن ما سنتعرض له الآن هو أهم تلك الاستعمالات والمعاني بنحوٍ إجمالي:

١- تطلق كلمة المنافق في بعض الأحيان على مَن يعيش خارج المجتمع الإسلامي؛ لكنه يتظاهر بالإسلام والتدين ويدّعي حب المؤمنين وصحبتهم.

٢- وتقال هذه الكلمة أحياناً في موارد أخرى على من كان يعيش داخل المجتمع المسلم، ويشارك في الطقوس والشعائر الإسلامية، ويحضر اجتماعات المسلمين، وصلواتهم، ويصوم معهم أيضاً، لكنه في الباطن لا يؤمن بكل ذلك، وهدفه من تظاهره بالإسلام هذا وحضوره لكل هذه الشعائر شيء آخر تماماً، بل لا يكتفي بذلك؛ إذ يمكن أن يعاشر أعداء الإسلام، ويرافقهم، ويجلس معهم سراً وخفية فيقص لهم أحوال المسلمين، ويعين عليهم، ويمارس دور الطابور الخامس كما يقال لمن يقوم بهذا السلوك في أيامنا هذه.

٣- يطلق هذا اللفظ أيضاً على من لا يكذب في ادعائه الإسلام، ونطقه بالشهادتين، وإنه مسلم واقعاً، وليس عدواً للمسلمين أيضاً، لكن ما يمتاز به هو أن ذلك الإسلام والتدين ضعيف في نفسه، لذلك لا يمكنه أن يطيع الله تعالى ورسوله على الوجه المطلوب، وأن يؤدي جميع الواجبات بنحوٍ كامل، ففي مثل

هذا الفرد في الوقت الذي يكون منهمكاً عادة بأداء وظيفته وعمله، قد يتمرد ويعصي التكاليف الشرعية في بعض الموارد أيضاً، وحينئذٍ يكون مقصّراً في وظيفته وواجبه المفروض عليه.

إن الآيات (٨٨) و(٨٩) التي أوردناها من سورة النساء تريد من المسلمين أن يدعوا المنافقين إلى الهجرة معهم إلى المدينة، ويكونوا جنباً إلى جنب مع المسلمين يعيشون معهم في مجتمع ومكان واحد، وعند الالتفات إلى هذه القرينة وهذا القيد يتضح أن هذه الآية الكريمة ناظرة إلى المعنى الأول لمفردة المنافق، وهو أن يعيش المنافقون بمنأًى عن المسلمين وعن ديارهم، لكنهم في الوقت نفسه يتظاهرون بالتدين والإسلام ويدّعون حب المسلمين وصحبتهم.

٥- جهاد أهل البغي:

وهذا نوع آخر من الحروب الإسلامية أيضاً يختلف عمّا ذكرناه من أنواع الجهاد السابقة جاء في الآيات القرآنية أيضاً، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

إن الجملة الأولى من هذه الآية الشريفة تفترض أن فريقين من المؤمنين قد نشب بينهم الصراع والقتال، ومن الطبيعي في هذا الفرض إما ان يكون الفريقان كلاهما أو أحدهما قد غلب عليه هوى النفس، وانتصرت عليه قواه الشيطانية، أو

---

(١) الحجرات: ٩.

أصابه الطمع والكبر، أو يكون الفريقان قد أخطآ جراء سوء تفاهم قد حل بينهما، ذلك لأنه في غير هذه الصور التي ذُكِرت لا يمكن أن نتصور فريقين من المؤمنين يقصد كل واحد منهما أن يقتل الآخر، ويزعزع الأمن والأمان الذي ينعم فيه الطرف الآخر، فلو وقعت مثل هذه الحرب وتحقق هذا الفرض، وجب على سائر المسلمين أن ينهوا هذه الحرب، ويقطعوا ديمومتها، وأن يحلوا بدل ذلك الصلح والسلام بين الفريقين.

ومن ثم إن هذه الآية تحتوي على فرض آخر وهو أن يعتديَ أحد الفريقين على الفريق الآخر، أي أن يقوم أحد الفريقين علناً وبوضوح بالتعدي على الفريق الآخر وظلمه واغتصاب حقوقه، ومن الطبيعي أن يكون رد فعل الفريق الآخر هو مواجهة هذا التجاوز والتعدي الذي وقع حيفه عليه، ذلك لأن هجوم الفريق الأول وغارته غير مبررة، وغير صحيحة وظالمة، والحرب والمواجهة التي قام بها الفريق الآخر صحيحة وحقّة، لماذا؟ لأن الفريق الأول هو من قام بالاعتداء والفريق الآخر دافع عن نفسه، وفي ضوء استعمالات الفقه الإسلامي إن الفريق الأول (باغٍ)؛ وواجب المسلمين هنا ليس هو الصلح وزرع السلام بين الفريقين، بل إن تكليفهم هنا هو قتال الفريق الباغي حتى يكف عن بغيه وتجاوزه، ويخضع للحق، وينزل لحكم الله وأمره، وأما لو كفَّ المتجاوز والمعتدي عن اعتدائه وتجاوزه لأي علة كانت واهتدى إلى سبيل الحق وخضع لأمر الله، هنا وفي هذه الصورة يجب على المسلمين إصلاح ذات البين، وبسط العدل والإنصاف والسلام بينهما.

وعليه نفهم من هذه الآية الكريمة أن القتال المشروع لا يختص بالكفار - سواء الكفار الظاهريين كالمشركين، وأهل الكتاب، أو الكفار الباطنيين وهم المنافقون - بل يشمل قتال المسلمين الباغين أو أهل البغي أيضاً.

ويمكن تصور أكثر من لون وصورة لأهل البغي:

الأولى: هي أن يخرج مجموعة من المسلمين على حكومة الإمام العادل القائم بالحق ويتمردوا عليه، فلو كانت في المجتمع الإسلامي حكومة حق وعدل ثنيت لها الوسادة، وتحكم المسلمين بالقسط والإنصاف، فلا يملك أي فرد أو مجموعة الحق في مخالفتها والخروج ضدها ومحاربتها، والتآمر على إسقاطها وإزالتها، مثل هذه المجموعة أو الفرد يقال له في الاصطلاح الفقهي (باغٍ)، أو (الفئة الباغية)؛ وواجب المسلمين في مثل ذلك قتال هؤلاء ومحاربتهم، وهناك أحكام خاصة بهذه الفئة موجودة في الفقه الإسلاميّ.

الصورة الأخرى من صور البغي هي أن تعتدي إحدى الدول الإسلامية على دولة إسلامية أخرى وتظلّمها، وفي مثل هذه الحالة يكون المسلمون مكلّفين بقتال الدولة المعتدية الظالمة ومحاربتها، ويلزمهم أيضاً أن يجبروها على النزول لحكم الحق والخضوع له.

وبالإضافة إلى الصورة التي وردت في تصوير أصناف أهل البغي وأقسامهم فإن هناك صوراً وأشكالاً أخرى من البغي، طرحت في الكتب الفقهية، ويمكن لمن يطلب التفصيل في هذا الموضوع أن يرجع إليها، وهنا ينبغي الالتفات إجمالاً

إلى أن أحد أقسام الحروب الإسلامية - بالنظر إلى نوع العدو - هو قتال أهل البغي والمتعدين على المسلمين وعلى حقوقهم ومحاربتهم، وهنا تكون وظيفة المسلمين وواجبهم عند ذلك هو مواجهة الباغي والمعتدي على غيره من المسلمين، وتحميله المسؤولية كاملة وإجباره على التسليم للحق.

٦- الجهاد من أجل خلاص المستضعفين:

القسم السادس من أقسام الحرب هو الجهاد لتخليص المؤمنين المستضعفين وغير القادرين على الإفلات من العدو وإنقاذهم، ويطلق على هذا النوع من الحرب (الحرب من أجل خلاص المستضعفين)، فقد يعيش بعض المسلمين في بعض الدول غير الإسلامية و (دار الكفر) في ظلم وتجاوز؛ ولكونهم أقليّة، أو لأن القوة والقدرة كانتا بيد الكفار والمنافقين، أو لغيرها من الأسباب كانوا لا يستطيعون رد هذا الاعتداء والظلم ومواجهته، من جهة أخرى لا تتيح لهم الظروف والأوضاع الخروج من تلك البلاد والهجرة إلى دار الإسلام والسفر إلى إحدى الدول الإسلامية والعيش جنباً إلى جنب مع المسلمين، ففي مثل هذه الحالة أيضاً يجب على سائر المسلمين مساعدة أولئك المسلمين والمؤمنين المستضعفين قدر الإمكان والإسراع لإنقاذهم، ويلزمهم محاربة الظالمين والغاصبين لحقوق الناس، وتهيئة الظروف والفرص المناسبة التي تساعد في تخليص إخوتهم المسلمين من الظلم والأسر الذي هم فيه، وقد أشار القرآن إلى هذا النوع من الجهاد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾(١).

٧ و ٨ - الدفاع والمقابلة بالمثل:

القسمان الأخيران من أقسام الجهاد هما: الجهاد الدفاعيّ، والجهاد القصاصيّ، وهذان النوعان من الحرب والقتال لا يختصان بطائفة وفريق معين، وذلك من قبيل الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين و نحوهم؛ بل إن المسلمين مكلّفون بمقاتلة أي شخص، أو فريق، أو مجموعة يكفّر ويقصد ممارسة أي لون من ألوان الاعتداء والظلم على المسلمين؛ سواء كان ذلك الاعتداء يتعلق بالمقدسات الدينية والمذهبية، أم التجاوز على العرض والشرف والنفس والمال ونحو ذلك، فعليهم هنا أن يوقفوا العدو عند حدوده، ويجبروه على الكف عن مثل هذه الأعمال، هذا اللون من القتال والجهاد يسمى بحرب الدفاع أو الجهاد الدفاعيّ.

والمسلمون مكلّفون أيضاً بمواجهة كل فرد أو طائفة اعتدت على المسلمين، أو اغتصبت حقوقهم، وهذا النوع من قتال المسلمين هو نوع من أنواع القصاص والمقابلة بالمثل.

---

(١) النساء: ٧٥.

سادساً: تسلسل آيات الجهاد:

من الطبيعي إن أول أنواع الحروب التي خاضها المسلمون في صدر الإسلام هي حروب ومعارك ذات نزعة دفاعية، والقتال فيها لون من ألوان المقابلة بالمثل، أو تعد نوعاً من أنواع القصاص، وعليه، إن أول الآيات التي نزلت بخصوص القتال والجهاد هي تلك الآيات التي طرحت الحرب الدفاعية وقتال القصاص، وشرّعت قيامها من قبل المسلمين، وهما القسمان الأخيران من أقسام الحرب الثمانية.

كان المسلمون في بداياتهم قليلين جداً تستحوذ عليهم حالة من الضعف وغياب السطوة، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى كان المشركون والكفار يحوطونهم بالخطر الشديد، ويمارسون بحقهم ألواناً من الضغط والأذى، حتى إن الكفار عندما أخرجوهم من ديارهم ومدينتهم وأبعدوهم عن أهلهم أصبحت أرواحهم وأموالهم عرضة لتعدي المشركين وسلبهم، وتحملوا ألواناً من العذاب الروحي والنفسي والبدني الشديد الذي وقع عليهم من العدو، حتى إن بعضهم فقد حياته تحت وطأة قمعهم وتعذيبهم، من هنا حاول المسلمون توفير القدرات والإمكانات المادية الضرورية والكافية، فقاموا بتجهيز الأسلحة والجنود ليقفوا بوجه هذا العدو الغاصب الخائن والوضيع، لتتيح لهم الفرصة بعد ذلك أن يوجهوا أسنة رماحهم وحدود سيوفهم للدفاع والمقابلة بالمثل، وأول آيات الجهاد التي رغبت المسلمين وشجعتهم على الدفاع هي الآيات الآتية التي نزلت على صدر النبي محمدﷺ، ونزول هذه الآيات يعني في الواقع إعطاء الإذن

للنبي ﷺ ومن أسلم معه بالدفاع والقصاص من الكفار والمشركين، وهذه الآيات هي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وهذه الآيات - هي أول آيات كريمة نزلت على النبي الاكرم محمد ﷺ - وتحدثت عن الجهاد، وتعرضت من أولها إلى آخرها إلى حرب الدفاع والقصاص من المجرمين، والتعابير الواردة في هذه الآيات الكريمة من قبيل «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ»، وكذلك جملة: «بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا»، وأيضاً قوله سبحانه: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ»، وكذلك ما يفهم من مفردة «دَفْعُ»، وسياق الآية على العموم يدل على الدفاع، ولسانها هو لسان الجهاد الدفاعيّ، الأمر الآخر الذي يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا الله» فلو لم يصدر من المسلمين أي تقصير، وأصبحوا هدفاً لاعتداء سافر من قبل المشركين والكفار، فإن الله تبارك وتعالى قد أجاز لهم - وعبر هذه الآيات الشريفة - أن يقاتلوا المعتدين ويدافعوا عن أنفسهم ويرفعوا الظلم والحيف الذي وقع عليهم من الكفّار والمشركين.

---

(١) الحج: ٣٨ - ٤٠.

ويقول سبحانه في آيات أخرى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

وما يشبه هذا المضمون أيضاً جاء في آية أخرى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾(٢).

وتبين هذه الآية الشريفة أن العلة والسبب من صدور الأمر بالحرب من قِبَله سبحانه وتعالى، هي الفتنة التي أشعلها الكافرون، إذ إن هذه الفتنة موجودة ولم تتمكن الدولة الإلهية من أن تبسط نفوذها على الجميع فإن هذه الحرب ستبقى مستمرة حتى تحقيق هدفها.

سابعاً: الجهاد الابتدائيّ في الإسلام:

نظراً لما قدمناه من النصوص القرآنية وما أوردناه الآن من الآيات الكريمة توهّم بعضهم أن الجهاد في الإسلام منحصر بالجهاد الدفاعيّ، وصارت هذه الآيات مصدراً ومنشأً للقول بعدم وجود الجهاد الابتدائيّ في الإسلام.

وفي هذا المجال لابد من أن نقول: رغم وجود كل القرائن التي تشير إلى أن

---

(١) البقرة: ١٩٠ - ١٩٣.

(٢) الأنفال: ٣٩.

الآيات التي مرّ ذكرها قاصدة الجهاد الدفاعيّ، ومع ما عرضناه نحن من بعض هذه القرائن، ولكن جواز الجهاد الابتدائيّ وشرعيته في الإسلام من ضروريات الفقه الإسلاميّ، ولا يوجد أي شك أو ترديد في مشروعيته في أصل التشريع، فقد اتفق فقهاء السنة والشيعة على ذلك، ولا خلاف بينهم في تشريع هذا اللون من الجهاد إطلاقاً.

وحقيقة الأمر هي أن الذي دعا بعض الأفراد وحثّهم على التشكيك والارتياب في جواز الجهاد الابتدائيّ في الإسلام وترخيصه، هو تأثرهم بالفكر الغربي وميولهم لمنهجه ورؤاه، ولهذا الأمر ونحوه من الأمور الأخرى، التي تصب جميعاً وتشترك في توهين الأحكام الإسلاميّة، وتحقير قيم الدين الحنيف ومبادئه وتصغيرها، ويلحظ أن من يطرحون هذه الآراء اليوم ويروّجون لها يخشون على الفكر والثقافة الغربية من الاضمحلال والضياع، ويعتقدون أن كل ما يقوله الغربيون هو وحي منزل، وعلينا نحن المسلمين أن نواكب عربة التقدم والتطور في العصر الحديث والثقافة الجديدة، خشية أن تتركنا ونتأخر عنها، وبالنتيجة علينا أن نطرب إلى كل الألحان التي يعزفون عليها.

إن الثقافة الغربية وهي الجهة التي تدّعي العقلانيّة، وتزعم وجود المتعقّلين عندها تطرح اليوم وبنحوٍ مطلق وصريح بعض الحقوق والقيم، من قبيل الأطروحات التي تقول بحق الحرية، وحق الحياة، وحق احترام كرامة الإنسان المطلقة، وهذا يعني عدم الجواز لأي شخص أو مجموعة أن ينقض ذلك أبداً، ومن البديهي جداً أننا لو التزمنا بهذا النوع من الآراء علينا أن نلتزم ولاسيما في ما

يتعلق بموضوع حق الحياة وهو حق مطلق، فلا يمكننا تحت أي ظرف ولأي سبب، أو مجوز، أو وثيقة تدينه أن نسلب حياة أي إنسان، وما نشاهده الآن في بعض الدول التي ألغت عقوبة الإعدام فإنه في الواقع ليس إلا تأثراً، وانصياعاً لمثل هذه الثقافة والرؤية، وهذه الآراء والأقوال طبعاً بقيت في كثير من الموارد حبراً على ورق، ولم تزل شعارات وهتافات فقط، فإن الدول الغربية - عمليًّا - تسحق كل ذلك تحت أقدامها عندما يتعلق الموضوع بسائر الدول الأخرى.

وعلى كل حال فمن الطبيعي أن مثل هذا القانون المفيد ذي القيمة الكبيرة، وهو الجهاد الابتدائي يكون غير مبررٍ تماماً، لماذا؟ لأنه يتنافى مع حق الحياة المطلق للإنسان، ويكون سبباً غير مبرر لتهديد حياة الإنسان وإيقاعه في الخطر المحدق، وفي ضوء النظم والقوانين الغربية فإن أقصى ما يمكن تبريره والقبول به هو الجهاد الدفاعي فقط، وعلى هذا الأساس أيضاً فإن كل الظلم والوحشية التي ترتكبها اليوم القوى العظمى الظالمة والدول الكبرى بحق الناس في الأرض وما يشعلونه من حروب وغارات ضد الدول المستضعفة، تبرّر كلها عبر منظومة عريضة وواسعة من الدعاية والإعلام الكاذب، وتصبح سائغة بذريعة عناوين تبدو إلى حد كبير لطيفة وجميلة من قبيل الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان.

لذلك تجد أن كثيراً من الأحكام والأنظمة والقوانين الفردية والاجتماعية في الإسلام، ومنها الجهاد الابتدائي هي أمور غير مبررة إطلاقاً حسب الثقافة والنظام العام في الدول الغربيّة، وعلينا عندما نرتضي تلك الثقافة أن نضع الأحكام والضوابط الإسلاميّة جانباً.

ولكن كما أشرنا إلى ذلك في مباحث سابقة ومن جملة ما قلنا في نقد لائحة حقوق الإنسان ودراستها هناك، إن الحقيقة هي أن كل بند ونقطة ذكرت في اللائحة لا تملك القيمة والاعتبار المطلق، بل كل ما ذكر محكوم ومقيد بقيم واعتبارات أخرى، وهذه القيم والاعتبارات هي قيم واعتبارات مطلقة غير مقيدة ومنزلتها أعلى وأسمى من القيم القانونية والحقوقية والأخلاقيّة الأخرى، وإن القيمة التي يراها الإسلام هي (منتهى الكمال الروحي والمعنوي للإنسان)، وهو الذي يتحقق فقط في التقرب إلى الله تعالى والحصول على مكانة ومنزلة مميّزة لدى الحق جلّ شأنه.

إن فحوى قانون القيم والنظام العقيدي في الإسلام ليس نفي وجود أي قيمة أعلى وأسمى منزلة ومكانة من قيمة الكمال فحسب، بل إن قيمة ومنزلة كل شيء آخر له قيمة واعتبار أيضاً في ما يتعلق عموماً بمقدار تأثره بالطريق والسبيل الذي يمكن أن يوصل إلى هذه القيمة الأكمل، والمكانة المطلقة، والمقصود الأول والأعلى، وبعبارة أخرى: إن هذه القيمة المطلقة ليست غير مساوية فحسب ولا موازية لسائر القيم والمبادئ الأخرى، وليست أفضلها وأكملها فقط؛ بل تعد أصل سائر القيم الأخرى وجذرها أيضاً، وهي الميزان الذي يمكن أن يقيّم كل سلوك أو عمل نقوم به فيميّز ما هو سلبيٌّ عما هو إيجابيٌّ منه.

وعليه إن كل هذه الأعمال والسلوكيات والقيم والمبادئ الأخرى حتى يكون لها منزلة وقدر مطلوب لابد من أن تكون سبيلاً يساعد وصول الإنسان إلى الكمال الحقيقي ويعينه على بلوغ هذا المخلوق القيمة المطلقة والمنزلة الأرفع.

فمن لا يعرف الإسلام أو من تأثر بالفكر والثقافة الغربية، وتستهويه الرؤى التي يطرحونها ويتفاعل معها، فهو من حيث يعلم أو لا يعلم يودّع أكبر المنازل والقيم، وهي القيمة الأصيلة الوحيدة والمطلقة في الدين الإسلامي في غياهب النسيان، ومن هنا إن كثيراً من الأحكام والتعاليم الإسلامية التي تكون مبررة وسائغة في ضوء هذه القيمة المطلقة، تحرّف وتشوّه من مثل هؤلاء الأفراد، ومنها التشكيك في جملة الأمور التي تتأثر وتتفاعل مع العامل الذي أشرنا إليه وهو (الغفلة عن القيمة التي ذكرناها) ومنها مسألة الجهاد الابتدائيّ، فترى من يحصر الجهاد المشروع في الإسلام بالجهاد الدفاعيّ والقصاص، ومن جهة أخرى ينكر الجهاد الابتدائيّ، يسعى بكل جهد حثيث إلى أن يطبّق جميع آيات الجهاد على الجهاد الدفاعيّ أو حرب القصاص، وكل الحروب والمعارك التي وقعت في زمان النبي ﷺ يعدُّها لوناً من ألوان الجهاد الدفاعيّ.

وكل هذا يعود إلى سبب واحد وهو أن المتأثرين بما يقوله الغرب يريدون أن تكون الأحكام والتعاليم الإسلامية قدر الإمكان موازية للقيم والمبادئ الحاكمة على الثقافة والتقاليد الغربية ومنسجمة معها، وكل حكم أو رؤية لا يمكنهم تطبيقها يعجنونها بفكر الغرب، أو يعجزون عن تطبيقها على رؤيته وهواه يقومون بإنكارها والتشكيك بها.

وكما أشرنا سابقا أن حقيقة الأمر هو أن الجهاد الابتدائيّ مسألة مشروعة في الفقه الإسلامي، وهو من ضرورياته، سواء كان الفقه الإماميّ أم الفقه السنيّ، أجل، وقع الكلام في أنه أهناك آية في القرآن الكريم تدل على جواز الجهاد

الابتدائيّ ووجوبه أم لا؟ أو ربما يقع النقاش في أن الجهاد الابتدائيّ هل حدث في زمان الرسول الأكرمﷺ أو لا؟ ولا يوجد أي شخص يقدح أو يشكّك في مشروعية جواز هذا النوع من الجهاد وأصله الذي يعد من مسلمات الفقه وضرورياته.

وحتى لو يتفق حدوث الجهاد الابتدائيّ على طول التاريخ الإسلاميّ، وحتى لو لم تقع حرب فيها صفات وعلامات الجهاد الابتدائي في زمن النبيﷺ، وبعد رحلته وحتى الآن، مع كل ذلك لا يسري الشك ولا يبلغ الأمر القدح بجوازه ومشروعيته؛ ولكن سيأتي اليوم ويحين ذلك الوقت الذي يتجلى الأمر والدعوى لهذا اللون من الجهاد على يد الإمام صاحب العصر والزمانؑ، لتدوي دعوته للحق والعدالة كل نقاط العالم، ويصل أمره في الحكومة العالمية الواحدة جميع الناس.

وكذلك هناك خلافات فقيهة بين العلماء في بعض المسائل الجانبية في الجهاد الابتدائيّ، كاختلاف الفقهاء في توقف الجهاد الابتدائيّ على حضور الإمام المعصومؑ ونحو ذلك، وهذا الخلاف لا يعني إطلاقاً كونه وثيقة ودليلاً على إنكار أصل هذا الحكم.

وعلى كل حال ومع كل هذه المحاولات اليائسة وغير المثمرة لا يمكن عدّ الجهاد الابتدائيّ وأصل جوازه من مسلمات وضروريات الفقه الإسلامي حكماً غير مشروع وعده خلاف الدين الإسلام، والأجدر بمن يبذل كل هذه الجهود للقدح في مشروعية هذه المسألة، وإنكار هذا الحكم الفقهي المتسالم، أن يتحرر من

سلطة الثقافة الغربية والتخلص من أفكارها، وتقييم الأحكام الإسلامية ودراستها وتحليلها في إطار النظام والقيم الإسلاميّة.

ونقول هنا بوضوح وصراحة ودون قلق المعارضة مع النظام الغربي ودون خشية مخالفة الثقافة والرؤى الغربية: إن المبدأ الأصيل الوحيد في ما يخص الإنسان هو الوصول إلى الكمال النهائيّ، وبلوغه تلك المنزلة الرفيعة، وتلك المنزلة ليست هي إلا التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وليست إلا الحصول على مقام الحضور عند الحق، وعلى هذا الأساس إن كل شيء يغلق الطريق على مريدي الكمال وقاصدي المنزلة السامية ومحبي الدنو والقرب منه تعالى، وأي فخ ينصب أمام سبيل السالكين في طريق الحق من أجل أن يسقطوا فيه، وكل حجر وصخر توضع أمام درب السالكين يصطدمون به وينقلبون عن الطريق السوي، كل ذلك يجب أن يزال ويتلاشى أمام تحقق الكمالات والأهداف الإنسانيّة السامية.

ولم يكن الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلينعليهم السلام أمراً آخر سوى دعوة الإنسان إلى أن يسلك سبيل الله، ولم يكن قصدهم إلا أن يأخذوا بيده إلى القرب والدنو من حضرة الله، ويعلمونهم الطريقة المثلى لبلوغ ذلك، فجاء الأنبياءعليهم السلام حتى ينيروا الطريق للبشر، ويزيلوا كل العقبات والموانع أمام مسيرته نحو الله؛ ليتمكن من الإسراع والاستعجال لدرب الحق والحقيقية، ويحصل في النهاية على غاية الكمال ويبلغ عند مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أجل، إن الهدف والغاية من بعثة الرسل والأنبياءعليهم السلام ليس بسط النظم

والقوانين، وإشاعة الأمن والهدوء في المجتمع، أو توفير الأجواء الملائمة للراحة والعيش الرغيد في حياتهم المادية والدنيوية فحسب؛ بل إن إرسالهم كان من أجل بسط القواعد السماوية، والمبادئ الربانيّة وتأصيلها في المجتمعات البشرية، وإحيائها في نفوس البشر، والأخذ بيد الإنسان للحصول على الأهداف المعنوية السامية وهدايته إليها أيضاً.

وقد جاء القرآن الكريم الذي يتحدث عن النبي محمدﷺ بصراحة ووضوح، وفي ثلاث مرات بالمضمون نفسه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1].

وهذه الآية تدل بوضوح وتعلن بصراحة أن الغرض من بعثة الرسول الاكرم محمدﷺ وإرساله هو أن يجعل من دينه وهو الإسلام ديناً عالمياً للناس كافة، فكان عليه الصلاة والسلام مأموراً من قبل الله تعالى، وهو رسوله للعالمين أن يدعو جميع البشر إلى الإسلام، حتى إنهﷺ إذا لم يتمكّن من أن يجعل من هذا الدين عالمياً في زمان حياته عليه أن يهيئ الظروف المناسبة والمقدمات اللازمة لعالمية الدعوة، وقد نهض النبيﷺ بهذه المهمة على أكمل وجه وأدّاها على أفضل صورة.

وفعلاً بدأ النبيﷺ بنشر دعوته ورسالته وقصد ترويجها عالمياً، وأراد توسيع رقعة الإسلام من بداية البعثة، ففي الوقت الذي كانت الدولة الإسلامية

---

(١) التوبة: ٣٣، و الفتح: ٢٨، و الصف: ٩.

فتية وهي أول دولة إسلامية يبدأ تأسيسها في العالم، ولم يمر على حكومة المدينة المنورة سوى بعض الأيام، وكانت حديثة التأسيس والإنشاء ذات قدرة وقوة متواضعة جداً، إذ لا يمكن مقارنتها - من حيث الظاهر - بسائر القوى المجاورة كدولة الروم وفارس، إذ كانتا من أعظم الدول آنذاك، أجل في تلك الظروف والأحوال نجد النبيﷺ يبعث برسائل إلى امبراطور الروم، وملك الفرس، والحبشة، والإسكندرية، والبحرين، والملوك في الدول الصغيرة والكبيرة الأخرى كافة، فحواها دعوة كل تلك الدول والممالك إلى الإسلام.

وكانت تلك الرسائل تحمل لحناً صريحاً وواضحاً وتتضمن دعوة قوية للمخاطبين أن استجيبوا لنداء النبي محمدﷺ بـ(لبيك)، وأسلموا وسلموا لحكم الله، والخضوع لقوانين الدولة العالمية الجديدة وتعاليمها؛ وهذه الرسائل دعت كثيراً من الناس الذين كانوا يعيشون في أقصى نقاط العالم أن يتعرّفوا في ذلك الحين على الإسلام وصاروا بصدد البحث والتحري عن طبيعة الدين الجديد، حتى إن بعضهم ممن كانوا يطلبون الحقيقة ولم تأسرهم أهواء النفس والوساوس الشيطانية، اعتنقوا الإسلام وارتضوه ديناً لهم، وفي كل الأحوال كانت الأمور حتى ذلك الوقت ميسرة للنبي محمدﷺ؛ لإتاحة الفرصة، وتهيئة الأجواء، وإعداد المقدمات اللازمة لحركة ونهضة مستمرة ودائمة، والتأسيس لنمو تلك الدعوى وكمالها على مستوى المديات التاريخية والمسيرة الحياتية للبشر، ولكن كانت أغلبية ساحقة من الدول المتنفذة والقوى العظمى قد عاصرتها أيضاً هذه الدعوة، ولو قبلوا هذا الدين والنهج الجديد لكانت منافعهم وحياتهم

وثرواتهم وقدراتهم في خطر، لذلك صاروا يسخّرون كل جهودهم ومهما كان الثمن للحيلولة دون نمو هذا الدين وانتشاره، ويحدّون من قوته وديمومته وبقائه، في حين كان كثير منهم على يقين بأن النبيَّ محمداً ﷺ هو نفسه النبي الذي بشر بظهوره أسلافُه من الأنبياء، ويعرفون جيداً أن دينه هو الدين المكمل والخاتم لكل الأديان السابقة، وهنا يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

أجل بعض أعداء النبي محمد ﷺ مع أنهم يكتمون حقانيته باستمرار، وهم على علم بأنه رسول من الله حقيقة وواقعاً، لكنهم يجنّدون كل القوى مستعينين بكل القدرات الأخرى في سعي حثيث منهم للحيلولة دون انتشار الإسلام وتقدمه في الساحة العالمية، والحد من أن تكون له القوة والقدرة الطوليان في الأرض، ويغلقون جميع الطرق والمنافذ أمام مسيرته، وكان هدف هؤلاء من هذا السعي والجهد هو أملهم في أن يتمكّنوا من الانتفاع في بعض الأيام، والاستمتاع باللذة والثروة الدنيوية في دولهم لبعض الأيام، ويزيد عمر حكوماتهم بعض الليالي والساعات.

وفي هذا الإطار نفسه نشاهد العديد من الدول الإسلامية في هذا العصر لايطبقون الإسلام ولايعملون به في القوانين والأحكام الاجتماعية والقانونية إلا بنحوٍ نادرٍ جداً، ويحاولون في بعض الدول الإسلامية بقسوة يرافقها الخوف والرعب دون ارتداء المرأة الحجاب والملابس الإسلامية، وبسبب الخوف

---

(١) البقرة: ١٤٦، وقد جاء نص القسم الأول من هذه الآية في سورة الأنعام الآية العشرين أيضاً.

والخشية أيضاً من نفوذ التعاليم الإسلامية وانتشارها، ورغم وجود الحزب الإسلامي في الجزائر والذي حاز وبمطلق الحرية في الانتخابات على الأغلبية عريضة في البرلمان الجزائري، لكن أدعياء الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، يهدودنهم عبر وسائل وطرق تعسفية ظالمة كالقتل والرعب والارهاب ليمنعوهم من تشكيل حكومة بقيادة هذا الحزب وإمرته.

ثامناً: الجهاد الابتدائيّ مصداق للدفاع:

والآن نعود للحديث عن أصل الموضوع، إذ قلنا: إن الإسلام يعد الجهاد الابتدائيّ أمراً مشروعاً وجائزاً، وهذا الحكم ناشئ من نظامه ومبادئة السامية التي تستحق الدفاع، وما هي إلا أحكام مبررة، ولها أسبابها وعللها الحقيقية حتماً، وفي هذا السياق هناك نقطة مهمة جديرة بالطرح هنا، وهي أنّ الجهاد الابتدائيّ أساساً، وبالنظر إلى حقيقته وواقعه هو نوع من أنواع الدفاع والجهاد الدفاعيّ أيضاً، وهو دفاع عن حق الله تعالى بيان ذلك: إن هؤلاء الكافرين وأصحاب النيات والمقاصد السيئة يسلكون في عدائهم للإسلام والمسلمين طرقاً وأساليب مختلفة، ويقومون بشتّى الأفعال والدسائس من أجل الانتقام منهم، فمرة يكون هدفهم ومقصدهم التصرف والتلاعب بأموال المسلمين، والاستيلاء على ثرواتهم وأراضيهم وممتلكاتهم ومصادر العيش لديهم، وتراهم من أجل ذلك يعبّئون الجيوش، ويعدون العدة، ويحاربون المسلمين بنحوٍ مباشر، ومرة أخرى أيضاً ومن أجل الحصول على تلك الأهداف يسلكون الطريق غير المباشرة؛ وذلك عبر زرع عدد من المستشارين والمختصين أو المساعدين والخبراء، وينادون

في الظاهر بشعارات إصلاح ما فسد وتقديم الخدمات، ولكنهم في الواقع يرتكبون الخيانة والاعتداء والنهب.

ولكن قد يكون هدف الأعداء أبعد من التسلط والسيطرة أو الهيمنة على المقدرات، وذلك بمعنى أنهم إذا لم ينتفعوا أو ينهبوا أموال المسلمين وثراواتهم وممتلكاتهم ومصادر العيش لديهم، فإنهم في الأقل يراقبون ويتحكّمون بها ويديرون انتقالها وتحويلها، وعبر هذه الفرصة يمكن للاعداء النفوذ بنحوٍ أكبر ومن خلال بعض الأدوات السياسية والثقافية يبسطون سلطتهم ويطبقون مايرون، من قبيل تعيين حاكم، أو يجعلون رئيساً يكون ظاهره مسلماً، لكنه تابع لهم في الواقع، ويتم إفراغ كل مايريدونه عن طريق هذا الحاكم.

ويكون هدف العدو أيضاً هو إقصاء الإسلام وحذفه، ويكون المسلمون بذلك مخيّرين إما أن يتخلوا عن الإسلام وفي مقابل ذلك تكون أرواحهم، وأموالهم، ونساؤهم، وأولادهم في مأمن، أو يستعدون للحرب والقتال فتكون أنفسهم، وأموالهم، ونساؤهم، وأولادهم في خطر محدق، يقول القرآن الكريم بهذا الصدد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1].

ويقول في هذا السياق أيضاً: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[2]، كذلك يقول تعالى في موطن آخر: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[3].

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) النساء: ٨٩.

وفي كل واحدة من الحالات والفروض التي تعرضت لها الآيات الشريفة هناك، تفيد أن عزة المسلمين مهددة بالخطر، وكذلك شرفهم وكرامتهم، في حين يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ما يأتي: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[1].

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وعلى هذا الأساس، وفي ضوء ماجاء في الآيات المذكورة، والأدلة المتعددة الأخرى، وفي كل الموارد والفرضيات التي ذكرها القرآن الكريم في هذا السياق، يجب على المسلمين أن يقوموا - في مقابل مؤامرات العدو ودسائسه، والتهديدات المتلاحقة التي يلوح بها – ويجب أن يدافعوا عن عزة الإسلام وكرامته، ويحموا أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأبناءهم ويحافظوا على مائهم وترابهم، وأن يحرسوا كل شبر من أراضيهم، ويفوتوا الفرصة على تجاوز الكفرة والاعداء واعتدائهم، وهذا الأمر ولاسيّما عندما يتعلق قصد الأعداء وهدفهم بإسقاط الدين والإيمان، ومعتقدات المسلمين، والتعدي على مقدساتهم، هنا تكون حساسية الموضوع وثقله وأهميته أكبر، وذلك لأنه لايوجد هدف وغرض من خلق العالم والإنسان والغاية من بعثة الأنبياءعليهم السلام، وإرسال الكتب السماويّة والأديان الإلهية، أسمى وأثمن من اعتناق الإنسان لهذا الدين، والعمل بأحكامه وتعاليمه وحصوله على القرب والدنو منه سبحانه وبلوغه هذه المنزلة العظيمة.

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) المنافقون: ٨.

وعليه فكيف يمكن للدين الإسلامي أن يجيز للمسلمين السكوت والقعود عن القتال في مقابل السرّاق ومن يريدون محو الإسلام وإزالته واستئصاله، لتصبح الفرصة سانحة للعدوان وبدون أي قلق أوتعب بأبعادهم عن أعز ثروة، وأهم شيء في وجودهم.

إن الإسلام لايعطي هذا الحق هنا للمسلمين في أن يتظاهروا حتى بالإعراض والانصراف عن دينهم ومذهبهم لحفظ النفس والمال والعرض والأولاد، على الرغم من عمق الإيمان والتدين في بواطنهم ونفوسهم.

أجل، إن الإسلام لايعتبر أي شيء أغلى وأثمن من دين الحق، فعندما تحتم الضرورة لحفظ هذا الدين حتى لو بلغ الأمر التضحية بالنفس - والجود بالنفس أقصى غاية الجود - وحتى الفقه يعتبر حفظ النفس من أهم الواجبات على الإنسان يجب أن تكون فداءً للدين وقرباناً له.

وفي ضوء ماذكرناه من هذه الرؤية يمكن القول إن جميع أنواع الجهاد في الإسلام فيها جانب ولحاظ دفاعيّ، وحتى ماذكر في الفقه الإسلامي وعنون بالجهاد الابتدائيّ فإنه في ضوء ما قلناه هنا سيصبح جهاداً دفاعياً، وبعبارة أخرى فإن كل جهاد في الإسلام فهو يتضمن موضوع الدفاع، مع تفاوت واختلاف في متعلق الدفاع الذي يتفاوت من أمر إلى آخر فمرة يكون الدفاع عن الماء والأرض، ومرة يكون الدفاع عن أنفس المسلمين وأرواحهم، وتارة يكون الدفاع عن عزة المسلمين وشرفهم وكرامتهم.. الخ، ومن بين متعلقات الدفاع هو الدفاع عن حق الله تعالى، وذلك هو الجهاد الذي يطلق عليه في الفقه الإسلامي

الجهاد الابتدائيّ، وبحسب العرض الذي نحن بصدده الآن يمكن القول: إن هذا الجهاد والقتال هو أيضاً جهاد دفاعي، ويحسب نوعاً من أنواع الذود والحماية، وسيكون من أسمى أقسام الدفاع المختلفة وافضلها، وأشرفها، وأعلاها، وهنا يلزمنا الوقوف قليلاً عند موضوع (حق الله تعالى) وبيان كيفية الدفاع عنه.

فكما أشرنا قبل ذلك وفي بحوث ودراسات مختلفة إن الحق الأصيل والحق الذاتي في العالم هو حق الله تعالى، وأن كل الحقوق الأخرى إنما يكون مصدرها وتكتسب نورها ومعناها من هذا الحق، عبر هذا الحق تكون تلك الحقوق مبررة، إن الله تعالى هو المالك الحقيقيّ لكل الموجودات ومنها الإنسان وكل المخلوقات تستمد وجودها وكينونتها منه سبحانه، وهذه العلاقة بين مالكية كل شئ وعائديته إليه من جهة، وبين سائر الموجودات الأخرى من جهة أخرى، تقتضي أن يكون له جل شأنه الحق في أن يكون سلوك جميع حركات ما في الكون وسكناته في ضوء إرادته واختياره تعالى[1].

وإذا أردنا أن نطبق الأمر على المجتمعات البشرية فإن ذلك الحق يقتضي أن نعبد جميع الناس من أول الأرض إلى آخرها لله تعالى، ويكون دينه حاكماً، وكلمته هي أسمى وأعلى الكلمات: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾[2].

---

(١) وقد بين الأستاذ الشيخ هذه المسألة وعرضها في كتب ودراسات مختلفة، ومن أراد مزيداً من البيان والتوضيح يمكنه مراجعة كتاب: النظرية الحقوقية في الإسلام، المحاضرة السابعة، وأيضاً كتاب: الحقوق والسياسة في القرآن، الفصل الثاني.

(٢) التوبة: ٤٠.

وفي إطار ما تقدم فلو تمرد الناس على هذا الحق الإلهيّ، ولم يراعوا حدوده وضوابطه، فمضافاً الى العقاب والعذاب الأخروي الذي يعده الله لهم في يوم الحساب، هناك عقوبة دنيويّة أيضاً يمكن ان تتجلى على شكل عذاب وبلاء طبيعي، سواء من السماء أم من الارض ينزل على اولئك المتمردين، ويمكن أن يكون بأن يسخر الله تعالى بعض المؤمنين والصالحين فبعد ذلك يثورون عليهم ويحولون دون فسادهم وسلوكهم الظالم فيقتلعوه من الأرض، وتكون نهايتهم على أيدي هؤلاء، وهذا هو نفسه الجهاد الابتدائي: قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾[1].

والجهاد الابتدائي لا يقصد منه سوى إحقاق الحق وهو حق الله تعالى على كل البشرية فيسود العدل كل المعمورة، حيث يأمر الله تعالى فريقاً من المؤمنين الجديرين بالقتال والحرب بأن يهاجموا ويقوموا بوجه الذين أبخسوا ذلك الحق وضيعوه، وراحوا في طريق الشرك والظلم والكفر والفساد، فيستمروا في الحرب والقتال حتى يسود الدين والحق وتحكم الإرادة الربانية العالم.

فلو التفتنا إلى هذه الحقيقة وهي أن هدف بعثة النبي محمد ﷺ هو سيطرة هذا الدين وسيادته على جميع أديان العالم؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2]، ولو لاحظنا أيضاً أن الغرض من قتال الكفرة والمشركين هو إسقاط كل الفتن، وجعل الدين كله لله

---

(١) التوبة: ١٤.

(٢) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩.

سبحانه وتعالى؛ كما قال في الكتاب العزيز: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1]، ولو تنبّهنا إلى نقطة مهمة أخرى وهي أن رواياتنا فسرت الفتنة التي جاءت في الآية الكريمة بالشرك، نفهم عندها من كل ذلك أن الجهاد الابتدائيّ مع الكفار والمشركين يجب أن يستمر ويمضي حتى تخلو الأرض من خبائث الكفر، والشرك، والفساد، وتطهّر من كل هذه الأنجاس، وتسود الدولة الإلهية، ويعلو التوحيد جميع أصقاع العالم.

ولا يفوتنا أن نذكر أن المقصود من إسقاط الكفر والشرك ومحوه ليس بجعل جميع الناس على الأرض مسلمين وموحدين، لماذا؟ لأن الإيمان والاعتقاد لا يمكن أن يلج القلوب والأفئدة عن طريق الجبر والإكراه، لأن مثل هذا الأمر متعلق بالقلب، وهو بعيد عن الإكراه، والإلزام، والجبر، بل إن المقصود منه أن يكون النظام الحاكم على العالم هو النظام الإلهي والدين التوحيديّ، وحكومته بيد الله سبحانه.

وعلى كل حال إن كل ما قلنا في هذا المجال يمكن تخليصه، بما يأتي: إن فلسفة الجهاد الابتدائي هي إحقاق حق عظيم وكبير لا يعلو عليه حق أبداً، وهو حق الله وهو حق له سبحانه في عنق جميع عباده، من هنا يمكن أن يكون الجهاد الابتدائيّ نوعاً من أنواع الدفاع والجهاد الدفاعي، وهو ذود عباد الله عن حقه تعالى.

---

(١) الأنفال: ٣٩.

ورغم انتفاء الحرج في وضع الأسماء واستخدام الألفاظ، ولكن الحقيقة هي أن الجهاد الابتدائيّ لا يمكن أن يكون مصداقاً للدفاع والذود في ضوء المعنى الاصطلاحيّ لمفردة (الدفاع)؛ وإنما جعلناه جزءاً من مقولة الدفاع، ومعناه؛ لأنه أمر يعود في الواقع إلى باب بسط الاصطلاح وتوسيع مداه، وشمول رقعة استعماله، ولكن كيفما كانت الصورة فإن الأمر المهم هنا هو أنه لا يوجد شك أو نقاش في جواز الجهاد الابتدائيّ في الإسلام؛ سواء أسميناه دفاعاً أم قلنا إنه جهاد ابتدائيّ.

الفصل الخامس

سبل تربية المجاهدين وتشجيعهم

من المواضيع المهمة الأخرى المتعلقة بالحرب والقتال هي الاستعداد الروحي والمعنوي للمقاتلين، وصناعة الأجواء والظروف الخاصة بذلك، وإعداد السبل والطرق الكفيلة بتشجيع الجنود على الحرب، فإذا لم تتوفر الدواعي والحوافز اللازمة للمحاربين سيقل ويهبط مستوى أدائهم وقتالهم في أرض المعركة، فإن فرقة عسكرية واحدة لو كانت معنوياتها عالية وتقاتل بروح مندفعة يمكنها أن تهزم عشر فرق لا تملك الاستعداد والروح المعنوية، ويمكن أن نشاهد نماذج عديدة من الحروب التي حصلت عبر التاريخ تحكي لنا هذا الأمر وتفسره لنا، من هنا إن قضية التشجيع والاستعداد الروحي والمعنوي يمكن أن يعد من أولى العوامل التي تساعد الجيش على الغلبة والانتصار، وقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الموضوع عناية فائقة، وأولى له اهتماماً بالغاً؛ وذلك من أجل إيجاد الأرضية المناسبة، والأجواء الروحية والمعنوية التي تساعد المجاهدين على القتال، وقد استعمل أساليب مختلفة من أجل تحقيق ذلك، وسنتناول في هذا الفصل هذه الأساليب، وسنعرض بعض الآيات المتعلقة بكل واحدة منها:

أولاً: طريقة الترغيب والترهيب:

من الطرق التي كان الأنبياءعليهم السلام يمارسونها لدعوة الناس إلى الدين الحق، وأيضاً يستعملونها في تربية الناس وهدايتهم؛ من أجل التزامهم بالعمل، وقيامهم بالتكاليف في ضوء التعاليم الدينية والتكاليف الربانية؛ هي طريقة: الترغيب

والترهيب، أو التبشير والإنذار، ولذلك أطلق على الأنبياءﷺ اسم مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

ومعنى الترغيب والترهيب ليس سوى ما هو متعارف في الاستعمالات العرفية، وهو كما يعبرون عنه بالتشجيع والتحذير، ومن أجل بسط البحث وتحليله أكثر سنتناول موضوع الترغيب والإنذار في مضمار الحرب والقتال بنحوٍ منفرد بالإضافة إلى الآيات المتعلقة بكل واحد منهما.

١- نماذج من الآيات المتعلقة بالترغيب:

هناك العديد من الآيات القرآنية الشريفة تعرضت إلى موضوع ترغيب الناس وتشجيعهم وحثهم على الجهاد، فجاء في بعض الآيات الوعد بالنعم الأُخروية للمجاهدين، وجاء في بعضها الآخر الوعد بالنعم الدنيوية لهم.

ومن الطبيعي أن المحور الأساسي في تعاليم الأنبياءﷺ وإرشاداتهم هو السعادة الأبدية والنعم واللذائذ الأخروية، إذ إن النعم والسعادة الدنيوية لا يمكن مقارنتها إطلاقاً بالنعم والسعادة الأخروية الأبدية، ولكن من الطبيعي أيضاً أن هناك طبقة عريضة من الناس ولأي سبب كان سواء يتعلق بضعف الإيمان وقلة العزم والهمة، أم لأن الأمر يرتبط بسرعة النعم واللذائذ الدنيوية، أم لأي سبب كان تعتبر أن النعم والخيرات الدنيوية أكثر جاذبية واغراءً، وهي أقرب للقلب والفؤاد، لذلك تعد محركاً قوياً ودافعاً حسناً لغرس النشاط،

---

(١) البقرة: ٢١٣.

والسعي لدى هذه الطبقة من البشر.

من هنا إن القرآن الكريم في الوقت الذي رغّب المجاهدين، وبشرهم بالنعم واللذة الأخروية الأبدية، شجعهم أيضاً وحفزهم عن طريق وعدهم بنعم وخيرات دنيوية أيضاً، وهنا نعرض بعض الآيات المتعلقة بوعد الآخرة والنعم التي سيحصل عليها المجاهدون هناك، ومن ثم نتناول الآيات المرتبطة بوعد الدنيا والخيرات التي سيسبغها الله على المقاتلين في سبيله في هذا العالم.

البشرى بالنعم الأخروية:

كما أشرنا أن هناك مجموعة من الآيات القرآنية وضمن تعابير وكلمات مختلفة تبشر المجاهدين الذين قاتلوا في سبيل الله حتى بذلوا مهجهم ليتوجوا بوسام الشهادة، أو تضرروا وخسروا، وذهبت بعض أعضائهم جرّاء القتال، أو وقعوا في الأسر، أو الذين ذهبوا وشاركوا في الحرب، وقاتلوا العدو وناجزوه وخاطروا بأموالهم وأنفسهم، ورجعوا إلى أهلهم سالمين غانمين، فإن تلك الآيات تبشر كل هؤلاء بنعم عظيمة وحياة طيبة خالدة، وهذه الآية الكريمة إحدى الشواهد على ذلك: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

إن الآية الكريمة تقرّب موضوع القتال في سبيل الله عن طريق استعمال المعاملة التجارية والبيع والشراء (يشرون)؛ وذلك لأن هذا المعنى قريب من

---

(١) النساء: ٧٤.

الجميع ويفهمه عامة الناس، وهذا المعنى سيكون مؤثراً حتى في الذين يفكرون ببيع دنياهم مقابل النعم الأخروية الخالدة، ويحسبون هذا الأمر على هذا النحو من المعاوضة سوف يهبون ويسارعون للجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وعند قراءة هذه الآيات بدقة يمكن تقسيم المؤمنين على ثلاثة أصناف:

القسم الأول: طائفة من المؤمنين لا يستطيعون الجهاد؛ بسبب نقص بعض الأعضاء، أو الحواس، أو بعض قواهم الأخرى، أو لا يمكنهم القتال لداعي الفقر والحاجة فلا يمكنهم مواجهة أعداء الله الدين بالمال والنفس، وهذه الطائفة من المؤمنين معذورون بالطبع ويسقط عنهم تكليف الجهاد في سبيل الله، وذلك لأنه تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

القسم الثاني: طائفة أخرى من المؤمنين لديهم القدرة على جهاد الأعداء وقتالهم بالأموال والأنفس، ولكن هذا الجهاد ليس واجباً عينيّاً عليهم، وبناء على ذلك لا يُسألوا عن ترك الجهاد، أو يؤاخذهم الله بالعقوبة، أو العذاب جرّاء ذلك.

---

(١) النساء: ٩٥ - ٩٦.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

القسم الثالث: وهم الذين لديهم القدرة على الجهاد المالي والنفسي في مواجهة العدو، ونجحوا في أداء هذه الفريضة العظيمة، وهم المقصودون من لفظ (المجاهدين) في الآية، ولهم الأفضلية على (القاعدين) في الطائفة الثالثة، وكذلك يمكن أن يكون المراد من القاعدين أيضاً هم الطائفة الثانية أيضاً، لماذا؟ لأن الجهاد لوكان واجباً عينيّاً على فئة خاصة، وتمرّد بعضها وأبوا القتال، سوف يكونون مورداً للسحاب والمؤاخذة، وسيستحقون العقاب على ذلك، في حين يقول الله تعالى عن القاعدين ضمن الصنف الثالث أن لهم الأجر والثواب أيضاً: «وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى»، من هنا يكون التفاوت بينهم وبين المجاهدين بقلة الاجر، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقد أشارت هذه الآيات إلى إحدى المسائل التي ظهرت بوصفها ثقافة للمسلمين في الصدر الأول للإسلام تتعلق بشعيرة الحج، إذ كان لهذه الشعيرة أهمية ودور كبير لدى المسلمين والمشركين أيضاً، فالمعنيّون بستائر الكعبة والأشخاص الذي كانوا يسقون الحجيج ماءً، ويكرمونهم، ويضيفونهم يحظون بمنزلة خاصة، واحترام كبير لدى الناس، وكان هؤلاء الأفراد يعتزّون

(١) التوبة: ١٩ - ٢٢.

ويفتخرون بذلك السلوك وتلك الممارسة، ويعتبرونها السر في المكانة الرفيعة التي حازوها من بين الجميع.

ولكن الله تعالى حينما يرد على مباهاة هؤلاء الأفراد وافتخارهم بهذا العمل، يعلّم المسلمين في هذه الآيات الكريمة بما يأتي: إن مثل هذه الأعمال التي أصبحت مادة للتفاخر والتفاضل عند بعضهم لا تساوي ولا تبلغ أبداً منزلة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيل الله، من هنا لا ينبغي لأي شخص أن يُفتتن بمثل هذه الأعمال والمناصب، فيعتقد من يقوم بذلك ويتسلم تلك المنازل أنه قد وصل إلى درجة المجاهدين ومنزلتهم.

فأنّى لمكانة هذه الأعمال والممارسات أن تبلغ منزلة الإيمان والجهاد في سبيل الله وتتساوى معها، كيف يكون ذلك، وأن كثيراً ممّن اعتلى هذه المناصب وسلك هذه الأفعال مشرك وظالم وبعيد عن هداية الله وسبيله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

(١) التوبة: ٨٦ - ٨٩.

ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[١].

وهذه الآية تشبه الآية التي ذكرناها أولاً، إذ تحدثت بطريقة هي أقرب لفهم الإنسان واستئناسه؛ وقد ذكرت موضوع المعاملة التجارية، والبيع والشراء عندما أرادت أن تقرّب موضوع القتال في سبيل الله، وفي هذا السوق الذي يشتري الله تعالى من المؤمنين مالهم وأنفسهم ويكون ثمنها الجنة والنعم الأخروية الخالدة، يتم فيه عقد الشراء والتعاهد بين الله والمؤمنين، الأمر الذي ذكره الله تعالى في كتبه السماوية، وحيث لا يوجد عقد أو عهد أضمن وأقوى عرًى من عهده ووعده تعالى، لذلك يجب أن لا يتردد أحد في هذه التجارة، ويشكّك في الربح العظيم الذي ينتظره المؤمنون في هذا العقد، وهذه المعاملة والفوز والسعادة الكبرى التي تعقب ذلك.

وفي آية أخرى يعبر الله سبحانه وتعالى عن حبه للمجاهدين الذي يقاتلون في سبيله باستقامة وثبات: فيقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٢].

ويقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى: إن الإيمان والجهاد في سبيل الله تجارة

---

(١) التوبة: ١١١.

(٢) الصف: ٤.

مربحة، تنجي الإنسان وتخلصه من العذاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

البشرى بالنعم الدنيوية:

هذا وقد وعدت مجموعة أخرى من الآيات القرآنية الكريمة، وفي تعابير ومعاني مختلفة تعد المجاهدين في سبيل الله بالنعم والخيرات الدنيوية أيضاً، ليدركوا أن سعيهم مثمر، وجهودهم نافعة ومفيدة في هذا العالم أيضاً، وهذا الأمر سوف يدفعهم إلى المضي في أداء الواجبات والمهمات الخطيرة والجليلة.

ولكن لو لم يتضمن فعل الجهاد داعياً ربانيّاً، ونية صادقة للعمل بالتكليف، وخلا من قصد التقرب إلى الله تعالى، وكان باعث القتال هو الحصول على الجزاء المادي والدنيوي فقط، فمثل هذا العمل والسلوك ليس له أية قيمة في ضوء رؤية الإسلام وتعاليمه، وقد ركّزت على هذه الحقيقية روايات عديدة.

وقد جاء في بعض الروايات: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله عز وجل فقد وقع أجره على الله عز وجل، ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما نوى»[٢].

ونقل في بعضها الآخر: «أن رجلاً من المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي بعض

---

(١) الصف: ١٠ – ١٢.

(٢)بحار الأنوار: ج٧، باب: ٥٣، الرواية: ٣٨.

الكفار، و كان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار؛ لأنه قاتل رجلاً من الكافرين نية أن يأخذ حماره و سلْبه، فقُتل على ذلك فأضيف إلى نيته»[١].

وكيفما كانت الصورة إن الوعد بالنعم الدنيوية والخيرات المادية يمكن أن يؤثر أيضاً في سلوك كثير من الناس وعملهم، ويدفعهم لمواجهة العدو وتقوي ثباتهم واستبسالهم عند القتال، لذلك لم يغفل القرآن الكريم عن مثل هذه الوعود والبشائر، وذكّر بها في آيات ومناسبات عديدة، وينبغي الالتفات إلى أن هذا اللون من التربية والتهذيب لا يختصّ بتعليم المجاهدين وتوجيههم فقط، بل وظّف القرآن الكريم هذا الأسلوب أيضاً في مواطن عديدة غير الجهاد، وهنا نشير إلى بعض هذه الآيات الخاصة بتبشير المجاهدين بالمغانم والنعم الدنيوية، فيقول الله تعالى في أحد المواضع مخاطباً المجاهدين المسلمين: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾[٢].

وفي آية أخرى يكون وعده على هذا النحو: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٣]، وفي آية أخرى يقول: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

---

(١) جامع السعادات: ج٣، ص: ٨٩، (فصل النية روح الأعمال والجزاء بحسبها).
(٢) الفتح: ٢٠.
(٣) الفتح: ٢٧.
(٤) الصف: ١٣.

البشارة عن طريق مدح المجاهدين والثناء عليهم:

من الأساليب الأخرى التي يستخدمها القرآن الكريم، والتي يمكن أن تكون لوناً من ألوان الترغيب والتبشير، وغرس روح الاستعداد، ورفع المعنويات في نفوس المجاهدين، ودعوتهم للجهاد والقتال في سبيل الله هو أسلوب المدح، والإطراء على المجاهدين، وهنا نستعرض من باب المثال لا الحصر إحدى الآيات التي تتناول هذا المضمون، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فهذه الآية تقول: إن بعض المسلمين لو تخلّفوا عن أداء التكاليف المطلوبة منهم وعملهم، بل حتى لو ارتدّوا عن دين الله فلن يضرّوا الله بشيء، لأن غرضه سوف يتحقق ومبتغاه سيمضي من خلال أناس غيرهم، وتسلط هذه الآية الضوء على صفات هذا الصنف ومزاياه من الناس فتمدحهم وتثني على مواقفهم، فمن هذه الصفات أنهم يحبون الله ويحبهم الله، وتضيف الآية أيضاً أن هؤلاء يتواضعون أذلاء لعباد الله الصالحين، لكنهم أشداء أعزة على الكافرين، والأعداء، والمنكرين لتعاليم الدين، ويجاهدون في سبيل الله، ومن هنا تراهم لا يكترثون عند الحرب بالهزيمة والانكسار، ولا يخشون أن يلومهم أحد، وبالجملة لا يختلجهم أي قلق أو اضطراب من ذلك؛ بل انصبت كل جهودهم ومساعيهم على أداء التكاليف الإلهية، وأن يكونوا في أقصى درجات الانصياع والطاعة

---

(١) المائدة: ٥٤.

لأوامر الله تعالى، وفي ختام هذه الآية الكريمة يذكّر الله سبحانه بأن هذه الصفات والنعوت التي يتحلّى بها هؤلاء المجاهدون في النهاية هي عناية إلهية خاصة، وفضل، وكرم.

وعليه إن سياق هذه الآية ولحن الكلام الذي ورد فيها هو المدح العريض، والثناء الجميل للمجاهدين في سبيل الله، وبسبب وجود الخصال الحميدة، وأفضل تلك الصفات وأحزمها هي قتال الأعداء ومناجزتهم دون خشية لومة لائم، لذلك تراهم يستحقون كل هذا الإطراء من الله تعالى سبحانه، ومن الوضوح بمكان أن يكون هذا الأسلوب مؤثراً جداً، وله الأثر البالغ في نفوس المؤمنين والمسلمين، وموجباً لترغيبهم وتشجيعهم على مقاتلة أعداء الله ومحاربتهم.

٢- نماذج من الآيات المتعلقة بالإنذار والترهيب:

إن القرآن الكريم وكما استخدم الترغيب والبشارة، فإنه يتعرض أيضاً إلى العذاب الأخروي، والبلاء والمصائب الدنيوية عن طريق نهج الإنذار والترهيب، وذلك من أجل حثّ المجاهدين على القتال، والسر في هذا الموضوع أيضاً هو كما ذكرنا في أسلوب الترغيب والتبشير.

إن كثيراً من الناس يتأثرون أكثر بطريقة الترهيب والترغيب الدنيوي من الترغيب والترهيب الأخروي، ويسارعون للقتال والحرب عندما يشعرون بالثواب العاجل، ويخيفهم العقاب والبلاء القريب، على العكس من الثواب

والعقاب الأخروي، وهنا نتناول إحدى الآيات المتعلقة بذلك: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

وهذه الآية تحمل وعيداً وترهيباً لاذعاً وجاداً، فيحذر الله فيها الذين يتقاعسون عن أداء التكليف ويقصرون في تنفيذ الأوامر الإلهية، وينذر الذين مازالت نفوسهم متعلقة بالأهل والأحبة أو تهوى قلوبهم بعض الملذات المادية والذين يأملون بالراحة والاستجمام، وبسبب ذلك يمتنعون عن المشاركة في أمر بالغ الأهمية، ويتمردون على الأمر بالحضور في الظروف الصعبة، ويتوعدهم بتحطيم كل هذه الآمال والطموحات عن طريق الغضب والعقاب الإلهيين المحدق بهم.

والقرآن الكريم بعد أن يعدد بعض العقبات التي تمنع من المشاركة في القتال يشير هنا عبر لسان التحذير والوعيد إلى أن الإنسان لو كان يحب ذويه وأهله، ومن يحيط به أكثر من حبِّه وتعلقه بالله، ويفضل المال والتجارة والمسكن؛ وبنحوٍ عام الدنيا بمالها وجمالها، على نحو يكون ذلك التعلق والارتباط عائقاً أمام المشاركة في الجهاد في سبيل الله فإن هذا الأمر يؤدي إلى الفسق والمروق، ومثل هذا الإنسان عليه أن ينتظر حلول العقاب والبلاء عليه، ويرتقب العواقب المرة والخطيرة جراء عمله هذا من قبل الله تعالى، إن أقل درجة يحب العبد المؤمن فيها

(١) التوبة: ٢٤.

ربه تعالى هي أن لا تكون محبته له أقل منزلة من محبته للأشخاص أو الأشياء الأخرى، وأما لو تحدثنا عن الدرجات القصوى للإيمان فإن الإنسان المؤمن يبلغ درجة لا يعتبر أي شخص أو أي شيء له المحبة المستقلة والعشق الحقيقي سوى حبه وعشقه لله تعالى، وفي هذه المرحلة تستمد كل المجودات الأخرى محبتها في قلب المؤمن من محبة الله وعشقه، ولكن لو لم يبلغ المؤمنون هذه المرحلة من المحبة والعشق الإلهي، فيجب أن لا تكون محبة الله أقل منزلة ونصاباً في قلب المؤمن من محبة الأشياء الأخرى، والمتعلقات المادية، وصلة الأقارب والأرحام.

وأقل ما يتوقع من المؤمن هو ترجيح حب الله وتغليبه، والتعلّق به عندما يدور الأمر بينه وبين محبة الأشياء الأخرى، ويختار الطريق الذي فيه رضا الله سبحانه وتعالى وقربه، هذه هي أقل منزلة من منازل الحب والعشق للإله العظيم، وهي المرتبة التي يمكن أن تخلّص الإنسان من السقوط في الهاوية، ويقول تعالى في موضع آخر في هذا المضمار أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

هذه الآيات الكريمة تخاطب مجموعة من المؤمنين الذين ضَعُف تدينهم وإيمانهم، ويشمل هذا الخطاب أيضاً المنافقين الذي يتظاهرون بالأيمان والاعتقاد، لكنهم يماطلون في أمر الجهاد طبعاً، ويتعذرون عنه بسبب تعلقهم المفرط بالدنيا

---

(١) التوبة: ٣٨ - ٣٩.

وما فيها، ففي هذه الآيات الشريفة يعاتب الله تعالى مثل هؤلاء الأفراد لتثاقلهم إلى الأرض عندما يأتي نداء الجهاد ويتقاعسون عن المشاركة في القتال في سبيل الله، ولا ينهضون من أماكنهم عندما يُؤمرون بالنفر إلى مواجهة الأعداء، فيخاطبهم الله: هل استغنيتم عن الحياة الآخرة ورضيتم بمتاع الدنيا وحطامها؟! في حين لا يعتد إطلاقاً بالحياة الدنيا أمام الحياة الأبدية الخالدة، ولا يقاس خيرها وسعادتها بخير الآخرة وسعادتها، فلو لم تهبّوا لمقارعة العدو ومجاهدته فسوف يأتيكم عذاب عسير من الله، ويبدلكم الله تعالى بغيركم لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الحق والعدل، ومن ثم يقومون بأمر الله ويقاتلون اعداءه.

ويقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى في هذا السياق نفسه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

وفي هذه الآية يكون القرآن الكريم قد أعطى رسالة، وألقى مسؤولية الإنفاق في الجهاد في سبيل الله على عاتق القادرين على الجهاد المالي في المواقع الخلفية للجهاد، وعلى هامش الصراع الدائر، ليكونوا سنداً وظهيراً للمجاهدين في جبهات القتال؛ وليعينهم على التقدم؛ وبالنتيجة يعطيهم الأمل العريض بتحقيق النصر أمام الأعداء، لكنهم يبخلون في أداء هذه المسؤولية، ويمتنعون عن بذل أموالهم وإنفاقها في سبيل الله والجهاد ضد أعدائه، ويتبنّ أنّ النفقات والمساعدات المالية التي كانت تبذل عند نزول هذه الآية، وفي الصدر الأول للإسلام كان

(١) محمد: ٣٨.

أكثرها من أجل تغطية نفقات الحرب والجهاد في سبيل الله، وهي نفقات يرى المسلمون أنفسهم ملزمين بدفعها؛ لتكون حافزاً قوياً لنصرة المسلمين، وارتفاع راية الإسلام على دعوات الكفر، وهذا العمل أيضاً سيكون سبباً لافتخار فاعله واعتزازه وسعادته، الأمر الذي يمكن أن يناله أقل واحد من بين الفاعلين، وكيفما كان الأمر فإن الله تعالى يخاطب المسلمين القادرين على إنفاق المال في سبيل الحرب لكنهم يمتنعون عن ذلك، ولا يشاركون في دفع نفقات هذه الفريضة الالهية العظيمة وكلفتها؛ محذراً إياهم من كفهم عن دعم الحرب بالمال، إنكم لو أحجمتم عن الإنفاق فستستبدلون بأناس آخرين ليسوا بخلاء مثلكم، ولا يمتنعون عن الإنفاق في هذا المجال، وسيبذلون أمواهم في هذا السبيل برغبة وشوق.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وهذه الآية هي الأخرى من بين الآيات المتعلقة بالجهاد؛ التي تدل على هذه الحقيقة، وهي أن المسلمين لو امتنعوا عن إنفاق أموالهم في سبيل الله، ولم يمدّوا حرب المسلمين ضد إعدائهم بنفقات الحرب، فمن الطبيعي جداً أن يكون النصر حليف أعداء الإسلام في تلك الحرب، وبالنهاية سيقمع المسلمين أعداؤهم، وسوف يضيع منهم كل شيء، إذاً البخل والامتناع عن المشاركة في دفع نفقات الحرب ليس خسارة وهزيمة اقتصادية عند المسلمين فحسب، بل سوف يتلاشى

---

(١) البقرة: ١٩٥.

كل شيء بما فيه المال، والنفس، والعرض، والشرف، والكرامة، والهيبة، والموقع، والمكانة، والقدرة، والعزّة، والدين، والمذهب وكل ما سوى ذلك.

٣- الذم والعتاب على ترك الجهاد سبيل آخر للتحذير:

من الطرق الأخرى التي يعتبرها القرآن الكريم نافعة ومجدية في تحفيز المسلمين وتشجيعهم على الجهاد والتي يمكن أن تعد إحدى طرائق الإنذار والتحذير أيضاً هي معاتبة الذين يهملون الجهاد تجاه العدو، ويستسهلونه، ويعدونه أمراً يسيراً، وقد يؤدي هذا الموضوع إلى ترك الجهاد لدى بعضهم أحياناً، وفي هذا السياق يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾[1].

ومن الممكن أيضاً الإفادة من هذه الآيات الكريمة في أن هناك أناساً بين المسلمين كانوا ومازالوا يعتذرون عن الحضور في الحرب، وغالباً ما تكون الحرب صعبة وثقيلة عليهم، وعندما يبررون امتناعهم عن الحرب، ويعرضون العقبات التي أدّت إلى تراجعهم، وحالت دون مشاركتهم فيها، سوف يؤثر على الآخرين، فيخافون الحرب وقد لا يذهبون إلى ساحات القتال، ولم يبقَ تقاعس هؤلاء عند هذا الحد؛ بل لو هُزِم المسلمون في الحرب أمام العدو أو استُشهدوا أو جُرحوا

---

(١) النساء: ٧١ - ٧٣.

فيها، سيقولون لقد أكرمنا الله ولم نُبْتَلَ بهذه المصائب والآلام التي لحقت بالمسلمين، ولو كنا قد ذهبنا إلى الحرب، وشاركنا فيها، لم نبق سالمين، ولَلَحِق بنا ما لحق بهم، وأما لو هُزم العدو وانتصر المجاهدون المسلمون، وكسبوا غنائم من الأعداء، هنا يقولون: يا ليتنا كنا قد وفقنا للمشاركة في القتال، وجاهدنا معهم فنحصل على هذا الفوز وهذه الغنائم، وكأن شخصاً وقف حائلاً دون حصولهم على التوفيق للحضور والمشاركة في القتال، أو يتمنون لو أن أرواحهم كانت في عالم آخر لأخبروا عن مصير الحرب والقتال.

ومن الواضح أن هذه الآية الكريمة ومن خلال استعراض الصور والأقوال التي ذكرها المتقاعسون عن الجهاد، توبّخ هؤلاء وتلومهم عن انزوائهم جانباً، وتعاتبهم على النفاق والدجل الذي يمارسونه في الصورتين كلتيهما : انتصار المسلمين أو هزيمتهم سعياً منهم في تبرير سلوكهم بذرائع مكشوفة.

وفي موضع آخر نرى أن الله تعالى يذم الذين يخافون من المشاركة في الحرب، فيقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[1].

لم يصدر الأمر بالجهاد في بداية الدعوة الإسلامية، حينما كان المسلمون في مكة، وكذلك في بداية الهجرة إلى المدينة؛ والسبب في ذلك يعود إلى أن عددهم قليل جداً، وكانت كل الظروف غير مؤاتية لذلك إن لم تكن في ضررهم، وكان

---

(١) النساء: ٧٧.

المسلمون مكلفين في تلك المرحلة بالإعداد النفسي وصناعة الذات، لكن بعض المسلمين كانوا يعترضون على النبي ﷺ لعدم إذنه بقتال المشركين ومواجهتهم، وما إن جاء الإذن بالجهاد، وأعطى النبي ﷺ أوامره للمسلمين بقتال المشركين؛ إلاّ أننا نجد كثيراً من هؤلاء بدؤوا يماطلون في المشاركة في الحرب بذرائع مختلفة، ويختلقون الاعذار لينأوا بأنفسهم عن الحرب ويتملصوا منها، ففي هذه الآية نرى أنَّ الله يوبّخ مثل هؤلاء، ويعاتب الذين كانوا ينادون بالحرب قبل أوانها، ويطلبون من النبي ﷺ مواجهة الأعداء، ولكن بسبب الأعذار الواهية التي قدموها للتملص من المشاركة في القتال بعد صدور الأمر به استحقوا اللوم والعتاب وقد جاء في هذه الآية الكريمة.

ثانياً: الأساليب الخاصة بتشجيع المجاهدين وتربيتهم:

إن توظيف أسلوب التبشير والترغيب، أو الإنذار والوعيد لا يختص بموضوع دعوة المؤمنين للجهاد، ولا يتعلق فقط بالقتال في سبيل الله؛ بل هي طريقة عامة يستخدمها الأنبياء عليهم السلام في مجالات متعددة؛ من أجل الوصول إلى أهداف ومقاصد سامية مختلفة، وفي ما نحن فيه نجد أن هناك العديد من المواضيع والواجبات، ومنها موضوع تشجيع المؤمنين على الجهاد ودعوتهم للحرب، فبالإضافة إلى استخدام هذه الطريقة العامة، وتسخير سبيل الترغيب والترهيب فيها، فإن هناك طرقاً خاصة استعملت لتحفيزهم على أداء تلك الواجبات وتطبيقها، وفي ما يأتي نعرض بعض الطرق الخاصة التي ذكرت في القرآن الكريم من أجل تعزيز اندفاع المسلمين للقتال، وتشجيعهم على المشاركة

في الحرب والجهاد في سبيل الله.

أ) إثارة غريزة الانتقام وإحقاق الحق:

من الأساليب والطرق التربوية الخاصة التي تناولها القرآن الكريم لترغيب المسلمين على القتال هي إثارة غريزة الدفاع، وروح الاقتصاص، ونزعة الانتقام من العدو، والتعطش للدماء؛ وهي غرائز موجودة في أعماق الإنسان وفطرته.

إن طبيعة كل إنسان بالذات؛ بل سجية كل حيوان بالطبع هي الدفاع عن نفسه، والذود عن حقوقه أمام المعتدين والمتجاوزين، وجزء من ردود فعله أنه يجازي ويعاقب كل من يظلمه ويتعدى على حدوده وينتقم منه، من هنا جاءت بعض آيات الجهاد بلسان إثارة تلك المكامن البشرية، وفي سياق تفعيل الغرائز المودعة في ذات الإنسان، وتدعوه لإحقاق الحق، والانتقام من الكفرة والمشركين، وبهذا الخصوص يخاطب الباري تعالى المسلمين بما يأتي: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة وظفّت إحدى الحقائق النفسية، واستعملت واحدة من المكامن الباطنية للإنسان، فنجد أنَّ الله تعالى يؤكد ويذكر بحقيقة مرة عاشها المسلمون، وهي أن العدوّ طالما قاتل المسلمين وهاجمهم، وألحق بهم ألوان العذاب، والغرض من ذلك هو إثارة حس الانتقام في نفوس المسلمين؛ حتى لا يترددوا في قتال الأعداء، أو يتباطؤوا في ذلك، ويسارعوا في الانتقام منهم،

(١) البقرة: ١٩٠.

وإجراء القصاص بحقهم، ومن الممكن جداً أن يستخدم الباري تعالى بعض التعابير الأخرى من أجل بيان أمر القتال والجهاد، وبدلاً من أن يورد الآية المذكورة، يقول مثلا: «قاتلوا في سبيل الله المشركين»، أو يقول مثلا: «قاتلوا في سبيل الله الذي اشركوا»، أو يقول تبارك وتعالى: «قاتلوا في سبيل الله الكفار»، أو«الذين كفروا»؛ لكن كل من هذه الجمل والكلمات لا يمكن أن تؤدي الغرض والمعنى المراد إيضاحه، وهي النكتة النفسية التي أشرنا إليها آنفاً.

وفي هذه الآية يمكن القول أن جملة «الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» تشعر - كما يعبرون - بالسببية والعلّية، أي إنهم لمّا قاتلوكم وحاربوكم، فعليكم أن تقاتلوهم أيضاً، من هنا سيتحمس المسلمون للدفاع عن أنفسهم ويبادرون لمقاتلة من قاتلهم، وفي آية أخرى يقول الله تبارك وتعالى: «وأخرجوهم... أخرجوكم»؛ ومن هنا وشيئاً فشيئاً تبدأ روح الانتقام بالتعاظم، وشعور الأخذ بالثأر بالتنامي والازدياد في نفوس المسلمين، حتى يصمموا ويمضوا لقتال الأعداء ومحاربتهم، وينهضوا بحزم لمواجهتهم، وألّا يندموا على أي سعي أو جهد في هذا المجال.

ويقول في آية أخرى أيضاً: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة - كي يحفز المؤمنين على القتال ويشجعهم على المواجهة - نجده يذكرهم بأن هؤلاء المشركين هم الذين نقضوا العهد

---

(١) التوبة: ١٣.

معكم، وخرقوا اتفاق عدم التجاوز عليكم والتعرض لكم، وهم الذين أخرجوا زعيمكم وقائدكم وهو رسول الله ﷺ، وأجبروه على ترك موطنه مكة المكرّمة، وبيته، ومحيطه، وأهله، وأقاربه؛ فاضطر للهجرة إلى المدينة، وهم الذين بادروا لقتالكم، وابتدؤوا بمحاربتكم، فهم أول من أعلن الحرب عليكم لا أنتم، لم يبق إذاً أمامكم أي حلّ لمثل هؤلاء أو طريقة يحسم فيها الأمر سوى مقاتلتهم دون خوف أو خشية منهم، فالله وحده أحق بالخشية.

اللافت هنا أن الآيات التي تلت هذه الآية تتضمن كلاماً أكثر صراحة، وتحتوي على حديث أكثر وضوحاً من قبيل: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، و ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[2]، ومثل هذه الآيات فيها إشارة واضحة إلى حقيقة نفسية لها تأثير بالغ في باطن الإنسان وجوانحه، إذ تشجّع المؤمنين وتخاطبهم أن ارووا عطش الانتقام في نفوسكم عبر مقاتلتهم، وأذهبوا غيظ قلوبكم عبر مناجزتهم ومحاربتهم حتى تطمئن قلوبُكم وتهدأ نفوسكم.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[3].

وفي هذه الآية الكريمة يلفت الله تبارك وتعالى نظر المسلمين إلى هذه الحقيقة؛ وهي أن المشركين عندما قاتلوكم فإنهم جاؤوكم بكل قوتهم وقدرتهم

---

(١)التوبة: ١٤.

(٢) التوبة: ١٥.

(٣) التوبة: ٣٦.

وإمكاناتهم، والقصد من إثارة هذه النقطة أيضاً هي إثارة غريزة الانتقام لدى المسلمين عندما يواجهون جيش العدو.

وفي موضع آخر يقول الله تعالى أيضاً: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

في هاتين الآيتين الكريمتين يذكر الله سبحانه المسلمين أن الأعداء والمجرمين يستحقون وبأي لحاظ كان المواجهة والقتال؛ لأنهم بدؤوكم بالحرب أولاً، وهم الذين ساقوا المسلمين بأشد العذاب وظلموهم وسحقوا حقوقهم، لاسيما عندما أخرجوهم من وطنهم وديارهم وشرّدوهم. ثانياً، ذلك أن المسلمين لم يرتكبوا بحقهم أي جرم أو أذًى، ذنبهم الوحيد أنهم أصبحوا مسلمين، يعبدون الله لا شريك له، ولذلك فقط وقعت عليهم كل هذه المحن والمصائب من لدن الكفار والمشركين.

وبعد أن يذكر الله المسلمين بهذه الحقائق والصور التي عاشوها معاً يريد منهم أن لا يستسلموا بعد الآن؛ ولا يخضعوا للجائرين والظلمة، وأن لا يقبلوا بالذلة والهوان؛ بل عليهم مقاتلة الأعداء الذين تجاوزوا عليهم، وأن يحاربوا ويدافعوا عن شرفهم ومكانتهم ومعتقداتهم ووجودهم مقابل هجمات الأعداء وغاراتهم، وعليهم أن يدركوا أن الله سوف يعينهم ويساعدهم، وأول مرحلة من

---

(١) الحج: ٣٩ - ٤٠.

إعانة الله تعالى لهم هي الإذن لهم بالقتال والدفاع والجهاد في سبيل الله والتي ذكرت في هذه الآية، وهي ستكون نصرة تشريعية لتبرير الحرب، مضافاً إلى أن الله تعالى لا يكتفي بمدِّ المؤمنين ومساعدتهم بالإذن بالقتال فقط؛ بل وضمّن تأكيده على أن المسلمين كانوا يدافعون عن أنفسهم عندما بدأ العدو بمهاجمتهم أولاً؛ فكان قتالهم دفاعاً عن النفس ومقابلة بالمثل، ومع أنه يذكر بحقيقة أن الأعداء كانوا قد قصروا بحقهم دون أي ذنب ارتكبوه عندما شردوهم من ديارهم، وأخرجوهم من وطنهم، فإنه مع كل ذلك يحرّك غريزة الدفاع، والقصاص، والأخذ بالثأر في نفوس المسلمين وأرواحهم، ويغرس في أعماقهم الإحساس بالانتقام من هؤلاء الظلمة العتاة.

ب) إثارة العواطف الإنسانية:

السبيل التربوي الآخر الذي يستخدمه القرآن الكريم في موضوع تحفيز المجاهدين، هو تحريك المشاعر والعواطف الإنسانية إزاء ما يصنع بالمستضعفين والمظلومين، وهنا ينبغي الالتفات إلى أنه لا يمكن تقييم العواطف البشرية والأحاسيس الباطنية للإنسان بذاتها وبنفسها، ولا يصح أن تكون إيجابية، أو سلبية بحد ذاتها، أو تكون موطناً للإطراء، أو الذم بمجردها؛ بل إن هذه الأمور تكون تابعة لمتعلقاتها، وطبيعة توظيفها، وطريقة الاستفادة منها، وانطلاقاً من هذه النقطة المهمة فإن التعاطي مع هذه المشاعر والعواطف يمكن أن يكون في مساره الصحيح فيكون العمل بها في ضوء الأحكام الشرعية والعقل، ويمكن أن يتحقق العكس أيضاً، فتسخّر لمسالك خاطئة، وتستخدم في مضان غير صحيحة،

فتبعد الإنسان وتقصيه عن السير في الصراط والخط المستقيم، وتنأى به عن نهج الأحكام الشرعية والعقل.

ومن العواطف الإنسان الصادقة هي مشاعره وأحاسيسه إزاء أهل نحلته وديانته ورغبته بالخير والسعادة لهم، والقرآن الكريم عبر توظيف هذه العاطفة وتحريكها وتقويتها وإثارتها رغّب المسلمين وشجّعهم على الحرب بوجه الظلمة والمستكبرين الذين ظلموا وقتلوا وعذّبوا أهلهم وإخوانهم، وبذلك ألزمهم بحماية المستضعفين والمظلومين، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[1].

وفي هذه الآيات تقريع ولوم صريح من الله تبارك وتعالى للمسلمين لعدم قتالهم المشركين، وهو تنديد بصمت المسلمين، وعندما يخاطبهم: ألم ينظروا إلى أهلهم وذويهم من النساء والرجال صغاراً وكباراً وهم يرزحون تحت ظلم العدو وقسوته، ألاَ تسمعون نداءاتهم، وصرخاتهم، واستغاثتهم، وطلباتهم الحثيثة بالنجدة، فهو يريد من كل ذلك في الواقع إثارة العاطفة الفطرية لدى الإنسان، وتهييج طبيعة الحنو والرقة المودعة في أعماقه إزاء المسلمين؛ من أجل تخليص أولئك المستضعفين من قبضة الجور والظلم، ويسارعون إلى إنقاذ الذين وقعوا الآن في طوق القهر والأذى، ويقصد بذلك تشجيعهم على تحرير الضعفاء الذين لا يملكون الحيلة، ولا يمكنهم وحدهم ومن دون مساعدة الآخرين الخروج من

---

(١) النساء: ٧٥.

سطوة المشركين والكفار الظلمة.

ج) عرض الأهداف المقدسة للجهاد:

من الأساليب التربوية الأخرى الخاصة التي يتناولها القرآن الكريم لإغراء المجاهدين، وحثهم على القتال، هي بيان الأهداف النزيهة، والأغراض المقدسة السامية للحرب والجهاد الإسلامي المخلص، ذلك أن الاطلاع على هذه الأهداف والمقاصد، سوف يعزز روح الاستبسال والمواجهة ويدفع بالمسلمين للجهاد، ويكون ذلك سبباً لاطمئنانهم أكثر، ويجعلهم يصممون بحزم، فيقتحمون ساحة المعركة بقليل من القلق والخوف، ويقاتلون الأعداء بمعنويات عالية.

ومن جملة الآيات التي تناولت هذا الأسلوب، ووظّفت هذه الطريقة هي في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[1] «وقاتلوهم... لله».

وفي الآية التاسعة والثلاثين من سورة الأنفال تتكرر عين هذه الجملة، مع تفاوت واحد وطفيف جداً، وهو أن جاءت بعد كلمة (دين) كلمة (كله).

وفي هذه الآية الشريفة يبيّن الله تعالى أن هدف الجهاد هو استئصال الفتنة ومحوها، وإشاعة الإسلام، وتعزيز حاكمية دين الله في الأرض، حتى تقوى شهية المسلمين للقتال، وترغّب نفوسهم في مواجهة العدو ومحاربته، فلو التفت المسلمون إلى حقيقة أن الحرب ضد أعداء الإسلام سيؤدي إلى هذه النتائج،

---

(١) البقرة: ١٩٣.

وسوف تنتهي بهم إلى نتائج غاية في السمو والرفعة، سيسعون بحماس أكثر، وسيتحملون الصعاب والمحن التي تواجههم في الحرب كافة، وبأسلوب لافت.

د) المجاهدون بوّابة لتحقيق الإرادة الإلهية:

من الطرق الخاصة في التربية القرآنية المتعلقة بجهاد المسلمين هو ما يبينه القرآن الكريم من حقيقة عميقة عليا، وهي أن المجاهدين هم طريق الله وبابه، وهم في الواقع يد الله وأداته، وسبل تحقق الأهداف والأغراض الإلهية، ومعلوم أن الالتفات إلى هذه النقطة يؤدي إلى إدراك المجاهدين حساسية العمل، وإدراك حساسية موقعهم، وحقيقة المكانة التي هم فيها، وبذلك سوف يعلوهم الحماس أكثر للإقبال على الحرب، وتحمل شتى أنواع المتاعب والآلام الشاقة التي تقع على عاتقهم جرّائها.

إن الوعي بهذا الموضوع سوف يؤثر تأثيراً إيجابياً عميقاً سيتجلى في نفوس المجاهدين، وبعد اطلاعهم على هذه الحقيقة سوف يشعرون في الواقع بحقانية ما يصنعون وقدسيته، وسيدركون عظمة العمل الذي يبادرون إليه، وسوف يعتقدون جرّاء الوعي بتلك الحقيقة بسمو المنزلة، وعلو الدرجة التي هم فيها.

والآية الشريفة الآتية يمكن أن تكون إحدى مصاديق استخدام هذا اللون من التشجيع والترغيب لدعوة المجاهدين إلى القتال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]، أي إنكم بلغتم من السمو

(١) الأنفال: ١٧.

والرفعة بحيث إنّ قتلكم للعدو هو بمنزلة قتل الله لهم، وأن ما تفعلونه هو فعل الله تبارك وتعالى.

وفي آية أخرى يقول سبحانه في هذا السياق: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾[1].

أي إنكم أدوات وسبل لتحقيق فعل الله تعالى وإجرائه، وأن الله يصيبهم ويضربهم بوساطتكم ويلحق بهم البلاء والعذاب عن طريقكم.

هـ) الوعي بالعوامل الرادعة والمثبطة:

هناك العديد من العوامل والأسباب التي تلعب دوراً في الحيلولة دون المشاركة في مرحلة الجهاد والقتال، وتكون مانعة لكثير من الأفراد عن الحضور والمساهمة في هذه الوظيفة، وفي إطار التعاليم والدروس التربوية التي يعطيها القرآن الكريم للمجاهدين هي الانتباه والوعي بمثل هذه العوامل وعدم التغافل عنها، ويحاول من خلال بعض التعاليم الخاصة إبطال تلك العوامل وتسويفها.

ومما لاشك فيه أن كل حرب تلحقها العديد من المتاعب والأذى شئنا أم أبينا، كالخسائر، والصعاب، والخيبة، والإخفاق، ونقص الأعضاء وفقدان الحياة أيضاً، إن طبيعة هذه الحوادث المرّة، والتبعات الفادحة للحرب هي التي تقف عادة وراء امتناع كثير من الناس عن المشاركة في القتال والمعارك الضروس، والقليل جداً من الناس يعتبرون كل هذه المصائب والمحن والآلام التي تنتظر

---

(١) التوبة: ١٤.

المقاتل في المعركة، وحتى الموت في سبيل الله فوزاً وفلاحاً، فيواجهون العدو ويقاتلونه دون الالتفات إلى تبعاتها، هناك يتلاشى كل شيء في سبيل الله.

عندما يذكر القرآن هذه التعبات والآثار التي تلحق ظاهرة الحرب يأتي عليها ويسوّفها، ويعتبر دورها دوراً سلبياً، ويعتبر دواعيها مثبطة وأنها ليست سوى جزءٍ من إلقاءات ووساوس الشيطان فيبعدها عن المجاهدين، ليس ذلك فحسب؛ بل يصنف تلك الآثار ويدحضها، ويذكر بعض الملحوظات عن كل واحدة منها، حتى تبلغ كل واحدة منها درجة من الضعف والوهن بحيث لا تستطيع أي واحدة منها أن تقف حائلاً دون مشاركة المسلمين في الحرب، ولا يمكنها أن تمنعهم من أداء وظيفتهم وواجبهم في الحرب، وفي ما يأتي نتناول بعض هذه الملحوظات:

١- تعويض الخسائر الاقتصادية:

إن الفقر والعوز المالي والضغوطات الاقتصادية الناشئة من الحرب؛ إذ تنقطع العلاقات الاقتصادية والتجارية ويبدأ الحضر الاقتصادي في زمان الحرب، وهذا الأمر يؤدي بكثير من الناس إلى مخالفة الحرب، وهذه المسألة استحوذت على أذهان العامة، واستشرت بين أفكارهم وقد تجاوزت حجمها الطبيعي، حتى بلغ الأمر أن الامم والشعوب باتت مستعدة للقبول والرضا بالذلة والهوان، وتتحمل ظلم الطغاة والجبابرة، إذ تتجنب دخول الحرب مع المعتدين على مياههم وأرضهم.

وفي إطار إبطال هذه العوامل وإفسادها يَعِد الله تبارك وتعالى المسلمين والمؤمنين والمجاهدين بالتعويض، فيذكر أن مثل هذا الفقر، والحرمان، والضغوطات الاقتصادية الحاصلة جرّاء الحرب بجبرها وتعويضها لهم، وفي هذا السياق نشير إلى هذه الآية الكريمة: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

إن ما يريده الله تبارك وتعالى في هذه الآية هو أن المشركين أناس نجسون، ويجب أن لا يقربوا إلى المسجد الحرام بعد الآن، وهذا الأمر بنفسه مقدمة إلى الحرب والمواجهة بين المسلمين والمشركين، وسيؤدي في نهاية الأمر إلى قطع العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الطرفين، وحينئذٍ تصل المرحلة إلى فقدان بعض الفوائد الاقتصادية بسبب قطع العلاقة مع العدو، وهذا الموضوع بالذات هو الذي يمكن أن يؤدي إلى إيجاد الاضطراب والقلق في نفوس المسلمين لمواجهة المشركين، ويزعزع إرادتهم في القتال، من هنا إن القرآن الكريم وبعرض هذه القضية في هذه الآية يخاطب المسلمين ويقول: إنه لو اقتضت الحكمة الإلهية أن يجعلكم الله اغنياء ميسورين لأزال هذا القلق الذي في نفوسكم من هذا الجانب، ويقذف في قلوبكم الاطمئنان والسكينة، ويرزقكم الاعتماد الضروري على النفس.

---

(١) التوبة: ٢٨.

٢- الفهم العميق لموضوع القضاء والقدر:

حتى لا تكون المصائب والمحن والشدائد وشتى أنواع الحرمان والمشاكل التي لابد من أن تقع على المجاهدين في سبيل الله والمشاركين في الحرب ضد العدو مانعة من المشاركة في القتال، فإن القرآن الكريم يعلّم المسلمين ويربيهم على هذه الحقيقة، وهي أن جميع هذه الأمور والحوادث التي تقع في العالم إنما تجري وفق نظام التقدير والتدبير الإلهي، وإن المسلمين الذين تعلموا من مدرسة القرآن الكريم يعلمون جيداً أن الله تعالى جعل لكل الموجودات نظاماً حكيماً وتخطيطاً دقيقاً وعادلاً، وعبر هذا التخطيط لا تخرج أي واقعة أو حادثة عن الإطار والنظام الذي يدير الله سبحانه في ضوئه كل العالم، وعليه فإن كل مايقدره الله تعالى سيقع ويكون.

إن الالتفات إلى هذه الحقيقة يجعلنا ندرك أن كل شيء يقع ويحدث في هذا الكون، ومن جملة ذلك المصائب والمحن والمشاكل التي تواجه المجاهدين، إنما هو من ضمن النظام العام للخليقة، وسيجري في ضوء الحكمة والعدل الإلهي، وأن حصول مثل هذه العقد والبلايا إنما هو حصول حتميٌّ ووقوعها قطعيٌّ أيضاً، ومثل هذه الحقيقة وهذا الاعتقاد سوف يؤثر جداً في تقوية روح الاعتماد على النفس لدى المجاهدين وتعزيزها، وستبعث هذه الرؤية في الإنسان عدم المبالاة بعد الآن بفقدان المال، والصحة، والأمن، والهدوء، والسكينة، والراحة، والاسترخاء، وسوف لا يعبأ بهجران الزوجة والأولاد؛ بل إن القلق والهاجس الذي يرافق المرء عادة بسبب هذه الأمور عندما يقدم على القتال لا يمنعه أبداً،

ولا يشغله إطلاقاً عن المشاركة في الحرب.

لقد كان المجاهدون في بداية الدعوة الى الإسلام وبسبب إيمانهم وعنايتهم الخاصة بموضوع القضاء والقدر الرباني؛ ولأنهم يعلمون جيداً بأن كل ما قدره الله تعالى سيقع بنحوٍ طبيعي حتماً ويحدث دون شك، فإنهم كانوا يعيشون حالات معنوية عالية جداً، ويستقبلون الحروب بروح عازمة، وقلب ملؤه القوة والشجاعة الكبيرة، ويسطرون في المعارك أروع صور الاستبسال والإقدام، لماذا؟ لأنه مع وجود هذه العقيدة سوف يضمحل أي لون من ألوان القلق، ويذوب كل هاجس أمام هدفهم.

إن مثل هؤلاء كانوا يعتقدون أن أجلهم إذا جاء فسيكونون في خطر منه؛ حتى لو رجعوا إلى منازلهم، وسوف يدركهم الموت حتى لو استلقوا على فراشهم، وإلا فإن السلامة ستكون حظهم حتى لو كانوا في جبهات القتال؛ أجل، إن هذا الإيمان هو رمز الشجاعة، والإقدام، والاستبسال، والصولة على العدو من دون حذر أو خوف، على أمل أن ينالوا إحدى الحسنيين، إما الشهادة في سبيل الله أو النصر على الأعداء وهزيمتهم وكسر شوكتهم.

يقول تعالى في هذا السياق: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٢٢) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾[1].

ويقول كذلك في آية أخرى في هذا الموضوع نفسه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا

(١) الحديد: ٢٢.

بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١].

فلو لاحظنا الأصول الدينية والعقائد الإسلامية المعطاءة، وأخذنا بنظر الاعتبار ذلك النحو من التعاليم الخيرة، نجد أنها تعتمد على القواعد العلمية وتركن إلى أصول علم النفس الدقيقة، وهي التي أشار إليها تبارك وتعالى في موارد متعددة، ففي الآية المذكورة آنفا يعلّم القرآن الكريم المسلمين موضوع القضاء والقدر، ومن جهة أخرى يلفت عنايتهم إلى النكات النفسية والشؤون الباطنية الدقيقة في أعماق الإنسان، وآثارها ونشاطاتها الداخلية، فيرشدهم إلى أنهم لو تحلّوا بالإيمان بالقضاء والقدر لحصلوا على الشجاعة والكرم، ولطالهم الهدوء، والسكينة، والاطمئنان، ولن يكترثوا بفقدان النعم والطيبات، أو الحصول عليها، ومثل هذه الأمور لن تكون مؤثرة في قراراتهم المهمة، وإراداتهم الضرورية.

إن الآيات المذكورة آنفاً تشمل مطلق الحوادث والمصائب، وهي أعم من أن تكون مصائب ومحن قتالية أو غيرها، ولكن هناك آيات أخرى في القرآن الكريم تتعرض بالخصوص إلى النكبات والأذى الذي يحصل جراء الحرب والبلايا التي يواجهها المجاهدون في أرض المعركة، والتي يعتبرها القرآن الكريم أيضاً لونا من ألوان القضاء والقدر الذي خططه ورسمه الباري تعالى والذي أعدّ حدوده ومساره من قبل، فالذي لم يرد الباري سبحانه أذاه، فلن يلحقه الأذى إطلاقاً، ومن جملة تلك الآيات الكريمة التي تشير إلى هذه الحقيقية هي قوله تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) التغابن: ١١.

﴿أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[1]، وفي آية أخرى وفي هذا السياق أيضاً يقول سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[2].

إن بعض المسلمين لم يكونوا فرحين بالمشاركة في الجهاد، ولا راغبين في المساهمة في القتال، ولكن يكذبون على المجاهدين؛ فيقولون لهم: لو استطعنا لحاربنا معكم العدو، و لشاركناكم القتال في المعركة، ويحلفون على قولهم هذا ويقسمون على ذلك، وبعضهم الآخر يطلبون من النبي ﷺ أن يعفو عنهم لعدم المشاركة في الحرب، ويأذن لهم في الانصراف عن القتال، وفئة ثالثة كانت تمتعض لو أصبحت الحرب لصالح المسلمين، وتنزعج لانتصارهم، ولكنهم في مقابل ذلك يفرحون عندما يخسر المسلمون المعركة ويبتهجون حينما يصاب المسلمون بالأذى، ويبتلون ببعض المصائب، فيقولون: نحن كنا نتوقع مثل هذه الرزايا والمحن من قبل؛ من هنا احترزنا في تصرفاتنا وقراراتنا، واحتطنا في التدخل في هذه الحرب، من هنا يريد الباري سبحانه من نبيه الكريم أن يقول لجميع هذه الفرق والمجاميع: نحن لا نخشى مثل هذه المحن والبلايا الدنيوية، وذلك لأننا نعي جيداً أن كل ما يقع من مصائب وأذًى فهو يحصل في دائرة التقدير الإلهي، وفي ضوء التخطيط والتدبير الحكيم السابق للمولى سبحانه.

---

(١) آل عمران: ١٦٦.

(٢) التوبة: ٥١.

٣ - الالتفات إلى شمولية البلايا والبعد الإيجابي لذلك:

من جملة المسائل التي أوصى بها القرآن الكريم المؤمنين، وذكّرهم بأهميتها هي أن المصائب والوقائع المرّة التي تحدث في ساحة القتال لا تحصل للمسلمين والمجاهدين فقط؛ بل يتفق حصول مثل هذا الأذى والألم للأعداء أيضاً؛ فيعذبهم ويرهقهم كذلك، من هنا إن الطرفين يشتركان في مواجهة صعاب وعقد الحرب وأذاها، ولكنّ هناك تفاوتاً مهماً وأساسياً بين عناء الطرفين؛ فيميّز حالة المسلمين عن وضع الكفار وحالتهم، ويمكن أن يعود هذا التفاوت بين الطرفين إلى أمرين:

الأول: إن المسلمين يستمدون الدعم الغيبيّ، والنصر الإلهي؛ في حين يحرم العدو من هذا المدد والدعم الربانيّ، وعلى الرغم مما يتفق كثيراً من قلة العدة والعدد في جانب جيش المسلمين، وضعف القدرة والاستعداد الظاهريّ في صفوف العدو، ولكن في النهاية وبنحوٍ لافت يكون النصر حليف المسلمين؛ فيأخذونهم على حين غِرّة ويلحقون بهم الهزيمة، ويفاجئون جيش العدو بالانكسار.

الآخر: هو أن المسلمين سيحظون في مقابل كل المحن والأذى التي تحصل جراء الحرب وحتى بلوغهم منزلة الشهادة، سيحظون بأجر عظيم عن هذا الجهاد والشهادة من الله تبارك وتعالى، في حين لا يحصل الأعداء إلا على العقاب والعذاب.

يقول تعالى في إحدى الآيات الكريمة ضمن هذا السياق: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾(١).

وعليه فليس من اللائق أن يخاطر السائرون في طريق الباطل، ويغامر الذين لا يملكون أي مصدر لأي قوة غير طبيعية، ولا أمل لهم وراء هذه الحياة، فتجدهم يخاطرون بكل ما يملكون، في حين يخشى المسلمون مع أنهم ينتظرون النصر الإلهي في الدنيا، ورغم أنهم يعتقدون بالرحمة الربانية التي ستدركهم في الآخرة، وأجر الجهاد العظيم هناك؛ لتعلّق أفئدتهم بالشهادة، رغم كل ذلك تجدهم يعجزون عن تحمل صعاب الحرب المرة ومحنهم، فيسلكون للهروب منها الحيل، ويلقون الأعذار تلو الأعذار من أجل الامتناع عن المشاركة في الحرب، ألا يجب أن تكون دواعي إقبال السائرين في درب الجهاد على الحرب والقتال أقوى وأكثر حماسة من الباعث والحافز الذي يدفع أهل الباطل إلى مقاتلة المسلمين ومحاربتهم؟!

وفي آية أخرى يواسي الله المسلمين فيقول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾(٢).

وفحوى هذه الكلمات هي أن الجرح والقرح، وما يحصل في ساحة القتال من أذى، أو ألمٍ أو فقدان لبعض الأعضاء ونحوها من الحوادث الصعبة أمر لا

---

(١) التوبة: ٥٢.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

يتحقق للمسلمين فقط؛ بل هو أمر يشترك فيه مع العدو أيضاً، فعليكم أيها المسلمون بالصبر، والثبات، والتحمل، وترقب اللطف والرحمة الإلهية والنصر على أعدائكم، وعليكم أن لا تنسوا أن هذه الحوادث تحصل في صفوف العدو أيضاً، فلا تجعلوها سبباً للتوقف عن مواصلة القتال.

وفي آية أخرى وفي إطار الإشارة إلى أن مشاكل الحرب تشمل الجميع، وتقع على طرفي الصراع يشير تبارك وتعالى هنا إلى خصوصية من خصوصيات المسلمين فيقول: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[1].

٤ - إدراك حقيقة الموت والشهادة:

لاريب في أن أصعب مراحل الحرب والقتال وأشدها قلقاً واضطراباً هي مرحلة الموت والقتل؛ لذلك نجد أن القرآن الكريم يعتني بهذه المسألة التي تعد من المسائل المهمة والتي غالباً ما تشغل الذهن والقلب عناية خاصة.

ويحاول القرآن الكريم هنا أن يحدّ من قلق الإنسان من القتل في الحرب، وينتزع خشيته من الموت في ساحة المعركة بالكامل، وطرح بهذا الخصوص العديد من التعاليم والإرشادات، وفي ما يأتي نتناول بعض تلك التعاليم وهي على النحو الآتي:

---

(١) النساء: ١٠٤.

أ) قصر عمر الإنسان وحتمية الموت: أحد التوصيات المهمة التي يعرضها القرآن هي التوصية المتعلقة بموضوع القضاء والقدر، وطبيعة تعاطي هذا الموضوع مع الموت، فعند ملاحظة هذه القضية نعي جيداً أن كل امرئ له عمر وحياة محددة، وما إن ينتهي ذلك العمر ويبلغ الإنسان أجله سواء كان في ساحة الحرب والمناجزة، أم كان على فراش الموت سيموت حتماً، من جهة أخرى أيضاً إن كل إنسان مالم يبلغ أجله ولم ينته عمره سيبقى حياً مهما كانت الظروف والأحوال.

من هنا إن الرؤية الإسلامية للموت والتعاليم الربانية لموضوع نهاية الحياة، تفضي إلى عدم جدوى الامتناع عن المشاركة في الحرب من أجل الحيلولة دون الوقوع في شراك الموت، ولا يمكنه بذلك إقصاء هذا الأمر وإبعاده لو بلغ العمر حده، ووصل أجله، وأسدل الستار على رحلته وحياته، وأما لو لم يصل العمر نهايته ولم يبلغ الأجل حينه، فعليه أن لا يخشى ولا يخاف من الذهاب إلى المعركة ولا يجعل القلق والاضراب يسري إلى قلبه.

يقول تعالى في هذا السياق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[1].

وعند الالتفات إلى الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية التي تناولت موضوع الجهاد، يكون مفاد هذه الآية هو: عليكم أن لا تخشوا الذهاب إلى ساحة الحرب، ولا تخافوا من المشاركة في الجهاد في سبيل الله؛ لأن موت كل امرئ تابع وعائد

(١) آل عمران: ١٤٥.

للإرادة والإذن الإلهي، فلو تعلّقت الإرادة الإلهية بموتك فإنك ستموت حتماً، ليس في المعركة وساحة القتال فحسب؛ بل حتى في مدينتك وبين أهلك ومحبيك، أجل الفرق في موتك في أرض المعركة والقتل في سبيل الله هو فوزك العظيم بالشهادة، وأما لو متّ على فراشك سوف تحرم من ذلك الأجر والمنزلة الرفيعة، وهي الشهادة في سبيل الله، ومن هنا أيضاً إن الإرادة الربانية لو لم تتعلق بموتك؛ بل تعلّقت ببقائك على قيد الحياة، فحتى لو كنت في أرض المعركة، وتحيط بك الاخطار كافة، وتحدّق بك جميع الأهوال فإنك رغم كل ذلك ستبقى حياً.

وفي هذا الخصوص يقول تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[1].

بعد أن انتهت معركة (أُحد) نسب عدة من المسلمين الذين كانوا ضعفاء الإيمان هزيمة الجيش ومقتل بعض المجاهدين في أرض المعركة إلى سوء تدبير القيادة، وضعف حنكتها في إدارة الحرب، وبالطبع إن رأس القيادة كان هو النبي محمدﷺ، فكانوا يزعمون أن النبيَّﷺ والقادة الآخرين لو استشاروهم، وأخذوا رأيهم في هذه الحرب لما وصل المسلمون إلى هذه الهزيمة، ولم تلحق بجيش المسلمين هذه الخسارة الفادحة، ولم يُقتَل هذا العدد من المسلمين، وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه أن يجيب هؤلاء، وأن يقول لهم: إن مشاركة هؤلاء، أو عدم مشاركتهم في تدبير أمور الحرب لا يمكن أن يؤثر في مصير القتلى ونهايتهم، أو يقلّل أو يزيد من الخسائر، لماذا؟ لأن موت الناس وحياتهم أمر تابع

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

لإرادته سبحانه وتقديره، إذ جعل الله تبارك وتعالى لكل انسان أجلاً ونهاية، وبتعبير آخر: جعل لكل شخص عمراً محدداً، فما لم يبلغه ويصله سيبقى حياً، حتى لو خاض أصعب المعارك وأشرسها فإنه سيبقى حياً، وبالعكس فلو بلغ أجله أقصاه وعمره نهايته فإن الموت سيدركه ولوكان مستريحاً على فراشه وهو في بيته، من هنا لا ينبغي معاتبة النبي ﷺ والقادة الآخرين واتهامهم بالتقصير.

ولكن هذا لا يعني أن من تكون وظيفتهم الاستشارة، وأخذ رأي الآخرين في أمر ما وامتنعوا عن ذلك لأنهم لا يستحقون الجزاء والمعاقبة، ولا يراد بأن من كان عالماً، ويقصّر عمداً في أداء واجباته الحربية المناطة به، أو يرتكب الخيانة لا يراد أن مثل هذا الشخص أو المجموعة يسقط عنها العقاب والمحاسبة؛ بل إن المراد هو لفت نظر المسلمين إلى هذه القضية وهي أن كل الحوادث والوقائع التي تحدث في عالم الطبيعة والكون، ومنها موت الإنسان وانتهاء حياته إنما تتبع التقدير والتدبير الإلهي الحكيم، وأن كل ذلك كان مقصوداً وملحوظاً في نظام الوجود، وعليه إن على الإنسان أن لا يكترث بالموت، أو يقلق من وقوعه، وترتعد فرائصه خشية منه، فإنه لا وجه للخشية من الموت إطلاقاً.

ونقرأ في آية أخرى ما يأتي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[1].

يريد تبارك وتعالى في الواقع من هذا التشبيه وعبر نسبة هذا القول إلى

---

(١) آل عمران: ١٥٦.

الكافرين والإشارة إلى منطق الكفر والضلال، يريد من المؤمنين الابتعاد عن هذا اللون من المنطق وهذا النوع من التفكير المغلوط، واستبداله بمنطق الإيمان والتوحيد وضرورة اتباعه، فيعمل المؤمنون بواجبهم عندما يكونون قادرين على ذلك وعندها يدركون جيداً أن كل ما هو مقدر ومكتوب لهم سواء كانت الحياة أم الموت سيقع دون شك، وهذا الاعتقاد وهذه الرؤية ستؤدي إلى العزم والإرادة القوية في سلوكهم، وسيمارسون أعمالهم من دون شك أو اضطراب، ويقومون بوظائفهم بهدوء وطمأنينة، نعم، سيقع الكافرون ونتيجة لهذا المنطق والاعتقاد الخاطئ في شراك القلق والتشويش، ويكونون دائماً عرضة للألم، والأسف، والحسرة، والاضطراب: ومن ثمّ يحصل التساؤل، لماذا حصل هذا؟ وكيف لم يحصل ذلك؟، أو يا ليتنا كنا هكذا ولم نكن كذلك و...الخ.

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[1].

وجاءت هذه الآية في سياق الآيات المتعلقة بالجهاد فمن الطبيعي جداً أن تكون مرتبطة بموضوع القتال في سبيل الله أيضاً؛ إذ تتعرض إلى حتمية الموت، ولا بديته وتشير إلى بطلان القلق والاضطراب الذي عادة ما يرافق الإنسان عند الموت أو التفكير به.

ب) الموت رحيل وليس فناء: من التعاليم والتوصيات الأخرى التي يطرحها القرآن الكريم لمكافحة الخوف والحد من القلق من الموت هي تذكير المؤمنين

---

(١) النساء: ٧٨.

والمجاهدين في سبيل الله بهذه الحقيقة؛ وهي أن الإنسان عندما يموت أو يُقتَل لا يفنى، ويبين أن حقيقة الموت لا تعني العدم والزوال؛ بل هو بداية لحياة أخرى وعالم آخر، ذلك العالم الذي ينعم فيه المؤمنون والمجاهدون في سبيل الله باللذة، والسعادة، والخير، والنعم الإلهية الأبدية.

إن الكافر يعدُّ الموت عدماً وفناءً؛ فيلج أرض المعركة وهو خائف مرتعد وقلق مضطرب، في حين يسرع المؤمن إلى ساحة المعركة حباً وعشقاً في الحصول على وسام الشهادة الذي يلحقه بالحياة الأبدية، والفرح الخالد، يحدوه وَلَهٌ عارم دون قلق أو خوف، ويواجه أعداء الله وحشودهم بصدره ومهجته، وقد صمد وثبت إلى حد استطاع فيه أن يهزم العدو ويلحق به أفدح الخسائر وينصر المسلمين، مثل هذا الإنسان الذي يُقتَل في سبيل الله بأيدي العدو لا يشق الخوف طريقه إليه؛ بل يعتبر ذلك شهادة، وهي أعظم هدية وجائزة إلهية حصل عليها، وحسبه ما ناله من منزلة عظيمة.

مثل هذا الاعتقاد وهذه الرؤية التي يتسلح بها المؤمن المجاهد في مقابل العدو، و يواجهه بمنطق واثق ومنهج رصين وعزم دفاق، تلك الرؤية التي يعبّر عنها القرآن الكريم، بهذا النحو: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[1].

وفي ضوء هذه الرؤية الواضحة إن أمام المجاهدين في سبيل الله أن يسلكوا

---

(١) التوبة: ٥٢.

أحد السبيلين، وكلاهما يشتمل على مصلحة ونفع لهم، الأول: هو نصر المؤمنين والتغلب على الأعداء، والأمر الذي يصب في صالح الإسلام والمسلمين والمجتمع الإسلامي على العموم، والسبيل الآخر: هو القتل في سبيل الله، وهو ليس إلا الشهادة في طريقه، ونيل السعادة الأبدية والحياة الهانئة السرمدية.

وفي مقابل ذلك إن ما ينتظر العدو هو أحد أمرين أيضاً، وكلاهما فيه خسارة وشقاء عظيم وضياع مخيف، الأول: هو النصر الظاهري على المسلمين وفيه عذاب وعقاب ينتظرهم في الآخرة، وهذا النصر الظاهريّ والمؤقت والزائف والسريع للفئة الضالة المنحرفة التي أغلقت طريق الله وسبيل الفلاح الحقيقي، والفرقة التي حاربت العدالة والإنسانية، ووقفت بوجه الله والنبي والدين، والمجموعة المتعطشة للرئاسة والقدرة والمنصب، هذا النصر الذي حققته هذه المجموعة لا يقلل ولا يحد من العذاب والعقاب الأخرويّ لها.

الأمر الآخر هو هلاك جنود العدو ومصرعهم على أيدي المؤمنين المجاهدين في هذا العالم، إذ يحتمل أن يلحق المسلمون الهزيمة بهم، وفي هذه الصورة سوف يحرمون من الاستمتاع بملذات الدنيا وسيحلقهم العذاب الأبدي في عالم الآخرة.

ج) **مصير الشهيد**: النكتة الأخرى التي يطرحها القرآن الكريم هي أن الشهداء والمقتولين في سبيل الله أساساً لا يموتون ولا يفنون؛ بل هم أحياء في حضرة الله، سعداء بنعمته فرحين بالحظوة التي منحهم إياها، وفي هذا السياق

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[1].

أجل، إن إطلاق كلمة (موتى) على القتلى في سبيل الله ليس صحيحاً؛ لأنهم أحياء، وفائزون بما تعنى هذه الكلمة من معنى.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وفي ضوء ذلك إن القرآن الكريم يبين أن الشهداء وإن قتلوا في الظاهر ولكن يتمتعون في الواقع بحياة حقيقية، ولذّة دائمة في أسمى الدرجات، وأعلى المراتب، إذ تعد الحياة واللذة الدنيوية مقابل تلك الحياة شيئاً لا يذكر، وعلى فرض أننا لا نشاهد في الحياة الدنيا إلا السعادة والفرح المتعاقب؟! فهل هناك لذة وسعادة أكبر من أن يكون المرء في قرب الله، ويحظى برزقة ونعمته اليومية منه؟

وهذه المبادئ والتعاليم القرآنية، والعناية الخاصة بالمجاهدين المسلمين، والاهتمام الربانيّ بمصير الشهيد السعيد، ومقامه الرفيع، وحياته الخالدة، وتمتعه بالنعم الإلهية الرغيدة، هذه التعاليم والمبادئ تزيل الخوف والخشية من الموت، وتنزع الرعب من قلوب المجاهدين، وتبعث في نفوسهم الإقدام دون اكتراث من

---

(١) البقرة: ١٥٤.

(٢) آل عمران: ١٦٩ – ١٧١.

الموت نحو الشهادة والتسابق لقتال الأعداء ومهاجمتهم، فينذهل الخصم من تلك الشجاعة، ويصبح عاجزاً عن الدفاع، ويكون ضعيف الحيلة عند المواجهة.

ويمكن أن يخطر على البال سؤالٌ معين، وهو أن الحياة بعد الموت لا تختص بالشهداء فحسب، بل بجميع الناس وإن كلاًّ منهم حي بعد موته، والجميع يتساوى في الميزان يوم الحساب.

وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال لابد من الاعتراف بأن مرحلتي الحياة بعد الموت وهما الحياة البرزخيّة والحياة الأخرويّة لا تختص بالشهداء؛ بل بجميع الناس، والجميع سوف يعيشون هاتين الحياتين، ولكن الاستمتاع بهاتين الحياتين ليس متساوياً في ما يخص الجميع، ولا متشابهاً بينهم، فبعض الناس يحيون الحياة البرزخيّة الأخروية بتعاسة مصاحبة للألم والمرارة والشقاء، ولكن بعضهم الآخر سيعيش الحياتين مقترنتين باللذة والسعادة.

يقول تبارك وتعالى عن العاصين، وأولئك الذين تعدّوا حدود الله، واقترفوا الذنوب: إن مصيرهم جهنم يوم القيامة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[1]، ويقول تعالى في موطن آخر عنهم أيضاً: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[2].

مما لاشك فيه هو عدم وجود وساطة بين الموت والحياة، ولا يوجد حد فاصل بينهما، من هنا فقد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: ما المقصود من قوله

---

(١) طه: ٧٤.

(٢) الأعلى: ١١ - ١٣.

تعالى: «فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى»؟

ويمكن الإجابة على هذا التساؤل بما يأتي: إن عدم الموت يعود لهذا السبب؛ وهو أن هناك شعوراً متواصلاً، وإدراكاً حقيقيّاً بالعذاب والألم جزاءً للذنوب والمعاصي التي اقترفها، ومن جهة أخرى ما الحياة التي يكون الإنسان معذباً فيها آلاف المرات، وهو على تلك الحالة يتمنى الموت، ويكون طعمه في تلك اللحظات أهون عليه وألذّ من هذا العذاب الذي يستحوذ على كل وجوده.

لقد جاء في القرآن الكريم أن أهل جهنم وهم في تلك الحياة المرة والأحوال التعيسة الصعبة، دائما ما يطلبون من صميم قلوبهم الموت، ويلتمسون مالكاً خازن النار أن يقضي عليهم ربّه بالموت والفناء والعدم، ولكن هيهات أن يُستجاب لمثل هذا الطلب، وفي هذا الصدد يقول تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[1].

ففي الوقت الذي يعيش هؤلاء حياتهم بكامل إدراكهم ووعيهم، فإنها مملوءة من أولها إلى آخرها بالألم، والتعب، والبؤس، العناء، وقد بلغت من العذاب حداً بحيث يعتبرون الموت أفضل من حياتهم هذه.

من هنا يمكن أن يُفهم المراد من حياة الشهداء أيضاً؛ وهو أن الشهداء بعد موتهم ورحيلهم عن الدنيا، فإنهم يعيشون في حياة برزخيّة وحياة أخرويّة سعيدة وهانئة، وسيجدون جزاء عملهم وجهادهم وسعيهم ويرون ثواب ذلك؛ وهذه الحياة المملوءة بالسعادة واللذة خاصة بمن لم تتعلق قلوبهم بزينة الدنيا الزائلة

---

(١) الزخرف: ٧٧.

ولذتها القصيرة، ويلتفتون قبل كل شيء إلى التكاليف الإلهية، ويراقبون الأوامر والواجبات المناطة بهم من قبل الله سبحانه وتعالى، وأولئك هم الأنبياءﷺ، والشهداء، والصديقون والصالحون، أولئك الذين رفعوا في عالم الدنيا راية الرسالة السماوية وأعلنوا كلمة الله عالية خفاقة، وحاربوا الظلم والفساد وقارعوا القهر والعدوان، وتحملوا في هذا السبيل شتى ألوان التعب، والأذى، والحيف الكثير، فمن الطبيعي أن يحظوا في عالم الآخرة بأحسن ما عملوا وجاهدوا وقدموا من سعي عظيم.

لو قارنا بين الحياة البرزخيّة والأخرويّة والحياة الدنيوية في هذا العالم، سنصل إلى هذه النتيجة؛ وهي أن الدنيا عندما تقاس بالبرزخ والآخرة لا يمكن أن نسميها حياة في الحقيقة والواقع، أجل، إن الحياة الحقيقية في الواقع ليست إلا الحياة الآخرة فحسب، وهي دار الإنسان الكامل والطاهر فحسب، ولاسيما الشهداء الذين هم موضوع بحثنا هنا، يقول تعالى في هذا الخصوص: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

وبناءً على ما تقدم إن الشهيد عندما يتشحّط بدمه، ويتمرغ في أرض المعركة، ويستشهد في سبيل الله؛ فهو إذاً لا يموت بل يبلغ الحياة الأبديّة، الحياة التي تعتبر كل الحياة الدنيا ببهجتها وزخرفها ليست سوى ألعوبة ونزوة تافهة، وبحق لو بلغ بعضنا إلى هذا الاعتقاد والإيمان، فهل يسري لقلوبهم القليل من القلق والاضطراب خشية الموت عندما يبدأ القتال، وتقرع طبول الحرب؟

(١) العنكبوت: ٦٤.

الفصل السادس

الدعم الإلهيّ الغيبيّ وانتصار الحق

إن مقتضى الحكمة الإلهية أن تكون الحروب البشرية سواء أحسن الإنسان توظيفها واستخدامها أم أساء، لها علاقة مباشرة باختياره وحريته، وفي ضوء تلك الحكمة يكون مصير الحرب في النهاية محكوماً بالانتصار الحتميّ لأصحاب الحق والحقيقة، وفي إطار تشجيع المسلمين وترغيبهم بالجهاد يبشر الله سبحانه وتعالى أهل الحق في القرآن الكريم بالنصر والفوز، ووعدهم بالنعم الدنيوية والأخروية أيضاً؛ ولذلك يطرح هنا سؤال وهو: كيف يتحقق هذا النصر الذي يعدّ من مقتضى الحكمة الإلهية؟ وماهي طبيعة الظفر والفلاح الذي بشّر به القرآن الكريم، ووعد به المولى تعالى المؤمنين؟ وبعبارة أخرى: إن الله تعالى حتى يحقق مقتضى حكمته البالغة وإرادته الحقّة، ويفي بما وعد به المؤمنين من نصرة الحق، وأهل الحق، فكيف ينصر المسلمين المجاهدين في سبيل الله ويؤيدهم ويأخذ بأيديهم إلى النصر المؤزر النهائي؟

ونجيب هنا بلا تردد؛ إذ يخطر في الذهن بسرعة أن نصر المؤمنين وأهل الحق النهائيّ إنما يكون عبر الدعم والتأييد الغيبيّ، ويتيسر ذلك عن طريق الإمداد السماويّ.

ولكن يُطرح هنا سؤال آخر أيضاً؛ وهو أن هذا النصر الذي يجريه الله تعالى بإرادته على أيدي أهل الحق وتأييده للمجاهدين، أهو نصر وتأييد مطلق من دون قيد أو شرط، أم هو مشروط ببعض الظروف والقيود التي يجب على المؤمنين مراعاتها؟

وبعبارة أكثر وضوحاً: هل نصر الله للمؤمنين المجاهدين وتأييدهم يتحقق في كل حرب يخوضونها بوجه أهل الباطل؟ أهو مضمون بنحوٍ مطلق في كل معركة لهم مع الظلمة، أم أن هذا النصر مشروط بالتزام المؤمنين بقيود خاصة تكون ملحوظة ومقصودة لدى المولى سبحانه؟ وهذا الفصل سيكون خاصاً ببحث هذه الأسئلة المهمة، وعرض الإجابة عنها، تكون بما يأتي:

أولاً: الدعم الربانيّ وانتصار أهل الحق:

كما تقدمت الإشارة إلى أن انتصار أهل الحق والمنادين بالعدل والقسط في المواجهة بين الحق والباطل إنما هو رهن الدعم الغيبيّ، والتأييد الإلهي، والسؤال الذي يطرح هنا هو عن طبيعة هذا الإمداد والتأييد، وماهي الصورة التي يتجلى فيها؟ وكيف يتحقق وبأي أسلوب؟

وقبل الإجابة عن السؤال المذكور وبحث الآيات التي جاءت في القرآن الكريم وتحدثت في هذا الإطار يمكن تقسيم المدد والتأييد الغيبي منه تعالى على نوعين وهما على النحو الآتي:

الأول: عبارة عن مدد ودعم غيبيٍّ ذي خاصية باطنية، ويمتاز بميزة روحية ونفسية، ويتم ذلك عن طريق تدخل الباري سبحانه وتعالى في أعماق نفوس المؤمنين وأرواحهم، فتكون نفوسهم وأرواحهم على نحو تتأثر بذلك التدخل والتصرف الربانيّ، فيشعرون بالقوة والعزم، فيزدادون وثوقاً، واطمئناناً، وتوكلاً؛ وينبعث فيهم الأمل، وروح الانتصار، والغلبة، عندها يتوقعون حالة

ضعف العدو، وهوانه، وقلّة حيلته أمامهم، ويعتقدون بقهرهم الحتمي له، وهذا الشعور والإحساس هو الذي سيكون مصدراً للغارة على العدو بلا رحمة، وبلا شفقة، وباعثاً للاندفاع نحوه بكل قسوة وغلظة.

ولكن في طول هذا النوع من المدد الغيبيّ من جهة أخرى يمكن أن يجعل الله تبارك وتعالى أيضاً نفوس الأعداء وأرواحهم تحت الضغط والتأثير على نحو تمتد يد الغيب إلى أعماقهم، فيشعرون بالرعب والخوف والقلق، وينتابهم شعور بأنهم لا شيء أمام قوة المؤمنين وبطشهم، ويخال لهم أن المسلمين هم قوة عظيمة ذات عدد كبير، وهذه الحالة النفسية ستدعوهم إلى التقهقر والتراجع وبالنتيجة الهزيمة أمام جيش المسلمين.

الآخر: هو نوع من الإمداد والتأييد الغيبيّ ذو خاصية ظاهريّة وخارجيّة، بمعنى أن الحوادث والوقائع التي تحصل في العالم خارج نطاق الروح والنفس إنما تقع على طرفين ونحوين (طبيعية وغير طبيعية)، تسهم في بلورة الأرضية المناسبة لنصرة المؤمنين وقهر الأعداء.

وفي ما يأتي نشير إلى الطرق الأساسية المتعلقة بكل واحدة من هذين النوعين في ضوء ما ورد في القرآن الكريم.

أ) أساليب الدعم الباطنيّ والمدد الروحيّ

١- إلقاء الرعب في قلوب الكفار:

إحدى الطرق التي استعملها الباري تعالى لدعم أهل الحق، وتأييد المؤمنين، وهزيمة الكافرين، ودحض أهل الباطل هي إلقاء الرعب، وزرع الخوف في قلوب الأعداء، فتراهم يخافون ويخشون عندما يقتربون من ساحة المواجهة، ويسري القلق والاضطراب والتشويش إلى نفوسهم، ويتربّع على قلوبهم حين القتال، بحيث يفقدون السيطرة في ساحة المعركة، ولا يستطيعون الثبات أمام المسلمين، ويتمنّون الفرار بدلاً من الثبات والمواجهة، ويفضلون الهروب على البقاء في ميدان الحرب.

وقد جاءت هذه الطريقة في أربعة موارد في الأقل في القرآن الكريم، على نحو أصبحت موطناً لتأكيد الآيات الشريفة المتعرّضة لها، فجاء الموردان الأوليان منهما على نحو وَعْد المسلمين بأن الرعب سيسكن قلوب العدو، وسيزرع في نفوسهم الخوف والخشية؛ ومن هنا سوف تسلب منهم الشجاعة، والشهامة، والاستبسال في الحرب أمام المسلمين؛ وحينئذٍ ستنتهي الحرب بهزيمتهم وانكسارهم، وفي الموردين الآخرين جاء هذا الأسلوب أيضاً بالإخبار عن تأييد المؤمنين ودعمهم؛ لينتصروا على الأعداء الذين أصبحوا خائفين مرعوبين من الحرب والقتال ضد المسلمين.

وهنا سوف نمرّ على الآيات الشريفة التي تعرضت لذلك:

قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾[1].

وفي آية أخرى يبين الله تبارك وتعالى سبب انتصار المسلمين على هذا النحو فيقول: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[2].

كذلك يعرض القرآن الكريم ما مر على المسلمين، ويبيّن أن دعم السماء ومساندتها لهم هو السبب وراء نصر المسلمين وهزيمة الكفار، وذلك على النحو الآتي: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[3].

وفي آية أخرى يتناول ذلك أيضاً عندما يخبر عن الماضي يقول سبحانه ما نصه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[4].

---

(١) آل عمران: ١٥١.

(٢) الأنفال: ١٢.

(٣) الأحزاب: ٢٥ – ٢٧.

(٤) الحشر: ٢.

٢- غرس السكينة في قلوب المؤمنين:

من الطرق الأخرى التي استخدمت في الدعم الباطنيّ الغيبيّ للمسلمين هي أن ينزّل الله تعالى السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين ونفوسهم، ويمكن تقسيم الآيات المتعلقة بهذا الموضوع على أكثر من فئة، فبعضها تشير إلى نزول السكينة والهدوء على قلب النبي الأكرم محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وفئة أخرى: هي الآيات التي تدل على أن السكينة والطمأنينة هبطت على قلب النبي وقلوب المؤمنين معاً، من قبيل ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[2]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3].

والفئة الثالثة: هي الآيات التي تدل على أن الله تعالى أنزل السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين فحسب، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

---

(١) التوبة: ٤٠.
(٢) التوبة: ٢٦.
(٣) الفتح: ٢٦.

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾(١)، ونحو ذلك قال أيضاً في هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٢).

٣- التدخل في طبيعة فهم الفريقين لصالح المؤمنين وإدراكهم:

الأسلوب الثالث في الإمداد الباطنيّ الغيبيّ هو أن يصوّر الله تعالى الكفّار وجيش العدو على أنه جيش ضعيف واهن في نظر المسلمين، ويُقنع المجاهدين أن المشركين مجموعة لا تعدو شيئاً أمام قوة الإسلام وجيشه، وذلك من أجل رفع الخوف والرهبة عن قلوب المسلمين، ومن جهة أخرى يتصرف الله تبارك وتعالى في فهم الكفار وإدراكهم إزاء جيش المسلمين وقوتهم، فيظنون أنهم ضعفاء قليلون، فيقلّ مستوى استعداد العدو للحرب، ويردون ساحة المعركة بقليل من العدّة والعدد، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾(٣).

وفي قصة واقعة بدر رأى النبي محمد ﷺ في منامه أن عدداً قليلاً من مشركي مكة جاؤوا لقتال المسلمين، إذ إن النبيَّ ﷺ حكى هذه الرؤيا إلى المسلمين اعتقدوا أنهم سيواجهون في الواقع جيشاً قليلاً وهزيلاً، الأمر الذي زرع في

---

(١) الفتح: ١٨.

(٢) الفتح: ٤.

(٣) الأنفال: ٤٣ - ٤٤.

قلوبهم العزم، وزاد قوتهم في المواجهة، وأعطاهم الجرأة والإقدام على القتال.

فلو كان النبي ﷺ قد شاهد عدد جيش العدو بحجمه الواقعي نفسه، أو أكثر من ذلك؛ لخاف المسلمون من ذلك ورعبوا، وقل مستوى إقدامهم على الحرب وزحفهم للمواجهة، ولدبّ في نفوسهم القلق والاضطراب بسبب تفكيرهم بحجم قدرة العدو، ومستوى قوته، وبالنتيجة امتنعوا عن المشاركة في القتال، أو كانوا قد واجهوا العدو بمستوًى عالٍ من القلق والخشية والاضطراب، وعلى كل حال سينتهي الأمر بهزيمة المسلمين وخسارتهم.

من جهة أخرى إن الله تعالى عندما يشتدّ القتال يتدخل في طبيعة الفهم وتعاطي أحد الطرفين المتصارعين إزاء الآخر، كأن يتصرف في عدد المشركين في عيون المسلمين، ويقلّلهم في نظرهم، فيعتقدون أنهم قوة لا يعتدّ بها، وكذلك عدد المسلمين وحجمهم وقوتهم في فهم المشركين وإدراكهم، ومن الطبيعي أن المسلمين لو شعروا أن جيش المشركين قليل وضعيف سيؤدي إلى قوة قلوبهم، وتزداد شجاعتهم واستبسالهم، ويواجهون العدو بمزيد من رباطة الجأش والإقدام؛ فيخوضون القتال بمعنوية عالية، ويغوصون في قلب جيش العدو؛ لذا إن المشركين عندما اعتقدوا أن عدد جيش المسلمين قليل، وحجمهم محدود أخطؤوا في تقييم القوة الحقيقة لجبهة الخصم وتشخيصها، واستهانوا بقدراتهم، ولم يستعدّوا للقتال بذلك القدر الكافي، ولم يجهزّوا أدوات الحرب والعدّة المناسبة لمواجهتهم، فدخلوا المعركة، وقاتلوا المسلمين بقوّة أقل واكتفوا باستعدادات أقلّ حجماً؛ لذلك خسروا المعركة.

فلو أدرك المشركون حقيقة حجم المسلمين، ومقدارهم من الناحية الكمية، وطبيعة القدرة والشجاعة للمجاهدين المسلمين من الناحية الكيفية، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم في ذلك الحين أن نفراً من المسلمين يساوي عشرة من المشركين ويقابلهم، وخلاصة القول لو كان جيش العدو يعلم الحجم الحقيقيّ لجيش المسلمين من كثرة العدة، وحجم الذخائر، والأعتدة التي بحوزته، ولو أدرك أنه يقابل جيشاً يضمّ في صفوفه مقاتلين أشدّاء، ومجاهدين أقوياء، فهو إما أن يعزف عن الإقدام على الحرب، أو يقدم عليها باستعدادات أكبر، وأسلحة وذخائر أكثر، ويأتي بعدد وفير من المقاتلين إلى ساحة المعركة، وحينها يكون خطره وتهديده أكثر جدية على المسلمين، وربما ينتهي الأمر إلى هزيمة جيش الإسلام وانكساره.

ب) أساليب الدعم الخارجيّ والإسناد الظاهريّ:

بعد أن تناولنا العوامل الباطنية، والأساليب الداخلية، نعرض الآن مجموعة أخرى من الإمدادات الغيبية الإلهية التي تحمل طابعاً خارجياً وظاهرياً، وهي التي يمكن تقسيمها على فئتين هما عوامل الطبيعة وعوامل ما فوق الطبيعة، وفي ما يأتي نتعرض إجمالاً إلى كل واحدة من هاتين الفئتين واحدة تلو الأخرى فنقول:

١- الإمدادات الغيبيّة الطبيعيّة:

وهذا اللون من الدعم والإسناد ذكره القرآن الكريم في أقل تقدير بعاملين اثنين، الأول العامل الطبيعي بصورة الطوفان والريح العاتية، وقد كان هذا

العامل سبباً في نصرة المسلمين وغلبتهم في بعض المعارك والحروب، وفي مقابل ذلك هزيمة الكفار وانكسارهم، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[1].

وتشير هذه الآية إلى معركة الأحزاب، إذ كان الطوفان والريح يعدّان من جملة الأسباب المهمة لتحقيق النصر للمسلمين، وأشارت هذه الآية أيضاً إلى بعث الجنود غير المرئيين وهو دعم غيبي آخر وهو شاهد على بحثنا الحاضر أيضاً.

ولكن ربما يكون المقصود من هؤلاء الجنود في هذه الآية هي الريح العاتية التي أرسلها الله تعالى على الرغم من أنّ الريح أمر محسوس، ولكن كونها بعنوان القوة الإلهية ونوع من المدد والدعم الغيبي من الله تعالى، فهو أمر مجهول في ما يخص الناس، وغير محسوس في ما يخص البشر.

العامل الطبيعي الثاني الذي سخره الله تعالى لمساعدة المسلمين وإعانتهم على النصر في الحرب، هو المطر الذي ذكره القرآن الكريم أيضاً، لذلك يقول تبارك وتعالى بهذا الخصوص : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[2].

---

(١) الأحزاب: ٩ – ١٠.

(٢) الأنفال: ١١.

تشير هذه الآية إلى ما جرى في واقعة بدر، ففي الليلة التي وقعت في نهارها معركة بدر بين المسلمين وكفرة قريش هطلت أمطار الرحمة الإلهية، فأصبحت الأرض تحت أقدام جيش الإسلام ندية رطبة، واستحكمت أجزاؤها على نحو يمكنهم من التحرك والمناورة بسهولة، وممارسة مهارتهم القتالية بيسر، وبعد نزول ذلك المطر ذهب كل الغبار وولّت جميع الأتربة الكثيفة التي يمكن أن تعيقهم عن القتال، وتزعجهم في المعركة، والخلاصة: إن رذاذ المطر في تلك الليلة التاريخية كان معيناً ومفيداً للمسلمين جداً، وكان جديراً هو الآخر أن يقدّم المساعدة والدعم للمسلمين؛ بل كان سبباً في انتصارهم في المعركة، في مقابل ذلك كان المطر الذي هطل في ساحة العدو، والأرض التي استقر فيها كان مطراً غزيراً على نحو أصبحت الأرض تحت أقدامهم طيناً، الأمر الذي أعاق تحركات جيش العدو والمقاتلين في صفوفه، وحدّ من مناوراتهم في القتال، فكان ذلك سبباً في هزيمتهم وخسارتهم في المعركة.

فضلاً عن ذلك إن المسلمين الذين كانوا عرضة للكسل والخمول أصبح هطول المطر، واعتدال الهواء الرطب سبباً في استعادة نشاطهم، وتضاعف حيويتهم، وكان ذلك باعثاً لهم ليبدؤوا يوماً جديداً بأريحية، وانتعاش، وعنفوان، وطموح، ولاسيّما عندما هرعوا إلى الأرض الندية مستقبلين الخير من المطر المتساقط؛ فتطهروا، وتنظفوا، وغسلوا أيديهم ووجوههم لتتحقق بذلك الطهارة الظاهريّة الماديّة والطهارة الباطنيّة المعنويّة.

والخلاصة: إن هذا المطر كان نوعاً من الدعم والإمداد الغيبيّ والرحمة الإلهيّة

الذي جعل المجاهدين أكثر نشاطاً، وحيويّة، واستعداداً للقتال، وأشد ثباتاً، وأكثر حماسة واستبسالاً، وأكبر سعياً لتحقيق النصر، من جانب آخر كان المطر غضباً إلهياً نازلاً على المشركين، وبهطوله صاروا أكثر ضعفاً، وأشد وهناً، لأن الأرض بعد سقوط المطر أصبحت طينية تحت أقدامهم، الأمر الذي أدى إلى الاضطراب، والهلع، والقلق، والضعف في صفوفهم، فدبّ في نفوسهم الكسل والخمول، وانتهى الأمر إلى النصر الحاسم لجيش المسلمين، وخسر العدو خسائر جسيمة في صفوف جيشه ومعدّاته، وذاق طعم الهزيمة النكراء، وفضّل الهروب والفرار على البقاء في ساحة القتال.

٢ - الدعم والإمداد غير الطبيعيّ:

في ما يتعلق الإسناد الغيبيّ المتعلق بالعوامل والوسائل غير الطبيعيّة فقد أشار القرآن الكريم إلى عاملين: أحدهما: الجنود غير المرئيين؛ والآخر: الملائكة.

ومما لاشك فيه أن وجود غير الملائكة من الجنود المخفيّين هو أمر ممكن جداً، ولكن الاحتمال الأقوى هنا هو أن هذين العنوانين وهما الجنود غير المرئيين والملائكة يعودان إلى مصداق خارجي واحد، وحينئذٍ يكون المقصود من الجنود غير المرئيين هم الملائكة أنفسهم.

يقول تعالى في ما يتعلق بالجنود غير المرئيين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1].

ويحتمل قوياً أن المراد من هذه الآية هو ما أشرنا إليه آنفا؛ وهو أن المقصود من الجنود غير المرئيين هم الملائكة، وهناك احتمال آخر مرّ ذكره في ما تقدّم أيضاً؛ وهو أن المراد من الجنود المستترين هو نفس الريح والطوفان الذي أرسله الله، حيث أشرنا سابقاً إلى أن الريح وإن كانت أمراً محسوساً؛ ولكن كونها مرسلة ومبعوثة منه تعالى وأنها وسيلة للمدد والدعم الإلهي لهزيمة الأعداء أمر مجهول وغير محسوس في ما يخص البشر.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

---

(١) الأحزاب: ٩ - ١١.
(٢) التوبة: ٢٥ - ٢٦.
(٣) التوبة: ٤٠.

وعلى أية حال إن ما ذكر من الآية الشريفة حتى الآن لم يتم التعرض فيه إلى فحوى طبيعة أولئك الجنود المسترين وهويتهم؛ أهم من الملائكة أم لا؟ لم يتعيّن إذاً حتى الآن مصداق واضح ومحدد من خلال هذه الآيات لهؤلاء الجنود.

ولكن هناك فئة من هذه الآيات الكريمة المتعلقة ببيان سبل المدد والدعم الغيبيّ لله سبحانه وتعالى تحدثت بصراحة عن الملائكة، وبيّنت حتى عددها الذي شارك في القتال، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[1].

وهذه الآيات الشريفة مرتبطة بمعركة بدر وهي أول حرب خاضها المسلمون ضد المشركين في الوقت الذي كان فيه المسلمون قد بدؤوا بتشكيل النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، وكانوا من حيث العدة والعدد في أضعف حالاتهم وأسوئها، حتى أن القرآن الكريم عبّر عن هذا الوضع بـ (وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ) مشيراً بذلك إلى هذا الموضوع، من هنا كان المسلمون قليلين؛ إذ كيف يمكنهم مع هذا المستوى من الضعف العسكريّ أن يهزموا جيش الكفر، وهو بهذا الاستعداد والقوة، وكلما شاهدوا عُدّة ذلك الجيش وعددهم، والتجهيزات ازداد ذلك

---

(١) آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧.

الاضطراب والقلق أكثر؛ لأنهم عندما ينظرون إلى عددهم، فيرونهم أكثر منهم بثلاث مرات تقريباً، لذلك أرسل الله سبحانه وتعالى إلى نبيّه وحياً يخبره من خلاله أنّنا بعثنا ثلاثة آلاف من الملائكة؛ لدعمكم وتأييدكم، ولو كان الأمر يستدعي عدداً أكبر من الملائكة لبعثنا أيضاً، وفي النهاية إن الحرب انتهت بالنصر المؤزّر لجيش المجاهدين، وقرّت أعين المسلمين بهزيمة أعدائهم بمساعدة هذه المجموعة من الملائكة ودعمهم.

ويمضي الباري تعالى في بيان حقيقة هذا الدعم الغيبيّ للمسلمين، فيبيّن أن هذه المساعدة التي منحها الله لعباده الصالحين إنما هي نتيجة صبر المسلمين وثباتهم وتقواهم، والنقطة المهمة هنا هي أن شرط الدعم الغيبيّ، ولازم تحقق المدد الإلهيّ هو جلد المسلمين وصبرهم ورعايتهم للتقوى، فعندما يتحقق هذا الشرط، فإن الله تعالى وفي ضوء الحكمة الإلهية والمصلحة التي تقتضيها، سوف لا يخذلهم في الدعم والإسناد.

النكتة الأخرى التي أشارت إليها الآية الكريمة هي موضوع التوحيد الأفعاليّ، إذ يبيّن الله تعالى فيها وعلى الرغم مما يظهر من أن هؤلاء الذين جاؤوا لنصرة المؤمنين وتأييدهم، وانتهى القتال بسبب هذا الدعم والتأييد لصالح جيش الإسلام، كانوا ملائكة، ولكن ينبغي لفت النظر الى أن إسناد هؤلاء الملائكة لم يأتِ إلا بعدما أمرهم الله تعالى بذلك فهم إنما جاؤوا من قبله تعالى فحسب، وأن دعم الملائكة بهذا النحو لا ينبغي أن يكون سبباً لغفلة المؤمنين وسهوهم عن هذا الأمر، وهو أن المسبِّب الرئيسيّ، والداعم الحقيقيّ لهم هو الله سبحانه وتعالى، أي

إن نصرة الجيش المسلم أو دعمه، أو تأييده إنما يصدر في الحقيقية منه تعالى وبيده جلّت قدرته، وعليه يجب أن يتنبّهوا إلى نقطه أساسية وهي الذات الإلهية المقدسة فقط، وطالما أكد القرآن الكريم هذه النقطة في مواطن عديدة، ونبّه عليها أكثر من مرة، حتى لا ينسى الإنسان أو يغفل عن أصل التوحيد، وتكون هذه الحقيقة حاضرةً في ذهنه دائماً، وحتى يدرك جيداً أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى.

ومن الطبيعي أن يجري هذا التأثير في الحرب أيضاً، إذاً لا يوجد داعم حقيقيّ فيها سواه سبحانه، وما الملائكة إلا مخلوقات مأمورة لما يريده هو ويؤمر به، وليس لهم أي استقلاليّة في التأثير لافي نصر المسلمين وتأييدهم ولا في مكان آخر.

ثانياً: إثارة تفسيريّة:

وعلى الرغم من تعرض الآيات التي مرّ إيرادها وبنحوٍ صريح إلى الوعد الإلهي بنزول الملائكة ودعمهم للمسلمين، ولكن لم تتحدث الآيات المذكورة بنحوٍ صريح عن وفاء الله تعالى بذلك الوعد، أوأرسل الملائكة لمساعدة المسلمين ونصرتهم أم لا؟ ولكن هناك آيات أخرى كانت قد تناولت هذا الموضوع وبصورة واضحة وجلية، إذ يقول تبارك وتعالى في واحدة من تلك الآيات متحدثاً عن هذه النقطة بالذات فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

تتحدث هذه الآيات أيضاً عن أحداث واقعة بدر، وكما تقدمت الإشارة إلى أنّ قوة المسلمين وقدرتهم البشرية كانت في هذه الحرب ثلث قوة المشركين تقريباً وقدرتهم، ومن حيث الجانب اللوجستي والتجهيزات الحربيّة فإنها كانت تقترب من الصفر إذا ما قيست بالعُدّة والعدد في جيش العدو، فلا يمكن مقارنتها بما لديه من الأسلحة إطلاقاً.

وفي ضوء هذه المعطيات فمن الطبيعي أن لا يرى المسلمون أنفسهم جاهزين من حيث القوة والقدرة لمواجهة العدو ومناجزته، لذلك اصطحبهم النبي الأكرم محمد ﷺ، ورفعوا أيديهم بالدعاء، فتضرعوا بين يدي الباري سبحانه، وأظهروا ضعفهم، وقلّة عددهم في حضرته، وكانوا يرجون بذلك المساعدة والمدد منه جلّ شأنه.

لقد وعد الله تعالى المسلمين أيضاً أنه سيمدُّهم عند الضرورة بثلاثة آلاف من الملائكة، ولو استدعى الأمر أن يمدّهم بخمسة آلاف منهم لفعل، وقد مدهم الله تعالى بألف من الملائكة، وفي تبرير هذا الأمر وتفسيره يمكن القول: إنهم لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من هذا العدد، وذكر العدد ثلاثة آلاف من الملائكة، أو خمسة آلاف منهم أساساً إنما هو من أجل رفع معنويات المجاهدين المسلمين، وزرع السكينة، والاطمئنان في قلوبهم، وحتى يدركوا أنه كلما احتاجوا إلى

---

(١) الأنفال: ٩ - ١٠.

المساعدة والدعم مهما كان حجمه أو مقداره سوف يصل إليهم، وعليهم أن لا يقلقوا من هذه الناحية، من هنا إن عدم إرسال ما يزيد عن الألف من الملائكة ليس ضرورياً فحسب؛ بل هو فعل عبثيّ، وعمل لغوي أيضاً ومعلوم أن الله تعالى منزّه عن مثل هذه الأفعال.

وفضلاً عن الآية المذكورة، فإن الآية الآتية تدل أيضاً على أن الله تعالى أجرى ما وعد به المؤمنين بنحوٍ عمليّ وفعليّ، عندما أرسل عدداً من الملائكة لمساعدة المسلمين وتأييدهم في حرب بدر، فقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

والنتيجة هي أن هذا الإمداد الغيبيّ، ونزول الملائكة أدى إلى ثبات المسلمين أمام العدو وصمودهم بوجهه في القتال، وانتهى الأمر إلى أن يُتحمل جيش العدو أفدح الخسائر، وأثقل الهزائم، على نحو أن عدد من قتل من جيش المشركين هو ثلاثة أضعاف ممّن استُشهد من المسلمين.

ثالثاً: سؤال وجواب:

من بداية هذا الفصل وحتى الآن كنا قد بيّنا ثلاث نتائج كلية حصيلة لما تقدم:

الأولى: إن مقتضى الحكمة الإلهية هي أن الحقّ لابدّ من أن ينتصر على الباطل،

---

(١) الأنفال: ١٢.

وأن إرادة الباري التكوينيّة تعلّقت بذلك النصر ودعمه.

الثانية: تعرضت العديد من الآيات القرآنية الشريفة، وفي إطار الوعد لنعمٍ وفضائلَ إلهية عديدة، إلى جانب الوعد بانتصار فريق المجاهدين في سبيل الله، وأهل الحق على الأعداء وأهل الباطل.

الثالثة: لقد صرّح القرآن الكريم بما لا يقل عن خمسة أنواع من تحقق الدعم الإلهيّ وحصول المدد الغيبيّ.

وعند ملاحظة هذه النتائج الثلاث يمكن أن يطرح هنا سؤال وهو: هل ما ذكرناه من مسائل يعني أن المؤمنين سيحظون بهذه الإمدادات الغيبيّة والدعم الربانيّ، وسينتصرون على أعدائهم في جميع الظروف والمناسبات وضمن سائر الأوقات والأحوال؟

فلو أجبنا عن هذا السؤال بـ(نعم)، لما أمكننا أن نبرر بعض الهزائم والانكسارات التي وقعت في صفوف المؤمنين في بعض المقاطع التاريخية من حياتهم، ويكون ذلك نقضاً لردنا بالإيجاب، ولو أجبنا عن التساؤل المذكور بـ(لا) سوف تتعارض هذه الإجابة مع الآيات التي ذكرناها آنفاً عندما تحدثت بوضوح عن وعد السماء بنصر المؤمنين.

ومن أجل حلّ عقدة هذه المسألة يجب ملاحظة رؤية القرآن وتعاليم الإسلام المتعلقة بالحياة الدنيوية، حيث تفيد أن هذه الحياة ليست سوى محطة لابتلاء الإنسان واختباره، إذ إن الله تعالى خلق هذا الكائن وعناه بالإرادة، وأسبغ عليه

الحرية والاختيار، حتى يستطيع أن يذهب إلى أي طريق يشاء، بمعنى أن مقتضى الحرية الإنسانية هي اختيار السبيل الذي يرغبه ويريده في حياته، وفي الوقت نفسه أن الله تبارك وتعالى ومن خلال إرسال الأنبياء عليهم السلام أراد أن يعي الإنسان أن خيره وصلاحه وسعادته وبلوغه درجة الكمال لا تتحقق إلا عن طريق طاعة الله والخضوع له وعبادته، وأيضاً ليست الطاعة والعبودية هذه إلا تسليم الإنسان وركونه لله سبحانه في جميع الأحوال والظروف، وليست سوى الاستجابة إلى أوامره والامتثال لها، مهما كلّف الأمر لما أوجب والابتعاد عمّا نهى، وأن لا يعبأ في هذا السبيل بكل الصعوبات والعقد والأخطار ولا تخيفه المتغيرات ولا تغريه الأهواء والإغراءات الدنيوية، وبجملة واحدة يكون هدفه الوحيد في الحياة هو كسب رضا الباري تعالى، ومن الطبيعي كلما تحمّل من أجل كسب رضاه جلّ شأنه مشقة أكبر، وصعاباً أكثر، كان تأثير ذلك أوقع في كماله وسموّه، ويكون عمله أقرب للنجاح والفوز، وسيحصد مع ذلك نتائج وثماراً أفضل وأكثر أيضاً، كما في العبارة المشهورة: «أفضل الأعمال أحمزها»[1]، وهي العبارة المأخوذة ظاهرة عن متن الروايات الشريفة، عندما أشارت إلى هذه الحقيقة.

فلو فرض أن المؤمنين كانوا يعلمون أنهم سينتصرون في الحرب على أعدائهم مئة بالمئة، وسيحالفهم الحظ جزماً في إلحاق الهزيمة بهم، فإن إقبالهم على الجهاد والتضحية - الأمر الذي سيكون بناء على هذه المعطيات مع راحة نسبية وقلق بسيط - لا يكون له التأثير الكبير، ولا يحقق تلك القيمة والمنزلة الرفيعة.

(١) انظر: بحار الأنوار: ج/ ٨٢، باب: ١، الرواية: ٥٥.

فمن كانت لديه دراية حتمية مسبقة، وطمأنينة تامة في أنه سينتصر على عدوّه في قتاله معه، فإن مشاركته في مثل هذه الحرب لا تشكّل له قلقاً واضطراباً كبيراً، ولا تُسبّب له عقدة حقيقية، ولهذا السبب فإنه لن يحصل على المؤثر الأساسي الذي يعلو به إلى سلم الكمال، ولا يجني ثمرة مهمة في هذا المضمار.

على العكس من ذلك عندما يكون أمله بالنصر في الحرب والظفر الموقت الزائل ضعيفاً جداً أو ليس شيئاً يذكر في طموحاته، وهو إنما أقدم على القتال تلبية لنداء الواجب والأمر الإلهي، فهو إنما يقطع الوديان والبحار ويتلقى النار والشرار إلا طاعة له تعالى، فلم يكن قد بادر إلى عمل خطير مرعب قد أحدق به مثل هذا؛ لذلك فهو عندما يتحمّل كل ذلك سوف يحصد ثمرة معنوية أكبر، ومما لاشك فيه أن مثل هذا الإنسان سيحظى بمنزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالى، وسيتخطى الدرجات المعنوية بنحوٍ أسرع وبخطوات أوثق، وربما يكون اللّغز في عظمة كربلاء، والسر في سمو شهدائها وعلو منزلتهم هو هذه النكتة أيضاً.

من هنا إن الأصل في جريان كل الأمور وسريان كل الشؤون الحياتية هو أن تمضي كل الحوادث والوقائع في ضوء العلل والأسباب الطبيعية، وتسير وفق مظانّها الاعتياديّة، حتى تتاح الأرضية المناسبة للحرية والاختيار بوضوحٍ وجلاء، ويكون الفضاء رحباً للتمحيص والاختبار، وفي الوقت نفسه وبما أن المطلوب الحقيقيّ، والمقصود بالذات من جهة أخرى هو تحقق الخير والكمال، وأنّ الإرادة التكوينيّة للباري تعالى تعلقت بنصرة الحق والعدل، فإن المؤمنين لا يُتركون وحدهم في الحرب ضد أعدائهم نهائيّاً، فيسخّر الله تعالى في المواطن

الضرورية مجموعة من العوامل الروحية، والوسائل الباطنية، أو الأدوات الظاهرة البيّنة أعم من كونها طبيعية أو غير طبيعية، من أجل تقديم الدعم والتأييد في مساعدتهم وتدبير أمرهم، لتمضي الأمور إلى النتيجة النهائية في الصراع بين الحق والباطل لنفعهم ولصالحهم.

من هنا فعلى المؤمنين أن يراعوا:

أولاً: العمل على أداء تكاليفهم وواجباتهم الإلهية والدينية بنحوٍ متواصل دون انقطاع.

ثانياً: عليهم تسخير جميع المواهب المادية والأدوات والوسائل الطبيعية المتاحة وتوظيفها لهم في سبيل القيام بالواجبات على أكمل صورة، ويسعون قدر الإمكان إلى عدم التقصير في أدائها والالتزام بها.

الآن وبعد مراعاة هاتين النقطتين، فلو انتصر المؤمنون على الأعداء وكانوا قادرين على هزيمتهم ودحرهم فهنا لا حاجة لهم بالمدد الغيبيّ، ولكن بعد القيام بكل المساعي، واستخدام جميع السبل، وتسخير جميع الوسائل الممكنة والقدرات المتوفرة، ورغم بذل المسلمين كل جهودهم لكنهم لم يستطيعوا بلوغ هدفهم، ولم يتمكنوا من الوصول إلى المقصود وهو تحقيق النصر وهزيمة العدو، حينها سيمدُّهم الله تعالى بقدر الضرورة، ويساعدهم بما يستحقون من دعم وتأييد.

وأما لو لم يستعن المؤمنون بالسبل الطبيعية، وتكاسلوا عن توظيف الأدوات العادية، ولم يسخّروا ما يمكنهم، ولم يستخدموا ما تحت أيديهم من وسائل،

وقصّروا في تحديد الواجب أو العمل به، ففي هذه الصورة وعند هذه الحالة، يكونون غيرَ جديرين بالمدد الغيبيّ، ولا يستحقون التأييد والدعم الإلهيّ.

إن حالة المؤمنين في مثل هذه المواقف بالضبط تشبه حالة الإنسان المريض، وعلى المرء وهو بمثل هذه الحالة أولاً مراجعة الطبيب، والعمل بإرشاداته ونصائحه بمنتهى الدقّة، فيجب عليه مثلاً الابتعاد عن الأطعمة المضرّة، وعليه الاحتراز والاحتياط أينما حلّ أو رحل؛ حتى يتعافى ويشفى من مرضه، عندها فلو لم يتماثل للشفاء، ولم يستطع أن يداوي علته على الرغم من جميع المعالجات والأدوية، وجميع ألوان التطبيب الطبيعية المتداولة، ومع عدم تقصيره أو تهاونه في مراجعة الطبيب وتناول الأدوية، رغم كل ذلك لم ير أي أثرٍ للتعافي والصحة، ففي مثل هذه الحالة ربما يكون مقتضى الحكمة الإلهية؛ وبسبب الدعاء والتوسل بالله، وهو الشافي الحقيقي أن يتماثل للشفاء بطريقة تشبه المعجزة.

إن توقع المريض بالتعافي والراحة والتماثل للشفاء ما إن يجلس في داره، ويطلب العافية والصحة من الله، من دون أن يستعمل ما يمكن استعماله من الأدوية والعقاقير الطبيّة بانتظام، هو توقع في غير مكانه، وتفكير بلا جدوى.

من هنا وبقاعدة وضابطة واحدة عامة إن الأصل في جميع هذه الموارد أن نستفيد من الأسباب، والأدوات الطبيعية والعقلانية لقضاء حاجاتنا، وهي جزء من إيماننا وتديننا، وعلينا أن لا ننتظر المعجزة للوهلة الأولى، وذلك لأن النظام الإلهي لا يجري المعجزة في كل مكان وبأي مناسبة، ولا يعالج القانون الربانيّ الكونيّ عقد عباده ومشاكلهم بوساطة سبل الإعجاز غير الطبيعية.

ولكن في ضوء الرؤية التوحيديّة يجب أن نلاحظ أن الصعاب التي تواجهنا يمكن أن تحل مرّة عن طريق السبل العاديّة، والوسائل الطبيعة، وأخرى عن طريق الإعجاز والوسائط غير الطبيعية، وكيف كانت الوسائط والسبل طبيعية أو غير طبيعية فإن المؤثر الحقيقي الذي يكون خلفها هو الله تعالى شأنه، أجل، إن الاعتقاد الصحيح بالتوحيد، وفردية الباري تعالى بالتأثير يدعونا إلى أن نرى تأثير هذ الوسائل والأسباب الطبيعية من دون استقلال، أو غنى عنه تعالى، وأنها جميعاً منبثقة عن الله جلّت قدرته.

من هنا ينبغي أن يكون التوجّه الباطنيّ، والاعتماد القلبيّ للإنسان متعلقاً ومرتبطاً فقط بالله تعالى، حتى لو كانت جميع الأسباب والعلل الطبيعية ميسّرة للإنسان، ومتوفرة له تماماً، ففي الوقت الذي يمارس توظيفها وتسخيرها عليه أيضاً أن يطلب العون والمساعدة من الله، ويجب حتّى يؤدي عمله، وينجز مهمته أن يرجو المدد منه، وهذا الموضوع يختلف تماماً عمّن ينأى بنفسه عن العمل والسعي ولا يستخدم عقله وفهمه، ويجلس بانتظار أن تنجز أعماله بنفسها بقدرة الله، فلا يصحّ أن يقعُد الإنسان في بيته ويطلب من الله أن يرزقه، أو يمتنع عن مراجعة الطبيب، ويرجو من الله أن يشافيه من مرضه، أو يترك استعمال الأسلحة والذخائر الحربيّة في مواجهة العدو عند القتال، ويلتمس من الله النصر والظفر.

إن إمكانية مثل هذا الطموح والتفكير عديم الجدوى والفائدة، وأن ترك أي إجراء، والاعتماد فقط على مثل هذا التصور والتوقع من البعيد جداً أن يوصل الإنسان إلى النتيجة المطلوبة.

والنتيجة: هي أن الإمداد الغيبيّ من الله تعالى إلى المسلمين في الجهاد تجاه أعدائهم مشروط بهذا القيد العام؛ وهو أن يبذل المؤمنون كل ما بوسعهم، وأن يقوموا بكل ما أمكنهم لتحقيق النصر، أجل، فقط في صورة أنهم لم يفلحوا في حل أزمتهم فحسب، وبعد تسخير جميع القوى والقدرات الظاهرية، وظل الفرج بانتظار الدعم والإسناد غير الطبيعيّ، عندها سيمدّهم الله بسبلٍ ووسائط استثنائية غير عادية لا يمتلكونها، وكانوا بحاجة إليها فعلاً، فيتجاوزون بذلك محنتهم وتحل مشكلتهم، وهذه النتيجة يؤيدها القرآن الكريم أيضاً، وفي ضوء ما جاء في الآيات القرآنية الشريفة يمكن أن ندرك أن الإعانة الغيبيّة والمدد الإلهي لا يتحقّق من دون قيد ولا يجريه الله لمصلحة عباده من دون شرط.

والآن وبعد عرض هذا البحث العام جاء دور الإجابة عن شروط التأييد الإلهي والإمداد الغيبي وضوابطهما، إذ تعرّض القرآن الكريم لهذا الجانب أيضاً، ونحن نحاول في ما يلي بحث هذا الموضوع.

رابعاً: شروط الدعم الغيبيّ للباري تعالى وأرضياته:

في ضوء ما توصلنا إليه عبر البحث والدراسة وجدنا أن القرآن الكريم بيّن اثني عشر شرطاً وقيداً لنصرة المؤمنين في قتالهم مع الكفار، وكلما التزموا بهذه الشروط ونفذّوها بتمامها سيعتني بهم الباري تعالى عناية خاصة، وسيجري على أيديهم النصر والفتح المبين، وفي ما يأتي عرض لهذه الشروط وبحثها واحداً تلو الآخر:

الشرط الأول: وهو المتعلق بحجم القدرة الإنسانية، إذ يجب على المؤمنين وهم يستعدون للجهاد أن يكون عندهم العدد الكافي من العناصر البشرية والدماء الإنسانية وأن يتوفّر لديهم مقداراً يعتدّ به من الجنود المدرّبين الماهرين، لأنّ العدد الكافي هو بكل الأحوال من أهم الشروط، وأولى الأركان الأساسية والمحورية في القتال بوجه العدو، من هنا فمن الشروط التي يجب على المسلمين توفيرها عندما يقدمون على الحرب هي أن يزيدوا من عددهم إلى الحدّ الكافي والمقنع.

في بدايات البعثة النبوية للنبي الأكرم محمدﷺ كان عدد المسلمين في مكة قليلاً لم يبلغ حداً ومقداراً كافياً يمكّنهم من محاربة العدو، من هنا كان النبي ﷺ مأموراً بعدم البدء بالحرب والقتال، ورغم هذه الظروف التي يعيشها المسلمون إذ لم تزل قدرتهم متواضعة لمواجهة الأعداء، إلا أن بعض المسلمين وكما أشارت إلى ذلك الآية السابعة والسبعين من سورة النساء كانوا متحمّسين للبدء بالقتال، وتحدثوا بحرارة وقوة عن القتال، وكانوا عجولين في محاربة المشركين، لذلك اعترضوا على النبي والمسلمين عندما لم يصدر من النبي الإذن بالجهاد، فقالوا لماذا لا تقاتلون العدو وكيف تمنعونا من قتال المشركين؟!

أجل كان أمر الله تعالى ورسوله واضحاً في مثل تلك الظروف والأحوال التي كان يمر بها المسلمون، وهو الكف عن الدخول في نار الحرب، وبدلاً عن ذلك عليكم أن تهتمّوا ببناء ذواتكم وتهذيب أنفسكم، وانشغلوا بالصلاة ودفع

الزكاة للفقراء والناس المحتاجين ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1]، فقد كانت مناداة هؤلاء بالحرب شعارات تتفاعل وتتحرك في نفوسهم فقط، فكانوا يسعون إلى إشعال نار الحرب، ولكن عندما توفرت الأرضية المناسبة للقتال، ووجدت الشروط الاجتماعية الملائمة حينها أُذن للنبي ﷺ وللمسلمين بالجهاد في سبيل الله، عندما نزل الأمر منه تعالى بالقتال، عند ذلك تجد هؤلاء الأفراد أنفسهم الذين كانت صيحاتهم تتعالى من قبلُ بالقتال والحرب، يتراجعون ويتقهقرون، حينما امتنعوا عن المشاركة في القتال، بل جاؤوا إلى النبي ﷺ معترضين على أوامر الجهاد[2].

وعلى كل حال ومع مرور الزمان تضاعف عدد المسلمين شيئاً فشيئاً، وصاروا أكثر تنظيماً، وقاموا بترتيب صفوفهم، وأصبحت قدراتهم المالية والعسكرية أكبر، حتى بلغت إمكاناتهم العسكرية حدّاً كافياً للمواجهة والقتال، فنزل حكم الجهاد وصدر الأمر الإلهي لمقاتلة المشركين ومواجهتهم.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أن المقصود من هذا الشرط لا يعني أن يبلغ عدد المؤمنين بحجم جيش الأعداء وعددهم، وليس المقصود أن يكونوا أكثر منهم، حتى تكون الحرب تجاه الكفرة والمشركين جائزة وقتالهم سائغاً، لماذا؟ لأنه توجد هناك عوامل أخرى غير عنصر الكم والكيف يكون لها الأثر في تساوي قوى

---

(١) النساء: ٧٧.

(٢) قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٧٧).

الطرفين أيضاً وقدراتهم وتوازنها، وعليه لا ينبغي غضُّ الطرف عن مثل هذه العوامل.

فكثير ما يحصل أن يكون عدد المؤمنين المجاهدين أقل بمرّات من جيش العدوّ، وقدراتهم الإنسانية، ولا تصل عناصرهم ما عليه العدو من عناصر وطاقة بشرية، ولكن بسبب وجود عناصر أخرى أعم من كونها ماديّة أو معنويّة، تصبح قدرتهم العسكريّة والحربيّة بالجملة أقوى من قدرة العدو، كما أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1].

من هنا فإنه في الوقت الذي ينبغي على المؤمنين الانتباه إلى عنصر القدرة والطاقة القتاليّة الحربيّة التي يجب أن تصل إلى الحد الكافي فإن هذا الأمر لا يعني أن يكون عددهم مساوياً أو زائداً على حجم جيش الكفار ومقدارهم، وهذا العامل والعنصر ينبغي أن يكون جزءاً من العوامل الأخرى الدخيلة في التأثير، وقد أحسن القرآن الكريم عندما راعى عناصر أخرى مؤثرة أيضاً غير عنصر الكمية والعدد، واعتبر أن حجم النصاب الضروري يتغير من وقت لآخر وهو تابع لسائر العناصر والعوامل الأخرى، ومن جملة ما ذكره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[2].

إن هذه الآية الكريمة نزلت في الوقت الذي كان الإيمان والاعتقاد قوياً جداً

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) الأنفال: ٦٥.

لدى المسلمين، وكانت روح الإيثار والتضحية والفداء تسود نفوس الأغلبية الساحقة منهم، وكانت جلادتهم وصبرهم قد بلغ حدّاً يمكنهم فيه أن يذيبوا الفولاذ، ويصهروا الحديد، وصار ثباتهم في ساحة المعركة كالجبل الشامخ في وجه العدو، فيواجهون جيش المشركين بقوائم مستوية، ويبادرون إلى مقاتلته دون أن تنحني رقابهم، ولا ينثنون في ساحة المعركة قيد أنملة، أجل هكذا كانوا يقاومون طوفان الحوادث، كالأشجار العتيقة التي تغلغلت جذورها في أعماق الأرض.

ولكن القرآن الكريم يبين حالة أخرى تتعلق بسائر العوامل المؤثرة ويلفت النظر إلى التغيرات والتحولات التي تقلّل من تأثير تلك العوامل ودورها في تداعي موازين القوى، عندما تعرّض إلى ذلك بقوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[1].

في الآية الأولى كان الله تعالى قد أمر نبيه الكريم أن يحث المؤمنين على الجهاد ويرغّبهم فيه، وحتى يزيل ما توهم به بعضهم عندما كانوا يظنّون أن الوقت ما زال مبكراً على الحرب والقتال؛ لأن عدد المسلمين غير مساوٍ لعدد جيش الكافرين وحجمهم، فأراد القرآن أن يعلمهم حقيقة هامة أخرى وهي أنّ مؤمناً صابراً محتسباً يمكن أن يقاتل عشرة من الكافرين، ويستطيع أن يغلبهم، لذلك أُذن للمؤمنين الإقدام على الحرب، وزرع الله فيهم الأمل بالنصر، ومن حيث

---

(١) الأنفال: ٦٦.

عدد المقاتلين فإنهم سينتصرون حتى لو كانوا عُشر عدد جيش العدو، فذلك العدد وهو بهذا الوصف سيكون كافياً لتحقيق النصر.

وأما الآية الثانية فهي ناظرة إلى ظروف أخرى غير الظروف والأحوال التي تحدثت عنها الآية الأولى، فهي متعلقة بالظروف والأحوال التي كانت فيها قوة وإيمان، واعتقاد المسلمين قد استحوذ عليها الضعف والوهن، من هنا فقد جعل الله تعالى تكليفها أقل وطأة وأخف شكيمة، فأمر تعالى بأن يكون واجبهم في ضوء الأوضاع الحالية التي هم عليها الآن، على نحو لو كان عدد جنود المسلمين نصف حجم جيش الكافرين سينتصرون عليهم، وفي مثل هذه الظروف عليهم أن لا يقلقوا بسبب حجم القدرة، وكثرة جيش العدو، ويمكنهم الإقدام على الحرب أيضاً.

وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن المؤمنين لو التزموا بما يجب، وبلغوا درجة الكمال اللائق بهم حتى يصلوا إلى درجة الإيمان القصوى، سوف يتمكن كل واحد منهم أن يواجه عشرةً من جنود العدو، وحتى لوكان عددهم عُشر عدد العدو يمكن أن يوفّروا الشروط والظروف المناسبة للمشاركة في القتال أيضاً، ولكن في كل زمان ومن جملته هو زمان نزول الآية الثانية فليس الأمر كذلك، ولكن مع هذا الوصف سيكون كل واحد مقابل اثنين أيضاً، إذن يجب أن يبلغ عددهم في الأقل نصف عدد المشركين حتى يجوز تكليفهم بخوض الحرب على العدو؛ لأنه وهم على هذه الحالة سيبقى هناك أمل بتحقيق النصر، ولكن قبل حلول ذلك الزمان يجب عليهم الامتناع عن المبادرة إلى الحرب، لماذا؟ لأن تلك

الفترة ستكون فاقدة لشروط المشاركة وضوابطها في الحرب، واحتمال النصر، وهزيمة الأعداء فيها ضعيفة جداً، وعليهم أن لا يتهوّروا ويلقوا بأنفسهم إلى التهلكة دون جدوى أو فائدة.

وعلى كل حال نستخلص من هاتين الآيتين أن المسلمين قبل الإقدام على الحرب والقتال مع الكفار ينبغي عليهم أن يلاحظوا الشروط والضوابط المتعلقة بالحرب كافة، وعليهم أن يتأملوا في القدرة البشريّة، وبلوغها الحد والنصاب المُقنع، وبنحوٍ عام ينبغي أن يكون احتمال النصر والظفر في المعركة احتمالاً معتداً به قابلاً للتحقق.

الشرط الثاني: هو الشرط المتعلق بالجانب الاقتصادي للحرب، وضرورة تأمين كلفها المالية، وتجهيز الموارد والنفقات المادية اللازمة في فترة الحرب، لاشك في أن كل حرب من الحروب تختلف في ما يخص حجم نفقاتها وكلفها الماليّة، وعادة ما تكون الدولة الإسلامية عاجزةً عن توفير هذا الغطاء الاقتصادي لكلف حرب من الحروب ونفقاتها، لاسيما إذا كانت تلك الحرب واسعة وطويلة، من هنا كانت كثير من الموارد التي تؤمّن بعض احتياجات الحرب ومستلزماتها كانت مناطة بالمسلمين أنفسهم.

في مقطع من المقاطع التاريخية وهي المرحلة الزمنية الأولى من بعثة النبي ﷺ كان المسلمون قد بلغو حدّاً من الفقر والفاقة بحيث غالباً ما يكون بيت المال فارغاً، وذلك لوجود قدر كبير منهم فقراء محتاجين، فلا يبقى شيء بحوزتهم ليجمعوه ويُودعوه بيت المال، ولو اجتمع شيء منه هناك فهو سرعان ما ينفق، فما

إن يتوفر بعضه حتى يحصى ويقسم بين الناس لمساعدتهم وإعانتهم على تأمين بعض المستلزمات الضروريّة في حياتهم وقضاء بعض حاجاتهم الخاصّة.

وفي مثل هذه الظروف الصعبة لو اعتدى عدوٌّ من الأعداء على المسلمين، عندها يكونون مجبرين على تأمين كل نفقات الحرب من مالهم الخاص، من هنا نجد بين الآيات التي تحثّ على الجهاد أنها توصي المسلمين بتهيئة نفقات الحرب عن طريق التمويل الذاتي، واستخراج كلفتها من أموالهم الخاصة، وتقول لهم بطريقة التشجيع أن هذا العمل هو الآخر سيكون جزءاً من الجهاد، ويسمى الجهاد بالمال أو الجهاد المالي كما مرّ سابقاً، وهنا نشير إلى بعض هذه الآيات الكريمة.

يقول تبارك وتعالى في إحدى الآيات الشريفة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

تضمنت هذه الآية التي جاءت في سياق آيات الجهاد أمر الباري تعالى للمسلمين بالإنفاق في سبيل الله، وبذل الأموال وإعطائها؛ كونه جزءاً من الجهاد والكفاح المالي والاقتصادي من أجل توفير كلفة الحرب وتأمين نفقاتها؛ ثم وبجملة «وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» يذكر المسلمين بأنهم لو لم ينهضوا بالجهاد المالي، ولم يدفعوا نفقات الحرب، فمن الطبيعي جداً أن يخسروا الحرب ضد العدو، وينكسر جيش المسلمين، وهذا الأمر يعني في الحقيقة أنهم ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة والموت، لأن الحرب مثل أي عملية وممارسة أخرى تحتاج

---

(١) البقرة: ١٩٥.

إلى مال ونفقة؛ فلو كان النصر مطلوباً ومقصوداً في الحرب ضد العدو يجب أن يبذل المال لتحقيق ذلك النصر.

وفي آية أخرى وحتى نبقى في هذا الموضوع نفسه نقرأ أيضاً: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[1].

ذكرت هذه الآية أيضاً في سياق آيات الجهاد لتحث المسلمين على الجهاد المالي بوسيلة أخرى، إذ إن هذه الآية تتحدث إلى المسلمين لتقول لهم: اعلموا أن ما تنفقونه في سبيل الله لا يذهب سُدًى؛ بل سيعود إليكم، وسيكون لكم في الآخرة أجر معنويٌّ عظيم، فضلاً عن أنه سيؤدي إلى نصركم في الدنيا وهزيمة العدو الكافر.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾[2].

يتناول الباري تعالى في هذه الآية موضوع الاقتصاد الحربيّ، والإنفاق من أجل الجهاد، فيدعو المسلمين من خلال التعبير الذي يتضمن تهديداً صريحاً وقوياً؛ عندما قال: «هَا أَنتُمْ هَؤُلاء» يدعوهم إلى الإنفاق في سبيل الله، ويرغّبهم في الجهاد المالي، ويؤكد أن كلّ من يبخل في هذا الموطن، ويمسك عن الإنفاق على الحرب فإنه في الحقيقة إنما يبخل على نفسه، ويقصر بحقّها، وهو يعمل في الواقع على خسارته وضياعه، وذلك:

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) محمد: ٣٨.

أولاً:سيكون سبباً في هزيمة المسلمين التي سيذوق مرارتها أيضاً، وسيرى الانكسار بعينه.

ثانياً: سيحرم من الأجر والثواب الذي أعدّه الله له في الآخرة عوضاً عن الإنفاق في سبيل الله، وفي النهاية يشير تعالى إلى أن الله سبحانه غنيٌّ، وهو ليس بحاجة أبداً إلى أموالكم أو إنفاقكم، وهو إنما أمركم بذلك فهو من أجل تساميكم في منازل الكمال ودرجاتها.

وخلاصة الشرط الثاني: إن المؤمنين حتى يحظوا بدعم الباري تعالى وتأييده، عليهم أن لا يندموا، ولا يتأسّفوا عندما يؤمّنون نفقات الحرب، وعليه إن من يبخل من الناس ويمتنع عن إنفاق أمواله من أجل إدارة شؤون الجهاد في سبيل الله، ويمد في الوقت نفسه يد الاستغاثة وطلب العون من الباري تعالى ويأمل بذلك الانتصار على العدو، مثل هذا لا يفقه القرآن فقهاً صحيحاً، ويعيش ضرباً من الخيال، ولم يزل في حلمه الوردي.

الشرط الثالث: وهو الشرط المتعلق بتجهيز الأسلحة والذخائر القتالية، والمرتبط بأدوات الحرب ووسائلها، فلو قرّر جنود الإسلام أن يقاتلوا العدوَّ فعليهم أن يتسلّحوا بأسلحة حديثة ومتطورة، وفي أقل تقدير لابد من أن تكون تلك الأسلحة والذخائر متناسبة مع ما لدى العدوِّ من معدات وتجهيزات قتالية، حتى يتمكنوا من قتال العدو والانتصار عليه في الحرب.

عندما يكون هدف المسلمين هو إخافة أعداء الإسلام، وزرع الرعب في

نفوسهم وقصدهم الاستعداد، وتسهيل الظروف والأجواء المناسبة لمواجهة العدو الذي لم يزل تجاوزه عالقاً في أذهان المسلمين وتعدّيْه ماثلاً أمامهم، فينبغي أن يكون ذلك الاستعداد عبر توفير التجهيزات، والأسلحة المتطورة، وأن تكون تحضيراتهم للحرب على وجه أكمل وأفضل من استعداد العدوّ للمعركة، أو في الأقل يكون الاستعداد مساوياً لاستعدادهم، وعليهم أن يصنعوا الطاقات القتالية، ويدربون المقاتلين ويعلمونهم فنون الحرب والمواجهة؛ ليكونوا على أهبة الاستعداد لخوض الحرب، يقول تعالى عن هذا الموضوع: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1].

الشرط الرابع: وهو الشرط المتعلق بالالتزام والانضباط والطاعة للقادة، فإن المؤمنين مكلفون دائماً - ولاسيما عندما تقرع طبول الحرب، ويحمى وطيسها - بطاعة قادتهم المرسلين من قبل الله أو المأذونين منه تعالى بالإمارة والحكومة، والاستجابة لأوامرهم واتّباع تعليماتهم.

فلو لم يتحلَّ المقاتلون بالانضباط والالتزام بالتعليمات العسكرية، وكل واحد منهم بدل أن يطيع، ويأتمر بأوامر قائده، يريد أن يعمل برأيه وهواه، ويصنع ما يمليه عليه فكره؛ لزالت الوحدة والتماسك عن صفوف الجيش، وحلّت محله الفرقة والتشظي، وهذا الأمر هو الآخر يسبب الضعف والانكسار، وفي النهاية

---

(١) الأنفال: ٦٠.

يؤدي إلى الهزيمة وتلاشي الجيش والعسكر.

من هنا إن موضوع الالتزام والانضباط في الجيش أمر مهم جداً، لاسيّما في العصر الحاضر، إذ تحكم جيوش العالم هذه الأيام تعليمات وأوامر حديدية صارمة غير قابلة للمناقشة أو المخالفة إطلاقاً، ومن سوء تعقيدها نجد أن كثيراً من القادة والجنود يحاكَمون بمحاكمات قاسية ويعاقبون على عدم الالتزام بالأوامر عقوبات شديدة.

يقول تعالى في هذا الخصوص: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

تؤكد هذه الآية نقطتين أساسيتين:

الأولى: على إطاعة رسول الله ﷺ؛ ولاسيّما عندما يحين وقت الحرب والقتال.

الأخرى: على الإعراض والابتعاد عن كل ألوان الاختلاف والصراع والخصام والفرقة، وكل واحدة من هاتين النقطتين هي الأخرى لها الأثر البالغ في تبلور نتيجة المعركة، والتقصير أو التباطؤ في أداء أي واحدة منهما يكون سبباً في ضعف الجبهة الإسلامية، وهزيمة المسلمين، ومن هنا أكّد الله تعالى في القرآن الكريم هاتين القضيتين المحوريتين تأكيداً خاصاً.

---

(١) الأنفال: ٤٦.

الشرط الخامس: وهو شرط يتعلق برعاية الأساليب الحربية والمهارات القتالية، فلا يصح المواجهة والقتال مع العدو الدمويّ دون العناية بطبيعة الحركة والمغامرة في أثناء المعركة.

إن المقاتلين المؤمنين عليهم أن يتعلّموا كل أساليب القتال وطرقه، وقواعده، وعليهم أن يطبقوها بدقة وعناية فائقة، وينبغي عليهم أن يكونوا دائماً على أهبّة الاستعداد، لا تفارقهم أسلحتهم، حتى لا يستغفلهم العدو، ويجب عليهم حتى يباشروا العدو بالقتال أن يلتزموا بشروط مختلفة، ويلاحظوا ضوابط متنوعة، فلو كانت الأوضاع والشروط مناسبة لهجوم واحد، وصولة واسعة متحدة قاموا بذلك، ولو كانت الأمور غير مؤاتية لمثل هذا الهجوم، وكانت الظروف تسمح بهجوم متفرق أو غير منظّم يشبه نوعاً من حرب العصابات أمكنهم أن يقاتلوا العدو عبر هذا الأسلوب، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾[1].

الشرط السادس: وهو الأمر المتعلق بحيطة المسلمين وحذرهم، والمرتبط بسوء ظنهم بالعدو أيضاً، فعلى المقاتلين المسلمين ولاسيّما القادة منهم أن يحذروا جيداً من مكر العدو وحيلته، وأن يكونوا يقظِين دائماً حتى لا يقعوا في شراك خداعه، فمن الطبيعي جداً أن لا يتوانى العدو، وحتى يلحق الهزيمة بالمسلمين، ويحقق النصر لصالحه؛ ومن أجل أن يصل إلى مقصده وهدفه، ولا يدّخر أي

---

(١) النساء: ٧١.

سبيل أو وسيلة لتحقيق ذلك، ولا جدال أيضاً في أن العدوَّ سيستعمل في حالة الضرورة خططه المخادعة، وحيله الماكرة في سبيل خداع المسلمين وتضليلهم، مثال ذلك: في كثير من الموارد يمكن أن يكون للعدو قصد حقيقيّ في إكمال الحرب، ولكن حتى يبلغ هدفه بأقل الخسائر، وأوطأ الكلف، أو حتى يوقع بالمسلمين أكثر، ويلحق بهم أفدح الخسائر يخادع ويحتال عن طريق الصلح الظاهر، والسلام المزيف، والهدنة والتحكيم، حتى يخدع الرأي العام ويمرر مقاصده ومآربه بحجة ذلك.

من هنا ينبغي على المسلمين وكل المقاتلين لاسيّما القادة العسكريين وأمراء الفرق؛ ولاسيّما القائد العام وشخص الزعيم، لأن موقعه يؤثر سلباً أو إيجاباً على عامة المسلمين وكل المؤمنين، عليهم جميعاً أن يكونوا على أقصى درجات الانتباه واليقظة، حتى لا يكونوا لقمة سائغة لخداع العدوّ ومراوغته، ودجله، وغشه، وحيله، وعليهم المحافظة على المصالح الدنيوية والأخرويّة للمجتمع المسلم وجيش المسلمين، يقول تبارك وتعالى عن هذه القضية: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾(١)، وفي آية أخرى يقول أيضاً: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾(٢).

الشرط السابع: وهو الأمر المتعلق بضرورة كسب العلم والاطلاع على المعرفة والمعتقدات الصحيحة، وهوما تعرض له ذيل الآية ٦٥ من سورة الأنفال

---

(١) الأنفال: ٥٨.

(٢) محمد: ٣٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾[1]، عندما بيّنا سابقاً من خلالها الشرط الأول من الشروط الاثني عشر، ففي هذه الآية يذكر الله تبارك وتعالى أن سبب ضعف الكفار ووهنهم في مواجهة المؤمنين أنهم حُرموا الإدراك والفهم العميق للمعرفة الحقّة، وفقدوا الدراية بالاعتقاد الصحيح، وأشار إلى هذا الأمر بقوله «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ»، ونحن هنا ومن خلال قرينة التقابل يمكن أن نفهم عبر هذه الآية الشريفة أيضاً إحدى نقاط القوة، وعوامل القدرة لدى المسلمين والمؤمنين، وهي الإدراك والفهم الرفيع للرؤى العقدية الصحيحة.

إن الكفار إنما يحاربون ويقاتلون من أجل أن يحصلوا على المكاسب المادية، ويكسبوا الثروة والقدرة والقوة الدنيوية، ولا يعنيهم البعد المعنوي والحياة الأخرويّة، ولا يدرون ماهي نتيجة عملهم، ولا يعون غاية سلوكهم ونهاية مصيرهم، وما الذي يحصل لهم بعد الموت، في حين يقدم المؤمنون على القتال ويسيرون إلى ساحات المواجهة بدافع رضا الله وطاعته، ومن أجل التقرب إليه سبحانه وهم بذلك يقارعون أعداء الله وأعداء الإسلام والعدالة.

إن هؤلاء يدركون جيداً ما هي عاقبة عملهم؟ وما هو المصير والنهاية التي تنتظرهم؟ وعلى كل حال إن مستقبلهم بيّنٌ وعاقبتهم واضحة جلية، ويعلمون أنهم منتصرون مرفوعو الرأس سواء حققوا النصر الظاهري وهزموا العدو أم

---

(١) الأنفال: ٦٥.

لا، إن جبهة الكفر تتخبط بطريقة عشوائية، والجنود الذين يقاتلون في صفها يخطون خطوات عمياء، ولا يدرون لماذا يقاتلون أساساً، ولا يفهمون وضعهم ولإمكاناتهم في هذا العالم، ولا يعرفون من هو عدوهم وخصمهم الحقيقيّ، وهم في الحقيقية عندما يقاتلون فإنهم يرمون السهم في الظلام، في حين يدرك المؤمنون ما يصنعون عن علم وفهم وبصيرة ومعرفة.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نفهم من مجموع منطوق هذه الآية الشريفة ومفهومها أن عامل قوّة المؤمنين وقدرتهم هو فهمهم العميق ومعرفتهم الصحيحة، وفي المقابل نعلم سبب ضعف الكفار وهزيمتهم هو قلة الوعي، وانحراف الفهم، والجهل واعتناقهم معتقدات الشرك الباطلة، وإذا كان الأمر كذلك فكلما كثر علم المؤمنين وزادت معرفتهم ستتضاعف قوتهم وستزداد قدرتهم أيضاً، إذ إن المؤمنين مكلّفون بتوفير وسائل نصرهم ومقدماته على الكفار، إلى جانب تجهيز الجيش بالعدّة والعدد، وتحضير الأسلحة الحديثة والمتطورة، ينبغي عليهم أيضاً أن يطوّروا هذا العامل القوي المحفّز أيضاً.

الشرط الثامن: هو وجود التقوى، فقد جاء في الآية ١٢٥ من سورة آل عمران التي ذكرناها في فقرة الدعم والإسناد غير الطبيعيّ للباري، إذ ورد في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٢٥.

وعليه إن وجود التقوى والورع هو شرط أساسي وضروري لمن يريد الإمداد الإلهيّ والإسناد الغيبي، فلو لم يكن المؤمنون المجاهدون متّقين، ولم يكونوا زاهدين ورعين، عليهم أن لا يرجو إمدادات استثنائية ودعماً غيبيّاً من الله تبارك تعالى.

الشرط التاسع: هو التحلي بالصبر والثبات، ففي ضوء الآية التي مرّ ذكرها في الشرط السابق (١٢٥ آل عمران) فإن الصبر والجلادة والثبات تعتبر من جملة الشروط في تحقق الإعانة الغيبيّة من قبل الله تعالى.

كذلك أكدت الآيتين ٦٥ و ٦٦ من سورة الأنفال أيضاً التي أوردناهما في الشرط الأول من الشروط الاثني عشر واعتمدنا عليها في بيانه، إذ أكد الباري تعالى هناك صفة الصبر والاستقامة بعنوانها شرطاً أساسياً وضرورياً في ما يخصّ المقاتلين والمجاهدين المسلمين.

أساسا، وبنحوٍ عام، ومع قطع النظر عن الحرب والجهاد، فإن القرآن الكريم ألحّ على هذا الوصف كثيراً، وفي أكثر من سبعين موضعاً، إما إن يمدح من يتصف بهذا الوصف أو يأمر ويوصي به، ولاسيما أنه يعتبر دور الصبر والثبات في الحرب والجهاد في سبيل الله دوراً مفصلياً وأساسياً في تحقق النصر على الأعداء.

الشرط العاشر: هو التوكل على الله سبحانه وتعالى، فإن جميع الآيات المتعلقة بالجهاد تدل على أن الله تعالى اعتنى عناية فائقة، واهتم بهذا الأمر اهتماماً بالغاً.

وعلى المؤمن أن يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهي أن النصر والفتح والظفر إنما

يأتي من الله تعالى فقط، فلا ينبغي على المقاتلين المؤمنين والمجاهدين المسلمين في الوقت الذي يسخّرون جميع الأسباب والوسائل المادية أن يطمئنوا ويظنوا أن توفر الأسباب الظاهرية وأدوات الحرب والقوة الكبيرة هو الذي سيسوقهم إلى النصر على العدو قطعاً؛ بل مع استخدامهم الكامل لكل الأدوات والوسائط والأسلحة القتالية عليهم أن يعتبروا الله سبحانه وتعالى هو المؤثر الحقيقيّ، فيتوكلون عليه ويعتمدون على لطفه وعنايته ونصره.

وفي إحدى المعارك التي جرت في زمن النبي ﷺ وهي (معركة حنين) هُزِم المسلمون هزيمة مذلة، وذاقوا مرارة خسارة المعركة بسبب غفلتهم عن هذا الأمر الهام، عندما اعتمدوا على زيادة العدّة والعدد، واطمأنوا لكثرتهم، فاغترّ المسلمون وابتهجوا عندما شاهدوا العدد الغفير من المجاهدين، فإنهم وعلى الرغم من هذه الأبّهة والعظمة الظاهرية في صفوفهم ومعسكرهم وحجم القدرة البشرية، إلا أنّ كل تلك الجهود والقوى انتهت إلى الهزيمة والانكسار، عندها انتبهوا إلى أن كثرتهم وزيادة أعداد الجيش في معسكرهم هي التي ملأت أعينهم وجعلتهم يغفلون عن ذكر الله والتوكل عليه، فإن الاغترار بكثرة الجمع أدّى إلى العجب والخيلاء، فأدى إلى الضعف والوهن وعدم المبالاة، وكان السبب في عدم الاهتمام بقوة العدو وقدرته، الأمر الذي انتهى بجيش المسلمين إلى الهزيمة والخسارة في المعركة، لذلك يقول سبحانه وتعالى عن هذه الواقعة المرهقة:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

مُّدْبِرِينَ ﴾(١).

الشرط الحادي عشر: هو الدعاء والاستغاثة بالله تعالى، في الآية التاسعة من سورة الأنفال عندما بينت الإمدادات الغيبية، والدعم الإلهي في النصر، ذكرت بعد ذلك: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(٢).

يقول تعالى في كتابه الكريم عن كل عباده والمجاهدين الذين يقاتلون جنباً إلى جنب مع رسله وأنبيائه في حربهم ضد أعداء الحق والحقيقة ما نصّه: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٣).

الشرط الثاني عشر: هو ذكر الله تعالى، إذ على المؤمنين أن يلهجوا دائماً بذكر الله ويكثروا منه، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٤).

فكما تبين من خلال عرض الشروط الاثني عشر التي يحمل بعضها بعداً مادياً وظاهرياً، والجزء الآخر منها فيه بعد وجانب باطنيّ ومعنويّ، وكيف كانت هذه الأبعاد فإن المهم هو أن شرط كسب العناية، والتأييد الإلهي، والإمدادات الغيبيّة

---

(١) التوبة: ٢٥.
(٢) الأنفال: ٩.
(٣) آل عمران: ١٤٧.
(٤) الأنفال: ٤٥.

هو الالتزام الكامل بهذه الشروط، وإنما يتحقق هذا الدعم الربانيّ فقط في صورة أن يكون المؤمنون بحاجة حقيقية للمساعدة وضرورة ملحّة للعون، فيمد الله تعالى يد المساعدة عن طريق السبل الاستثنائية والدعم الغيبي.

استعرضَ المؤلّفُ (دام ظله) النظريّاتِ المتنوّعة حولَ الحربِ فلسفيّاً واجتماعيّاً، ليصلَ إلى رؤيةِ الإسلامِ؛ مبيّناً تعاليمَهُ الكلّيّةَ، وما عرضهُ القرآنُ الكريمُ منْ آثارٍ مترتبةٍ على الحربِ.

ثمّ عادَ ليُظهرَ مكانةَ الحربِ في النّظامِ التشريعيِّ، وكونها ضرورةً لحفظِ حياةِ الناسِ، مستقرئاً الحروبَ الّتي ذكرَها اللهُ تباركَ وتعالى في كتابِهِ العزيزِ؛ وصولاً إلى الجهادِ في الإسلامِ؛ فشرحَ بعدَهُ التشريعيَّ، وبيَّنَ الاختلافِ بينَ الدفاعِ والقِصاصِ؛ وماهيَ مدَيَاتِ القِصاصِ وحدودِهِ في الحربِ.

وقدْ أجادَ (دام ظله) في بحثِ التصنيفِ القرآنيِّ للحروبِ وأقسامِها، كحربِ المشركينَ، والكفّارِ، وأهلِ الكتابِ، والمنافقينَ، وأهلِ البغيِ، ولِمَ كانَ الجهادُ غايةً لخلاصِ المستضعفينَ، وأنّهُ دفْعٌ ومقابلةٌ بالمِثلِ.

ثمّ بحثَ تسلسلَ آياتِ الجهادِ، وكيفَ أنّ الجهادَ الابتدائيّ مصداقٌ للدفاعِ؛ ليصلَ إلى سبلِ تربيةِ المجاهدينَ وتشجيعِهمْ، ويختمَ بمبحثٍ من ألطفِ المباحثِ؛ وَهُوَ أساليبُ الدّعمِ الإلهيّ الغيبيّ لنصرةِ الحقِّ، وما هِيَ الشروطُ الواجبُ توافرُها لتحققِ هذا الدّعمَ.





للنشر والتوزيع
العراق-بغداد-مدينة الصدر-ساحة مظفر
E.mail: almusbaah@yahoo.com
phone: 07705787174 07822025045